تنزيه الأنبياء

عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء

تأليف

أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي - المعروف بابن حمير

تحقيق

الدكتور محمد رضوان الداية

أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

تنزيه الأنبياء

عما نسب إليهم حثالة الأغبياء



الكتاب ١٨.
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

لبنان - **بيروت** - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، س . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

مُقَدِّمَةُ التحقِيق



[١]

يتميز هذا الكتاب بعنوانه، كما يتميّز بموضوعه الذي اجتهد مؤلفه في استيفائه وبلوغ المُرَاد منه؛ وكتبه بحماسةٍ، وصدق؛ ولكنْ من خلال مطالعة تاريخية وتوثيقيّة دقيقة، ومن وراء منهج علمي عقليّ واع.

ولم أجد في المكتبة العربيّة المخطُوطة والمطبوعة، ولا فيما سجّله بروكلمان في تاريخه غير أربعة عناوين في هذا المقصد:

أحدها: كتاب الشريف المُرْتضى (أبي القاسم عليّ بن الحسين البغدادي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) واسمه: «تنزيه الأنبياء»[١].

والثاني: هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء.

والثالث: كتاب السّيوطي «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء».

والرابع: تنزيه المصطفى المختار عما لم يثبت من الأخبار والآثار لأحمد الوفائي المتوفى ١٠٨٦[٢].

وكتاب الشريف المرتضى، وكتابنا هذا يتقاربان ويدوران في فلك واحد

---

(١) كتاب تنزيه الأنبياء للسيد الشريف المرتضى، طبع في المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف
(٢) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون ١: ٣٢٩؛ ولم يُذكر في كتبه الباقية.

عدا ما أضافه الشّريف في كتابه من حديث عن «الأئمّة»؛ وهو حديث خارجٌ عن موضوع الأنبياء وتنزيههم؛ فإذا فصلنا ذلك من كتابه؛ اقترب أحد الكتابين من الآخر اقتراباً كبيراً.

أما كتاب السّيوطي فيتعلّق بقضيّة من قضايا التنزيه؛ وهو رسالة صغيرة ألّفها نتيجة حادثة (كلام) وقعت بين اثنين، ورد في شغب أحدهما ذكر اتّخاذ الأنبياء عليهم السلام الرعّي عملاً أو مهنة. واختلفت الفتوى في ذلك الشغب (الكلام) الذي صدر. فتصدّى السّيوطي وألّف تلك الرسالة قال: «والسبب في تأليفه ـ يعني كتابه ـ أنه وقع أنّ رجلاً خاصم رجلاً فوقع بينهما سبٌّ كثير، فقذف أحدهما عرض الآخر، فنسبه الآخر إلى رَعْي المِعْزَى، فقال له ذاك: تنسبني إلى رعي المعزى؟ فقال له والِدُ القائل: الأنبياء رعوا المعزى، أو: ما من نبيّ إلا رعى المِعْزى! وذلك بسوق الغزل بجوار الجامع الطولوني، بحضرة جمع كبير من العوام، فترافعوا إلى الحكّام، فبلغ قاضي القضاة المالكي فقال: لو رُفِعَ إليّ لضربتهُ بالسياط» قال السيوطي: «فسئلت: ماذا يلزم الذي ذكر الأنبياء مستدلاً بهم في هذا المقام؟

فأجبت بأن هذا المُستدِلّ يعزّر تعزير البالغ، لأن مقام الأنبياء أجلُّ من أن يُضرب مثلاً لآحاد الناس، ولم أكن عرفت من هو القائل ذلك؛ فبلغني ـ بعد ذلك ـ أنه الشيخ شمس الدين بن الحمصاني إمام الجامع الطولوني، وشيخ القرّاء، وهو رجل صالح في اعتقادي. فقلت: مثل هذا الرجل تُقَالُ عثرته، وتُغفر زلّته، ولا يعزّر لهفوةٍ صدرت منه، وقال: إنّ هذا القائل لا يُنسب إليه في ذلك عثرةٌ ولا ملام، وإن ذلك من المباح المُطلق: لا ذنب فيه ولا أثام، واستُفتي على ذلك من لم تبلغه واقعة الحال فخرّجوه على ما ذكره القاضي عياض في (مذاكرة العلم) لأجل ذكر لفظ الاستدلال في الجواب والسؤال».

قال السيوطي: «فخشيت أن تشرب قلوب العوام هذا الكلام فيكثروا من استعماله في المجادلات والخصام، ويتصرّفوا فيه بأنواع من عباراتهم الفاسدة،

فيؤدّيهم إلى أن يمرقوا من دين الإسلام فوضعت هذه الكراسة نصحاً للدين وإرشاداً للمسلمين. . . »[٣].

فوضع كتاب السيوطي ـ أو رسالته ـ كان لسبب مخصوص، وهي تدور حول مسألة بعينها؛ مما يجب فيه توقير الأنبياء وتنزيههم.

[٢]

وعنوان الكتاب الذي نقدّمه اليوم محقّقاً هو: (كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء؛ ومجموع نُكَت ما خُصّ به نبيّنا صلى الله عليه وسلم من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم وما كان بينهما من المراجعة والمحاورة في أمر الصّلاة).

وقد جعلت العنوانَ مختصراً منه، حتى تبقى له صفة العنوان؛ ولأنّ موضوع الكتاب الأصلي هو الكلام في تنزيه الأنبياء؛ أمّا سائر العنوان فيشير إلى فقرة (أو فصل قصير) أضَافَهُ المؤلف إلى كتابه زيادة في بيان ما خصّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكرامات.

واعتمدت في نشر الكتاب على نسخة محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية (كانت محفوظة في المكتبة العثمانية بحلب برقم ٦٤٣) تقع في ٦٦ ست وستين ورقة من القطع المتوسط، وفي آخر هذه النسخة:

«كمل بحمد الله ومَنّه وَحُسْنِ توفيقه؛ ووقع الفراغ من تحريره على يد الفقير الخاطىء المذنب الرّاجي عفو ربّه الكريم إسحاق بن محمود بن ملكونه (غير معجمة: ملكويه؟) بن أبي الفيّاض الشابرخواستي البرجردي. غفر الله له ولوالديه ولجميع أمّة محمد برحمته الواسعة؛ وذلك في الخامس عشر من صفر

(٣) تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء، تأليف جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١ هـ) تحقيق الدكتور خالد عبد الكريم جمعة وعبد القادر أحمد عبد القادر ـ مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ ١٤٠٨ / ١٩٨٨ ص ١٥ ـ ١٦.

سنة ست وأربعين وست مئة بالقاهرة المحروسة المعزّية.

والأصل الذي انتسخ منه كان مقابلاً بأصل المؤلف ـ رحمة الله عليه ـ.

والحمد لله وحده، وصلواته على نبيّه محمد وآله وصحبه وعترته الطيبين الطاهرين».

وعلى غلاف الكتاب أسماء عدد من المؤلّفات والرّسائل التي ضمّها ذلك المجلد، وهي بالنّص:

« ـ وفيه طبقات الفقهاء للإمام العلامة أبي إسحاق الفيروز أبادي رحمه الله ـ وفيه مختصر من رسالة الاحتجاج للإمام الشافعي رضوان الله عليه تصنيف الحافظ العلاّمة أبي بكر بن ثابت الخطيب البغدادي رحمه الله ـ وفيه نصرة القولين للإمام الشافعي رضي الله عنه تصنيف أبي العباس بن القاص الطبري رحمه الله ـ وفيه القول في حقيقة القولين تصنيف الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه».

الراجي منه العفو والغفران إبراهيم بن الملاّ أحمد بن الملاّ محمّد الشهير بابن الملاّ العبّاسي الحلبيّ خادم الحديث النبوي وأهله» وبعده: «تحريراً في محرم الحرام ٩٩٧» ـ وسنعرّف بصاحب المخطوطة فهو من أهل العلم والفضل ـ.

وحلّى المؤلّف في صفحة الغلاف بهذه العبارة «تأليف الشيخ الإمام الفقيه المرحوم أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، عُرِف بابن حُمَير».

[٣]

في جملة الأُصول التي اجتمع عليها جمهرة المسلمين، وكَما لخّص البغدادي في (الفرق: ٣٤٣): «أنهم قالوا بعصمة الأنبياء عن الذنوب؛ وتأوّلوا ما روي عنهم من زلاّتهم على أنها كانت قبل النبوة».

وفي الفرق الإسلامية من أجاز على الأنبياء الصّغائر من الذنوب وهم أكثر المعتزلة؛ على أنهم يُقرّون أنها من الصغائر التي «لا يستقرّ لها

استحقاق عذاب وإنما يكون حظه تنقيص الثواب». وروى الشريف المرتضى في تنزيه الأنبياء عن أبي علي الجُبّائي المعتزلي قوله إن [الذنب] الصغير يسقط عقابه بغير موازنة؛ قال: فكأنهم معترفون بأنه لا يقع منهم ما يستحقّون به الذمّ والعقاب.

وقالت الشيعة الإمامية: لا يجوز على الأنبياء شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان أو صغيراً لا قبل النبوة ولا بعدها؛ كما قرّر الشريف في التنزيه في مقدّمة كتابه (ص: ٣).

ونخرج من هذا ـ ومثله ممّا لا ضرورة إلى الاستفاضة فيه ـ إلى أنّ جمهرة المسلمين، في كل عصر، ينزّهون الأنبياء، ولا يجيزون عليهم إلّا ما يليق بهم.

وقد دار كتاب الشريف المرتضى، كما دار كتاب مؤلفنا ابن حمير الأموي السبتي في هذا الإطار: أعني تنزيه الأنبياء عمّا لا يليق بهم؛ واجتهد ابن حمير في التّوسُّع في تقديم أخبار الأنبياء التي كانت مجالاً لأولئك الجاهلين أو ذوي النّيّات السيئة، أو أولئك المؤرّخين الضّعاف والقصّاصين الذين يعتمدون على الإثارة والإغراب دون أن يتّقوا الله تعالى في الكلام على أنبيائه المكرّمين.

[٤]

ذكر المؤلف في مقدمة كتابه السّبب الذي حدا به إلى تأليف هذا الكتاب، وبيّن أنه ألّفه بناءً على رغبة بعض الطلّبة (متابعي الدّراسات الشّرعيّة والنقلية عامّة) لاستدراك أوهام قد تقع في الأذهان من أخطاء وأوهام ودسائس تصدر عن فئات معيّنة: «من غُثاء الفرق المضلّين من أوباش المعطّلة الضالّين وأرذال اليهود والنّصارى، ومقلّدة المؤرّخين والقُصّاص المجازفين الجاهلين بحقيقة النبوّة»؛ وقصد المؤلف إلى إرشاد القارىء إلى معرفة حقيقة النبوّة، وبيان ما يجوز على الأنبياء وما يستحيل، وما يجب من توقيرهم، وتدقيق النّظر في استخراج مناقبهم، ومعرفة ما أوجب الله على الناس من التفقه في القرآن لتوحيد الله تعالى وتنزيهه، ووصف أنبيائه الذين اصطفى بالصّدق والعصمة والتنزيه من

الخطأ والخطل، وما جاؤوا به من شعائر العبادات، وأخبروا به من المغيّبات، وما وعظوا به، والنظر في الفرق بين الحَلال والحَرَام والأمور المشتبهات. . .

ووقف المؤلّف عند قضايا يستغلّها الملاحدة وضِعَاف النفوس من القصّاصين والمؤرّخين (ونضيف اليوم إليهم بعض كتّاب القصّة والرواية والمسرحية الذين يسوؤهم تاريخ الأنبياء وصدق الرّسالات) إلى غير هؤلاء ممّن يصح التّحذير منهم والتّنبيه على آرائهم الفاسدة وعقائدهم. ونبّه إلى الخطأ؛ أو الأخطاء التي يقع فيها المرء عن جهل أو عن نفاق حين يقصد إلى أقوال وأفعال للأنبياء قد يتخيلها مثالب في حقّهم، فإذا فعل فإنه يَهلك ويُهلك من حيث لا يشعر.

على أنّ في الأدباء المعاصرين مَنْ أجادَ الكتابة ـ مسرحيّةً وقصةً وشعراً ـ في هذا المجال، عن عِلْمٍ ونفاذٍ واستيعاب لحقيقة الحضارة العربية الإسلامية والتراث العريق مثل علي أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحّار ومصطفى صادق الرافعي وعلي الجارم وعزيز أباظة وعمر أبو ريشة وغيرهم.

[٥]

قسم المؤلّف كتاب «تنزيه الأنبياء عمّا نَسَبَ إليهم حُثالة الأغبياء» إلى مقدّمة عامّة وعدد من الفُصول؛ وربما تخلل الفصلَ استطرادٌ له علاقة بموضوع الكتاب(٤). وكل فصل يتعلّق بقصة أو خبر لنبي من أنبياء الله تعالى.

أما المقدّمة فهي بسطٌ لسبب ـ أو أسباب ـ تأليف الكتاب وبيانٌ لمعنى نزاهة الأنبياء، وتعريفٌ بالثّغرات العقيديّة أو غيرها التي دفعت أولئك الأشخاص إلى أن يقعوا في الأخطاء الفظيعة في حق الأنبياء الكرام.

وأما الفصول فإنها تتابعت لتعالج أحوال بعض الأنبياء ممّن كانوا غَرَضاً للكلام، ولم يكن المؤلف يغادر الفصل قبل أن يستوثق من إزالة كلّ وَهْمٍ وكلّ لبس، وبعد مناقشة علميّة عقليّة متأنيّة دقيقة، وبأسلوب منطقيّ، وعبارات مفهومة سهلة مُسَطَّرة بقلمِ أديب بارع في أناةِ خبيرٍ مُدقّق.

---

(٣) وقد عنون المؤلف لكل استطراد أو إيضاح بكلمة (فصل) أيضاً.

وقد يلمح القارىء بعض المفردات الشديدة الوقع، أو البالغة الحماسة وهذا صحيح، ولكن المؤلف لم يعتمد على إيحاء الألفاظ المشعّة للوصول إلى الإقناع،على أنّه لم يكن يوفّر المفردة المناسبة في لحظة الحماسة لتعبّر عن خُطورة الموقف، أو لينفّس المؤلف عن قلمه وهو يذكر تُرّهات أولئك الجاهلين أو المُفسدين، كقوله في المقدّمة:

«.. ثم قيّض الله لتلك الحكايات في هذا الوقت المنكوب شرذمة من المقلّدة المنتمين إلى الوعظ والتذكير، فتراهم ينتقلون من المزابل إلى المنابر فيطرحون الكلام في وظائف التوحيد، ومزعجات الوعد والوعيد، وأقسام أهل الدّارين في الدرجات والدّركات، ويخوضون في أحوال الأنبياء عليهم السلام، ويتمندلون بأعراضهم على رؤوس العوام والطّغام ولا مشفق على دين الله تعالى، ولا محتاط على أغمار المقلّدة، ولا زاجرَ ذا سلطان، حتّى كأننا ملّة أُخرى...» إلخ.

وتتناول الفصول الرئيسية في الكتاب مسائل، أو قضايا في سيرة الأنبياء المكرمين: داوود، وسليمان، ويوسف، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم آدم، ونوح، وإبراهيم، وعُزَير، وأيُّوب، ويونس، وموسى، عليهم السَّلام.

(وأضاف إلى ذلك كلاماً عن السَّيِّدة البَتُول مريم العذراء، وكلاماً آخر في إخوة يوسف عليه السّلام).

وقد كشفت كتابة المؤلف ـ رحمه الله وأثابه كل خير ـ عن معرفة بعلوم القرآن، والحديث، وبسطة يد في التّفسير وما يتبعه، ومعرفة واسعة باللُّغة والأَدب والأخبار، والسِّير، والتواريخ، ونفوذ في أمور الفقه، والأُصول، والعقائد؛ وقدرة على المناقشة، وإتقان الأخذ والردّ، والاستقراء والاستنتاج العلميّ العام، والفقهيّ والأُصوليّ.

[٦]

وفي كتاب «تنزيه الأنبياء» هٰذا إشاراتٌ قليلة تضيف إلينا معلومات يسيرة عن المؤلف وعصره؛ فقد ذكر أبا بكر بن العربيّ الإشبيلي الأندلسي (المتوفّى ٥٤٣) وعبارته توحي أنه ألف كتابه وأبو بكر بن العربي حَيّ.

وذكر (طلبة الأندلس)؛ وأكثر ما ترد العبارة في أدبيّات عصر الموحّدين (القرن السادس، والسابع).

وذكر الفقيه، أبا العباس أحمد بن محمد اللّخمي، وهو كما يُرَجَّح من علماء الأندلس. ووجدت في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك نحو عشرة ممن يكنون بأبي العباس ويتسمَّوْن بأحمد بن محمد اللخمي، ولا مُرَجِّح أو دلالة على المقصود فيهم؛ إلى نحو ذلك العدد ممن تسمّى بأحمد ابن محمد اللخمي، وأُغفلت كنيته.

وأورد شعراً لأبي إسحاق الإلبيري، ولم يعرفه المشارقة آنذاك، ولم يترجم له ابن بَسّام في (الذخيرة).

والمؤلّف الذي نصّ عنوان الكتاب على أنّه أمويّ سبتيّ، ممّن أدركوا عصر الموحّدين، وكانوا من علماء العُدوتَيْنِ: الأندلسية والمغربية .ويرجع عندي أن أحدَ أجداده غادر الأندلس إلى أقرب مقرّ في المغرب في مدّة اضطهاد الأمويّين أو إهمالهم، وخصوصاً في قرطبة، على الرغم من التفاف أولي الأمر الجدد في قرطبة وإشبيلية حول «هشام المؤيّد» أو الحصري الأموي المزعُوم. فهو سبتي أندلسي أمويّ أقول هذا على وجه الاستنتاج والاستدلال بالقليل الذي عرفته عن المؤلّف.

وإذا كانت المعلومات عن المؤلف ومضات سريعة لا تُنيرُ السبيلَ فإنَّ هذا الكتاب يشفّ عن عالم بارع متقن، مُتفنِّن في علوم شتّى قادر على إدارة الكلام على وجوهه المختلفة.

تذييـــل

ظفـر الملحـق الذي أضافه المؤلـف رحمه الله بتعليـق لطيف من أحد مالكي النُّسخـة على الورقة (٦١/ب)؛ والمعلّـق أحد علماء زمـانه في القرنين العاشر والحـادي عشر الهجريَّيْنِ؛ واسمه كمـا ذكره على الصفحة المذكورة، وعلى ورقة الغلاف عند العنـوان هو: إبراهيم بن أحمـد بن محمد؛ وتمامه مع ألقـاب أفراد أُسرته، ونسبته كما سجلها بخطّه: «إبراهيم بن المـلاّ أحمد بـن الملاّ محمد الشهير بابن الملاّ، المحدّث الحلبي العباسي».

ترجـم المحبيّ في خلاصة الأثر لإبراهيم، وأبيه أحمـد، وأخيه محمد بن محمّد. ونبه إلى أنهم من أُسرة علـم وفضـل. وقد كان أبوه وأخوه من علماء العصر، وكان جدّ والده قاضي قضاة تبريز ويُعرف هذا بـ منلا حاجّي، فاشتهر بيته في حلب ببيت المنلا (وتنبـه الزركلي ـ رحمه الله ـ إلى أنّ إبراهيم المـذكور يكتب الملاّ هكذا بلا نون).

وأمّا أبوه أحمد فقد ترجم له المحبيّ في خلاصة الأثر (١: ٢٧٧) وأثنى عليـه بغزارة المعرفة، وجـودة التّأليـف، وحسن الشعر وقال فيه «كان واحـد الدهـر في كل فن من فنون الأدب» وكانت وفاته سنة ١٠٠٣.

وتـرجم المحبي لأخيه محمـد (المتوفى ١٠١٠) في الجزء الثالث ص ٣٤٨ وذكر عدداً من مؤلفاته ونبذة من شعره.

وأما إبراهيم (وترجمتـه في خلاصة الأثر في ١: ١١) فقد تتلمـذ على أبيـه وعلى غيره من علمـاء العصر، واشتغل بالعلم، وحج بعد الألـف ثم رجـع إلى حلب وانعزل عن الناس ولـزم المطالعة والكتابـة والتلاوة للقرآن كثيراً. وذكر له المحبي عـدداً من الكتب.

وكانت وفاة إبراهيم سنة ١٠٣٢ (كما في الزركلي) وقـال المحبي إن وفـاتـه كانت حـول سنة ١٠٣٠.

كتاب تنزيه الأنبياء

عما نسب إليهم [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] الشيخ الإمام الفقيه [illegible]
[illegible] السبتي الأموي المعروف بابن خمير رحمة الله عليه

وفيه [illegible] للإمام العلامة [illegible] النووي
رحمه الله

وفيه مختصر [illegible] الشامي [illegible]
تصنيف الحافظ العلامة [illegible] الخطيب البغدادي
رحمه الله

وفيه نصرة القولين للإمام الشافعي رضي الله عنه
تصنيف [illegible] الطبري رحمه الله

وفيه القول في حقيقة [illegible] تصنيف الإمام حجة الإسلام
أبي حامد محمد الغزالي رحمة الله عليه



صورة غلاف الكتاب
(وفيه عناوين الكتب المحفوظة في المجلّد، وأولها كتاب تنزيه الأنبياء)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله العلي العظيم العزيز الحكيم الذي فطرنا باقداره وطورنا [illegible]

وصورنا في احسن تقويم ومنّ علينا بالعقل السليم وهدانا الى

الصراط المستقيم ونصب لنا من السادة الاعيان المؤيدين بواضح البرهان

المعصومين من كل صغير وكبير من اللمم والعصيان [illegible]

[illegible]

من الحرام والحلال والترك والامتثال واختصنا منهم بخاتم النبيين

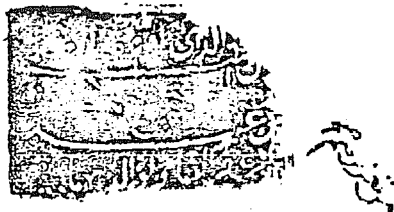
وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين وعلى [illegible]

الطيبين الطاهرين [illegible] الى يوم الدين اما بعد

فاني قد استخرت الله تعالى في ان اشرح بعض [illegible]

[illegible]

صورة الصفحة الأولى من متن المخطوطة



شغل الكافة وتوفرهم ودقيق النظر في استخراج معانيه على أتم الكمال
وأعجب من أنهم يتركون ما أوجب الله عليهم من التفقه في أمر القرآن في
[illegible] ونزهه عن التناقض ووصفه تعالى بما يجب له من
صفات الكمال والجلال ووصف أنبيائه بالصدق والعصمة
والتنزيه من الخطأ والخطل وكذلك ما جاء به من خطابه العباد
وما أخبر به من المغيبات والمواعظ بالوعد والوعيد والنظر
في الفرق بين الحلال والحرام والمشتبهات [illegible]
الوقوف والاحتياط [illegible] قال الله
تعالى [illegible] ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة
أبحر ما نفدت كلمات الله الآية وقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به
الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى الآية وقوله تعالى لو أنزلنا
هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا الآية [illegible]
[illegible] قد صرف الله قلوبهم وطبع عليها [illegible]
عن هذه الواضحات من الحكم البالغة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الثانية من متن المخطوطة

اقرب بهم منك وادناهم الملك من في حفرة انزلك
وراح من جمعك مستعجلا لا تنتبش من قبره منزلك
وحل ما اخفيته من عقده كنت بخيلا انزاها ملك
قال بشر بن الحرث رحمة الله عليه
لابن آدم في ماله ثلث حسرات يجمعه كله ويتركه كله
ويسأل عنه كله وكما قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
في خطبة خطبها ان رفعتم الطين ووضعتم الدين وسميتم
المساكين وتشبهتم بالمدهنا من [illegible] باللاعبين [illegible]
[illegible] علته في [illegible]
راجع بصيرتك وسدد [illegible]
قال [illegible] الله تعالى [illegible]
[illegible]
[illegible]
فبادر الى التوبة قبل الموت جعلنا الله واياكم ممن [illegible]
وامرنا [illegible]
ولا [illegible] ربنا الله الموفق [illegible]
ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على
سيدنا محمد واله وصحبه وسلم تسليما

[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من متن المخطوطة

كمل بحمد الله ومنه وحسن توفيقه ووقع الفراغ من تحريره على يد
الفقير إلى الله الخاطئ المذنب الراجي عفو ربه الكريم إسحق بن محمود
بن بلكويه بن أبي الفياض الشابرخواستي البروجردي عفا الله له ولوالديه
ولجميع أمة محمد برحمته الواسعة وذلك في الخامس عشر من صفر
سنة ست وأربعين وستمائة بالقاهرة المحروسة المعزية
والأصل الذي انتسخ منه كان مقابلا بأصل المؤلف رحمة الله عليه
والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وعترته الطاهرين

صورة عبارة ختام المخطوطة وسنة النسخ واسم الناسخ.

كِتَابُ تَنْزِيه الأنْبِيَاءِ
عَما نَسَبَ إلَيْهِمْ حُثَالَةُ الأَغْبِيَاء

ومجـموع نـكت

ما خُصّ به نبيُّنـا صلّى اللّه عـليه وسلَّم من الكرامـات ليلةَ الإسـراء عندَ لقاء الكليم، وما كان بينهما من المُراجعـة والمحـاورة في أمر الصَّلاة

تأليف الشّيخ الإمَـام الفقيه المرحـوم أبي الحسن عليّ بن أحـمد السَّبتيّ الأُمَوِيّ، عُرِفَ بابن خُمَيْر رحمة الله عليـه

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله
ربِّ يَسِّر ولا تُعَسِّر

الحمدُ لله العليّ العَظيم العزيز الحكيم الّذي فطرَنا باقتداره، وطوّرنا باختياره، ورتّب صُوَرنا في أحسن تقويم، ومَنَّ علينا بالعقلِ السَّليم، وهَدانا إلى الصّراط المُستقيم، وقيَّض لنا من السَّادة الأَعيانَ المُؤيّدين بِواضح البُرهان، المعصُومين من كُلّ صغيرٍ وكبير من اللَّمَم والعِصيان، سَفَرةً من خاصّة الأَخيار المُرسلين الأَبرار المشهود لهم بخالصةِ ذكرى الدّار[١]، ليفصِلُوا بين الحَرام والحَلال، والتَّرك والامْتِثالِ واختَصَّنا منهم بخاتم النَّبِيِّين وسَيّد المُرسلين محمّد صلّى الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين وعلى آلهم الطيّبين الطّاهرين من عهدِ آدم إلى يوم الدين.

أَما بعد: فإنّني قد استَخرتُ الله تعالى في إملاءِ شرح بعضِ آيَاتٍ رغب فِي إملائها بعضُ الطلبةّ المُحتاطين على الدِّين غَيرةً منهم على أَعراضِ النَّبِيّين لِأَنْ لاحَ في ضمنها بعض عتاب لهم في بعض فقرات لا تَغُضّ من

(١) في مقدّمة المؤلّف إشارات قرآنية كثيرة، وهذه منها؛ إشارة إلىٰ قوله تعالى في سورة ص ٤٦/٣٨ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهم بِخالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ﴾ ووَجّه المفسّرون معنىٰ الآية علىٰ وجوه؛ ومنها عن ابن زيد: أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا، وعن مجاهد. أي أخلصناهم بأن ذكرنا الجنّة لهم.

أقدارهم، ولا تَنْقُص من كَمالِهم، ولا تقدح في عِصمتهم وكريم أحوالهم، بما مَنَّ الله به من فضلِه على من يَشاء من عباده؛ وذلك لما سَلّط الله على سادات المُرسلين من غُثاءِ الفِرَقِ المُضِلِّين من أوباش المُعطِّلة الضالّين، وأراذل اليَهُود والنَّصارى، ومُقَلّدة المؤرّخين والقُصّاص المُجَازِفين الجاهلين بحقيقةِ النُّبوة، وما يجوزُ على أنبياء الله تعالى. وما يستحيل وما يجب على الكافّة من تعزيرهم وتوقيرهم، وتدقيق النّظر في استخراج مناقِبهم على أتّم الكَمال وأَعَمّه، فتراهم يتركون ما أوجب الله عليهم من التفقُّهِ في آي القرآن، من توحيدِ بارئهم وتَنزيهه عن النّقائص، ووصفه تعالى بما يجبُ له[٢] من صِفاتِ الكَمال والجَلال، ووصف أنبيائهِ بالصّدقِ والعصمةِ والتنزيهِ من الخَطأِ والخَطل[٣]، وكذلك ما جاؤوا به من وظائف العبادات، وما أَخْبَرُوا به من المُغَيَّبات، والمواعظ بالوَعْدِ والوَعيد، والنَّظر في الفَرْقِ بين الحَلال والحَرام والمُشْتَبِهات إلى غير ذلك ممّا لا تَحويه الرُّقوم، ولا تُحيط به ثاقبات الفُهوم، وما عَسى أن أقول فيما قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرةٍ أَقْلاَمٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ الآية[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾ الآية[٥]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً﴾ الآية[٦]، إلى غير ذلك، فترى بهائمَ قد صَرف الله قُلوبهم، وطبع عَلَيها بطابع النِّفاق يُنَكِّبُون[٧] عن هذه الواضحاتِ من الحِكَم البالغة والبَراهِينِ الصَّادعة، ويقصدون إلى أقوالٍ وأفعالٍ لهم

(٢) في الأصل: مما يجب... ودقيق النظر.
(٣) الخَطَل: الكلام الفاسد الكثير.
(٤) لقمان: ٢٧/٣١.
(٥) الرّعد: ٣١/١٣.
(٦) الحشر: ٢١/٥٩.
(٧) نكّب عن الطريق: عَدَلَ عنه. والواضحات؛ هي الطُّرُقُ الجادّة الواضحة المسالك. ويُقال في عكسها: بُنَيَّات الطريق.

يَتَخَيَّلُونها مثالب في حقّهم، فَيَهلِكُون وَيُهْلِكُون من حيثُ لا يَشْعُرون.

فلنذكر الآن ما نَذكرُ منها لكونهم يستعملونَ ذكرَها لِتحصيل أغراضٍ لهم فاسدة، ثم نعطفُ على ما بقِي منها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فمنها قِصَّةُ داوود عليه السَّلام مع زَوج أُوريا، وقصّة سُليمَان عليه السّلام مع زوجة جَرادة؛ وما كان من قصّة الجَسد والكُرسيّ؛ وقصّة يُوسف عَليه السَّلام مَع امرأةِ العَزيز في الهَمّ والمُرَاوَدة؛ وقصّة نبيّنا عليه الصلاة والسَّلام مع زَيد بن حارثة وزينب بنت جحش بن أُميّة. فيتأوَّلُونها تأويلَ من حَلّ من عُنقه رِبقة[٨] الشَّريعة وَيئس من رَحمةِ الله، ثم ينسبون بعض هٰذه الأقوال إلى كبارِ الصَّحابة والتَّابعين لِيُمَوِّهُوا بها على العَوامّ لئلا يَرُدوها عَلَيهم ويقدحوا فيها، ثم تَراهم يتردَّدون في نَقل تلكَ الخُرافات بالتَّكرار علىٰ أُوجهٍ مُختلفة، تورُّعاً في نقلِ الرِّواية، تورّع الكَلبِ الذي يرفَعُ رجلَه عند البَوْل، وفَمُهُ في أعماقِ الجِيفة! ثم قد قَيَّض الله لتلكَ الحِكايات في هٰذا الوقت المنكوب[٩] شِرذمةً من المقلّدة المُنتمين إلىٰ الإرادة، والقصّاص المُدّعين في غَرائب العِلم وبَواطِن المَعاني المُنتمين إلىٰ الوعظِ والتَّذكير، فتَراهم ينتقلُون من المَزابل إلىٰ المنابر فيطرحون الكلامَ في وظائِف التّوحيد، ومُزعجاتِ الوَعدِ والوَعيد، وأقسام أهلِ الدّارَيْن في الدَّرجات والدَّرَكات[١٠]، ويخوضُون في أحوالِ الأنبياء - عليهم السلام - ويتَمندلون[١١] بأعراضهم علىٰ رُؤوس العَوامّ والطَّغام، ولا مُشفِقَ علىٰ دِين

(٨) الرِّبقة: العُرْوَة في الحَبْل يُشَدّ بها رأس الشّاة ونحوها؛ فاستُعِيرَ اللّفظ للدِّين، فيُقال: خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عُنُقِهِ، إذا خَرَجَ عنه.

(٩) نكب الدَّهرُ أهلَهُ نَكْباً وَنَكَباً: بَلَغ منهم، وأصابهم بنكسة.

(١٠) الدَّرجات: جمع الدَّرَجَة، وهي المرتبة من مراتب أهل الجنّة. والدَّرَكات: جمع الدَّرَكة، وهي المنزلة السُّفلىٰ من منازل أهل النّار؛ ضدُّ الدَّرَجَة.

(١١) يتمندلون: هذا فعل مشتقّ من (المنديل)؛ والمنديل يُتَّخَذُ عادةً للابتذال والامتهان، وفي الشّفا (١٠٩٦): «حدّثنا الثّقة أنّ أبا بكر الشّاشيّ كان يعيبُ علىٰ أهل الكلام كثرة =

الله تعالى، ولا مُحْتاطَ علىٰ أَغْمَارِ(١٢) المُقَلَّدة ولا زاجرَ ذا سُلطان حتّىٰ كأنّنا مِلَّةٌ أُخْرىٰ، ولا نَغارُ علىٰ ذَمِّهم ولا نرقبُ في أَعْراضِهم إلَّا ولا ذِمَّة(١٣).

وغَرَضُ هؤلاء الفسَقةِ في سَرْدِ تلك الحكايات المُوَرِّطةِ قائلَها وناقلَها في سُخط الله تعالى أَنْ يُهَوِّنوا الفُسوق والمَعاصي علىٰ بُلْهِ العَوامّ، ويتسلَّلُوا إلىٰ الفُجورِ بالنّساءِ، بذكْرِها لِوَاذاً(١٤) حتّىٰ ترىٰ المرأة تخرجُ من مَجلسِ الواعظِ إلىٰ منزلِه، فتسأله علىٰ التّفصيل فيزيدها أقبحَ ممّا أَسْمَعها في الجُمهور، يقول لها: هٰذا أمرٌ ما سلم منه عُظَماءُ المُرْسَلِين، فكيف نحن؟!

فلا يزَال يُهَوِّنُ عليها ما كانَ يَصْعُبُ مِن قَبْل، فـ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١٥)، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(١٦).

= خَوْضِهِمْ فيه تعالىٰ وفي ذكرِ صِفاتِه، إجلالاً لاسمه تعالىٰ، ويقول: هَؤُلاء يَتَمَنْدَلُونَ بالله عزّ وجَلّ».

(١٢) أغمار: جمع غمر، وهو الّذي لم يجرّب الأمور (أصل الكلمة في الصّبيّ إذا لم يجرّب، ثم قيلت في كلّ غِرّ لم تعركه الحياة).

(١٣) الإلّ: العهد، والقَرَابة. والذِّمّة: العهد؛ قال تعالى متحدّثاً عن المشركين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة ٩/١٠].

(١٤) يُقال: لاَذَ بكذا لِوَاذاً؛ أي لَجَأ إليه وعاذَ به، واستتر.

(١٥) البقرة: ٢/١٥٦.

(١٦) الشعراء ٢٦/٢٢٧.

ذِكْرُ ما اخْتَلَقُوه في قِصةِ دَاوود(*) عَلَيه السلام

فمن شنيع تَخَرُّصِهِم(١) في قصّته ـ عليه السّلام ـ مع امرأة أُوريـا، وقِلّة مُرَاعاتهم مع مَن جعلَه الله تعَالىٰ خليفةً في الأَرض وشدّد مُلكـه، وآتاهُ الحكمـةَ وَفَصْلَ الخِطاب، وسَخّـر له الجبالَ يُسَبِّحْنَ معه والطَّير، وأَلان له الحَدِيد؛ فمِمّـا اخْتَلَقُوه عليه أن قـالوا:

إنـه أَشرفَ يوماً من كُوّةٍ كانت في مِحـرابه، فَرَأَىٰ امرأةً تَغْتَسِلُ في حُجرتهـا، فأَعجبَهُ حُسنـها، وليـنُ جانبها، ورخَامة دَلّها(٢)، فشغفه حُبُّهـا، فالتفتت إليه فأَسْبَلت شعرها علىٰ جسَدِهَـا لِتَسْتَترَ منه، فزادَهُ ذٰلكَ شَغفاً بها، ثم أَرسل إليهـا يَسأَلُهـا: مَنْ بَعْلُهـا؟ فأخـبرته أَنّـه أُوريّـا؛ فأَرْسَل إليهِ فَسَأَله أَن ينزلَ لـه عَنها بِطَلاقِها، فأَبـى، فأَمـره بالخُـروج إلىٰ الغَزو، وأَرسـل إلىٰ صاحـبِ الجَيـش أَن يُغزِيَهُ ويقدّمـه للقِتـال في كُلّ مأزِق. ففعلَ صاحـبُ الجيـش بِهِ ذلك مَرّات حـتّى قُتِـل. فلمّـا بَلغ داوود ـ عليـه السّلام ـ أنّـه قُتـل، أَرْسل إليها ليتزَوَّجهـا فأسْعَفتـه، فتزَوَّجهـا. وكـان له مئـة امرأة إلاّ واحـدة فأَتَمّ بهـا المئة. فأَرسلَ الله إليه إذ ذاكَ الملائكةَ فاخْتَصموا عنده. فأَفتاهـم بما يؤول دركه عليه(٣). فخَصمُوه(٤). ثم قـال أَحَدُهمـا للآخر: قُمْ: فقد حكـمَ الرَّجـلُ علىٰ نَفسِهِ! وصَعِدَا إلىٰ السَّمـاء وهو ينظرُ إليهـما؛ فتفطّن إذْ ذاك أَنّهـم مَلائكـة وأَنّـهُ فُتِنَ وأَخـطأ، فاستَغْفَرَ رَبّـه وخَرّ راكعـاً وأَنـاب.

(*) قصّة داوود عليه السَّلام في: تنزيه الأنبيـاء للشريف المرتـضى: ٨٧، وعـرائس المجـالس: ٢٧٩، وابن كـثير: ٢: ٢٥٥، وتـفسير الـطبري ٢٣/٨٨ ـ ٩٤، وتـاريـخ الطبري: ١ : ٤٨، وتـفسير القُرطبي: ١٥: ١٦٥.

(١) تَخـرَّصَ (وَخرَصَ): كَذَبَ.

(٢) الرَّخَـامة: لِينُ المنطق، حـسن في النِّسـاء.

(٣) يؤول: يرجع. والدَّرْك: التَّبِعَـة، أي: تَرجِعُ تَبِعَةُ فَتْوَاهُ عليه.

(٤) خَصَمُوه: غَلَبُوه.

فهٰذه من أقوالهم أقلّ شناعة وبشاعة مِمّا سواها من الأقوال في كتُب القصص والتّواريخ، وبعض التّفاسير الفاسِدة!

فصل

والّذي يَنبغي أن يُعَوّل عليه في هٰذه القصّة وما يُضاهيها من القِصَص، ما جاءَ به الكتابُ العَزيز، أو ما صَحّ عن الرَّسُول ـ عليه السّلام ـ من الخَبر، وما سوىٰ ذلك فَيُطْرَح هو ومُختَلِقُه وراويه إلى حيثُ ألقت رَحْلَها أمّ قَشْعم(٥)!

فصل

فأمَّا قصّة داوود عليه السّلام فهي مذكورة على الكَمال مفصّلة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَاب﴾ إلى قوله(٦): ﴿وَخَرّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأ الخَصْم﴾ الآية.

اعلم ـ رحمك الله ـ أنّ استفهامَ الله تعَالى لِخَلْقهِ لا يجوزُ أن يُحمل علىٰ حقيقةِ الاستفهامِ لوجوبِ إحاطةِ عِلمِه تَعالىٰ بجميع المعلومات علىٰ أَتَمّ التّفصيل، فلم يبقَ إلا أن يكونَ الاستفهامُ هُنا بمعنىٰ التّقرير والتّنبيه لنبيّه ـ عليه السّلام ـ ليتهَيّأ لِقَبُول الخِطاب، وليتفهمّ ما يُلقىٰ إليه من غَرائب العِلم وعجائِب الكائنات. وأمّا إفرادِ الخَصْمِ وَهُما خَصْمَان، فَالعَربُ تُسَمّي الواحدَ بالجَمع والجمعَ بالواحِد علىٰ وجهٍ ما، فَنقول:

(٥) أي إلىٰ المَوْت والهَلاك! وهٰذه الكناية وَرَدَت في معلقة زهير:

فشَدّ وَلَمْ يَفزع بيوتاً كثيرةً ... لَدَىٰ حيثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

وفي اللّسان: أمْ قشعم: المنيّة، والحرب.

(٦) الآيات ٢١ إلى آخر ٢٤ من سورة: ص.

«خَصْماً» للواحدِ والجمع، كما تقول «ضَيْفاً» للواحِد والجَمع؛ وقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيْثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيْمَ المُكْرَمِيْنَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾[٧]. فَسَمّاهُم باسمِ الواحِد وَنَعَتَهُم بالجَمع في قوله: ﴿المُكْرَمِينَ﴾، وكذٰلك ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾.

ومعنىٰ ﴿تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ﴾: أتوه من أعاليه ولم يأتوه من بابِه، ولذلك فَزِع منهم فإنّه خافَ أن يكونُوا لُصوصاً، أو يكونَ بعضُ رَعِيّته ثَارُوا عليه. والمحرابُ في اللّسان: صَدْرُ المَجلس وأَحْسَنُ ما فيه، ولذلك سُمِّي مِحرابُ المسجِدمِحراباً. وقيل: المحرابُ: الغُرفة. وفي فَزعه منهم - وكانوا ملائكةً - دليلٌ على أنّه ليسَ من شرطِ النُّبُوَّة أن يَعرِفَ النَّبيُّ كلَّ مَن يأتيه من الملائكةِ حتىٰ يُعَرَّف به، وفيه أيضاً دليلٌ علىٰ أن الملائكة يتصوّرون علىٰ صُوَرِ الآدميّين بأمرِ ربِّهم وقُدرته لا بِقُدرتهم. وفي تصورهم كذلك عريضٌ من القولِ لَسْنَا الآن له، لكنّ الذي يصحّ منها وَجْهان:

إمّا أنهم ينسَلِخون من أبعاضِهم؛

أو تنعدم من أَجسامِهم بالإمساكِ عن خَلق الأعراض فيها ما شاءَ الله وتبقىٰ ما شاءَ، ثم يعيدهم إلى مقامهم كما كانوا قبل، فإنه ليس من شرطِ الحيّ العالم أن تكثر أجزاؤه ولا أن تقل، فإن العالم منهُ جزءٌ فرد.

وأمّا قوله ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾[٨] ولم يكونا خصمين علىٰ الحقيقة، ولا بغى بعضُهم علىٰ بعض، ولا اتّفق لهما ممّا ذَكراه شيء[٩]، ففيه دليلٌ

(٧) الذّاريات: ٢٤/٥١ - ٢٥.
(٨) من سورة ص: ٢١/٣٨ - ٢٢: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا على دَاوُودِ فَفَزِعَ مِنْهُم قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغىٰ بَعْضُنا على بَعْضٍ فاحْكُمْ بَيْنَنا بِالحَقِ وَلَا تُشْطِط واهْدِنَا إلى سَواءِ الصِّراطِ﴾.
(٩) أُجيب أيضاً بعدد من الأجوبة:
- قالوا لا بدّ في الكلام من تقدير، فكأنهما قالا: قدِّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ. قال القرطبي: وعلى ذلك يُحْمَلُ «إنّ هذا أخي لهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ =

علىٰ أنّ الكذب أنّما يقبحُ شَرْعاً؛ فمَن أمره الله تعالىٰ أن يُخبر بما وقَع وبما لم يقَع فأخْبَر بهِ فهو مُطيع ممتثِلٌ فاعِل الحَسن. ولذٰلك جاز لهم أن يقُولوا للمَعْصُوم: ﴿فاحكُمْ بَيْنَنا بِالحَقِّ ولا تُشْطِط﴾، والشَّطَطُ: الجَوْر، مع علمهم بأنّ المعصومَ يحكم بالحَقّ ولا يجورُ في الحُكم، فتخرج لهم هٰذه الأقوال إذ هُم ملائكة وسَفَرة معصُومُون، مخرجَ أقوالِ يوسف ـ عليه السّلام ـ إذ أمر مناديه فنادىٰ[١٠]: ﴿أَيَّتُهَا العِيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وما كانُوا بِسارقين، وقولُه ـ عليه السّلام ـ لإخوته[١١]: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً﴾ ولم يكونوا كذٰلك، وأخذ أخاهم علىٰ حُكمهم لا علىٰ حكم المَلك، وما كان له أن يأخُذه في دِين المَلِك، فإنّ المَلِك كان يَقْتُل السّارق، ولا في دين إخوته في شَرِيعتهم، فإنّهم كانوا يستعبدون السَّارق، وأخوه لم يكن سارقاً.

وجاء في الأخبار أنّه كان ينقُر في الصُّوَاع ويقول: إنّ صُواعي هٰذا يُخبرني بكذا وكذا، والصُّواع لا يُخبر، حتّىٰ قال له بِنيامين أخوه: أيُّها المَلك! سَلْ صُوَاعك يُخبرك أَحَيٌّ أخي يُوسف أم ميّت؟!.

فنقَر في الصُّواع فقال: هو حيّ وإنّك لتَراه وتَلْقَاه، إلىٰ غير ذلك. فأقام الله تعالىٰ عُذره في كلّ ما أخبر عنه وفعلَه بقوله[١٢]: ﴿كَذٰلِكَ كِدْنَا

= نَعْجةً» لأن ذلك، وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبّه داوود على ما فعل.

ـ وقال الثعلبي: قيل كان المتسوّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأمّ. فلما قضى بينهما بقضيّة قال له ملك من الملائكة: فهلّا قضيت بذلك على نفسك يا داوود؟ ثم رجح الثعلبي الرواية الأولى أي أنهما كانا ملكين.

ـ وقيل: هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم: ضرب زيدٌ عمراً وما كان ضربٌ ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خصمان هذه حالنا!

(١٠) سورة يوسف: ١٢/٧٠.

(١١) سورة يوسف: ١٢/٧٧.

(١٢) يوسف ١٢/٧٦.

ـ قيل في تفسير «كدناليوسف» معناه صنعنا، ودَبَّرنا، و: أردنا. =

لِيُوْسُفَ﴾ ومعناه: بذلك أَمَرْنَاه وَأَردنا منه.

وارتفع الاعتراضُ على أنّه: ما أَخبر الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ لداوود ـ عليه السلام ـ إنّما كان علىٰ جهة التَّجَوُّز وضَرب المِثال بأخوّة الإيمان، إذْ ليْس في الملائكة وِلَادة، وإذا لم يكنْ ولادةٌ فلا أُخُوّة نَسب.

وتسميةُ النّساء نِعاجاً لتأنيثهنّ وضَعفِهن[١٣]؛ وَ ﴿أَكْفِلْنِيْهَا﴾ كناية عن نكاحها[١٤] ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ بمعنىٰ غَلَبني[١٥]، وهٰذا آخرُ خِطَاب الخصم، فقال له داوود ـ عليه السّلام ـ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ثم قَيّد الظلمَ بسؤالِ النَّعجة إذ قال لهم[١٦]: ﴿إِنّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِيْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيْلٌ مّا هُمْ﴾. وهٰذا آخِرُ خِطابِه للخَصم.

فصل

اعلموا ـ أَحْسَن الله إرشادنا وإيّاكم ـ أنّ كُلَ مَن تكلّم في هذه القصة بما صَحّ في حَقّ داوود ـ عليه السلام ـ وبما لم يصحّ إنما بَنَوْهُ علىٰ أُسّ هٰذه الخمس كلمات التي هي: ﴿أَكْفِلْنِيْهَا﴾، ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾، و﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، و﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مّا هُمْ﴾. وهي بحمد

= وفي تفسير القرطبي: وفيه جواز التوصل إلى أغْراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً...

(١٣) والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة ـ لِمَا هي عليه من السكون والعجز وضعف الجانب ـ وقد يكنّى عنها بالبقرة والحِجرة والنّاقة.

(١٤) قيل في التفسير وجوه تتقارب.
- قيل أي انزل لي عنها حتى أكفلها.
- وقال ابن عباس: أعطنيها.
- وعنه أيضاً أي تحوّل لي عنها (اتركها لي)، وقاله ابن مسعود.
- وقال ابن كيسان: اجعلها كفلي ونصيبي.

(١٥) قال ابن العربي: قيل معناه غلبني ببيانه، وقيل غلبني بسلطانه لأنه لما سأله لم يستطع خلافه.

(١٦) ص: ٢٤/٣٨.

الله تُخَرَّجُ له علىٰ مَذهبِ أهلِ الحقّ، بأجْمَلِ ما ينبغي له وأكْمَلِه، والله المُستعان.

فأوّلُ ما ينبغي أن نُقدّم قبلَ الخَوْضِ في هٰذه المسائل وما يُضاهيها، ثلاث مقدّمات.

إحداها: ما صحّ من إجماع الأُمّة قاطبةً على عِصمة الأنبياء من الكَبائر.

والثّانية: أنّ كُلَّ محظورٍ كبيرةٌ علىٰ قولِ مَن قال بذٰلك من أئمة السُّنّة، وهو الصّحيح، لاتّحاده في الحَظر. وإنّما يُتَصَوّر كبيرٌ وأكبر بالتَّحريض علىٰ تركها وتأكيدِ الوعيدِ علىٰ فعلِ بعضِها دون بعض.

والثالثة: شرح هٰذه الأقوال وما يُضاهيها من القصص الموعود بها علىٰ مذهب من قال بتَنزيه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عن الصّغائر، وأنّهم لا يُواقعون صغيرةً من الذُّنوب ولا كبيرة؛ وأن غاية أقوالهم وأفعالهم التي وقع فيها العِتابُ من الله تعَالىٰ لمن عاتَبه منهم أن يكون علىٰ فعلٍ مُباح كان غيرُه من المباحات أولىٰ منه في حق مَناصبهم السَّنِيّة.

وسنبيّن ذلك في سياقِ الكلام إن شاء الله تعالى.

فصل

فأمّا قولة داوود ـ عليه السّلام ـ (أَكْفِلْنِيْهَا) فهذا بمعنىٰ: انزلْ لي عَنها بطلاقٍ وأتزَوَّجُها بعدك. وهٰذا من القول المأذون في فِعله وتركه، ومباحٌ أن يقولَ الرّجل لأخيه أو صديقهِ: انزلْ لي عن زَوجك بإضمارِ «إن شِئت». وهٰذا بمثابةِ من يقولُ لصاحبه أو أخيه: «بعْ مِنّي أَمَتَكَ إن شِئت». وهذا قولٌ مباحٌ ليسَ بمحظورٍ في الشّرع، ولا مكروه. ومن ادَّعى حَظره أو كراهَته في الشّرع فعليه الدَّليل، ولا دليلَ له عَليه، كيفَ وقد جاءَ في

الصّحيح أن النَّبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمّا واخى بين سعد بن الرَّبيع وبينَ عبد الرّحمن بن عوف قال له الأنصاري: لي كذا وكذا من المال أشاطرك فيه، ولي زَوجان أنزلُ لك عن إحداهما، فقال له عبد الرّحمن: بارك الله لك في أهلك وما لك؛ أرِني طَرِيقَ السُّوق.

ووجهُ الاستدلال بهٰذا الحديث قولُه بينَ يدي النبي صلى الله عليه وسلم: أَنْزِلُ لك عن إحداهُما، فأقَرّه النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذا القول ولم يُنكره عليه وهو لا يُقِرُّ على مُنْكر، وهو المعلّم الأكبرُ صَلوات الله عليه وتَسليمه، فلم يبقَ إلاّ الإباحة، لكن تركها بمعنى الأولى والأَحْرى في كمالِ منصبِ النُّبُوَّة كانَ أولى وأتَمّ.

وأما قولُه: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ أيْ غَلبني فنزلتُ له عنها، فهو غَلَبُ الحِشمة لا غَلب القَهْر لِعِظَمِ منزلةِ السَّائل في قَلب المسؤول، ولا غَلَبُ الحِسّ بالقَهْر المنهيِّ عنه؛ فإنه ظُلمٌ منهيٌّ عنه شَرعاً تَتحاشى عنه الأنبياءُ عليهم السلامُ كما تقدّم.

فإن قيلَ: كان داوود عليه السلام خليفةً وصاحبَ سَيف، والمطلوبُ منه رَعِيَّة؛ ومن شَأنِ الرَّعِيَّة هَيبةُ المُلوك والمبادَرةُ لقضاءِ حوائِجهم لكونهم قاهرينَ لهم، فيقضون حَوائجهم باللِّين خوفاً من العُنف والإكراه؛ وفي سُؤالِ داوود عليه السّلام حَمْلٌ على المسؤول من هذا الباب.

قلنا: صحيحٌ ما اعترَضت به، إلاّ أنّ هذا الحَمْلَ على المسؤول لا يُتَصَوّر إلا فيمن عُهِدَ منه الظُّلم والغَصْبُ من الأُمراء وأمّا من عُهِد مِنه العدل والإحسان كَخُلفاء الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان، فلا يُتصوَّر ذلك في حَقّهم إذا منعوا المباحات وإذا لم يُتَصَوّر ذلك في حقهم مع عَدَم العِصمة فما ظَنُّك بالمعصومين المُنَزّهين عن الخَطايا تنزيهَ الوُجوب كما تقدم؟ فَبَطَلَ اعتراضُ هٰذه القولة في حَقّ داوود عليه السَّلام في هٰذا الباب.

وأمّا قـوله للخـصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعَاجِهِ﴾ ففيه اعتـراضٌ من وجـهٍ آخـر نتخلّص منه ونرجع إلىٰ ما نحـنُ بِسـبيله.

قـالوا: كـيف يكونُ داوودُ ـ عليه السَّلام ـ مَنْ خَلَفَ الله في أَرضه ويقطع علىٰ الظّلم بقـول الواحدِ قبل أنْ يَسْمَع قولَ الآخـر؟

فالجـواب عن هذا يُتَصَوَّرُ من وَجْهَـين:

أحـدهما: أَنه سَمِعَ من الآخـر حُجّـةً لا تخلّصه، فقـال للأَوّل: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أو صَدَّقه الآخَـرُ في قـوله، فقـال للأَوّل: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾.

والثـاني: أَن يقـول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ بإضمار «إنْ كـانَ حـقّاً ما تقـول». وهذا سائغ، وأمـا أن يـقول له: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من غير أن يسمعَ حُجّـة الآخـر، فهـذا لا نُسَوِّغُه في حقِّ عاقل مُنصِفٌ، فكـيفَ في حَقّ مَنْ آتـاه الله الحكمةَ وفصلَ الخِطـاب؟!

ألا ترىٰ موقفَ يَعقـوب ـ عَليه السَّلام ـ لمّـا جـاءه بَنُوه عشيّاً يبكُون وهم جَماعة فقـالوا ما قالُوا، فقـال[١٧]: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْـراً﴾، ولم يقـبل أَقوالهـم ولا دُموعهـم بغير دليل، فكـيف يقبل داوود عليه السّلام قولَ الخـصم من غيرِ حُـجّـة حتّى يقـول له: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هـذا لا يصحّ في حقـه. وأَمّا قـولُه للخَـصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، فعنىٰ به: بَخَسَك وغَبَنك في قـولٍ كان غَيرُه من المُبـاحات أَولىٰ بكَ منه. وحَدّ الظُّلم في اللِّسـان: وضعُ الشَّيء في غَيْـر موضعه. وقـد قدّمنـا أن قولَ قـائلٍ لغيره: أَكْفِلْنِي زَوجـك، ليسَ بظلمٍ منهيٍّ عنه شَرعـاً، فـلم يَبْقَ إلاّ ما ذكرنـاه في حَقّه.

وأمّا قـوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيْراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١٨]

---

(١٧) يوسف: ١٨/١٢.

(١٨) الخـلطاء: قيل هـم الأصحـاب، وقيـل: الشركاء.

فيخرج البَغي مخرجَ الظُّلم حَرفاً بحرف، فإنّه إذا ساغ في اللّسان ـ والمعتاد أن يُسمّىٰ مالكُ الكثير إذا طَلب من المُقِلّ قليلَهُ ظالماً ـ فلا غَرْوَ أن يُسَمَّىٰ باغياً.

ولو أن رَجُلاً كان له عَبدان مُطِيعَان له مُستقيمان غايةَ ما يُمكنهما من وجوه الاستقامة، فأَحسنَ إلىٰ أحدهما وأَعطاه ووسّع عليه ورفّه معيشته، ولم يُحسن للآخر بعينِ ما أَلزمه الله ممّا يتعيّن للعبيدِ علىٰ السّادة لسمىٰ العقلاءُ هذا السّيِّد ظالماً باغياً، من حيثُ إنّه أَحسنَ لأحدهما ولم يُحسن مع الآخر مع تساوِيهما في الطّاعة والنّصيحة. والسَّيد مع هذا التّخصيص بالإحسان لأحدهما، لم يأتِ في الشّرع بمحظورٍ ولا بمكروه. بل كلّ ما فعل معهما مباحٌ له.

فهذا وجهٌ من وجوه التخلص من هذه الأقوال، وأنّها مباحة لقائلها وفاعِل ما وقَع منها من غير أن يلحقه ذمٌّ من الشَّرع ولا ثَلب.

وأمّا قوله: ﴿وَقَلِيْلٌ مّا هُمْ﴾، فمقصودُه الأكابرُ الأفرادُ من المُحسنين المُؤثرين، فإنّهم يُحسِنون في المباحاتِ كإحسانِهم في المَشْرُوعات فيتعاونون في العِشرة ويتناصفون في الخُلطة، كما قال تعالى[19]: ﴿وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ فإنّهم الكبريتُ الأحمر. وهٰذا آخر خطابه للملائكة.

فصل

والذي يكمُل به هٰذا التفسير ويعضدُه نكتةٌ شريفة، وذٰلك أنّ الله تعالىٰ أخبرَ بما وقع بين داوود ـ عليه السلام ـ وبين الخَصم من مُحاورةٍ ومُراجعة،

(١٩) الحشر ٥٩/٩.

وأنّ ذِكر التكفُّل والعزّة في الخِطاب كلامُهما، وما أخبر به تعالى عن قولِ قائلٍ فليس هو في الإلزام كالّذي يُخبر به عن نفسه وحكمه. فمَنْ أخبر تعالىٰ أنّه ظَلَم، وغلَب، وبَغىٰ في المشروعات، فهو ظالمٌ، غالبٌ، باغٍ شَرعاً. ومَن أخبر تعالىٰ أنّه قال: ظلمتُ، وبغيت، أو قال: ظلم زيدٌ وغلَب وبغىٰ، فقد يُخبر عن حقيقة شرعية وعن مَجازيّةٍ عاديّة، كما تقدَّم في مثالِ السّيد والعبد.

وقد ثبتَ أنّ هٰذه الأقوال التي وقَعت بين داوود ـ عليه السلام ـ وبين خَصمه من المجازيّة العاديّة، وإذا كان ذلك لم يثبت بها حكمٌ شَرعي وإذا لم يَثبت حُكْمُ لم تثبت طاعَةٌ ولا معصية.

قال تعالىٰ[٢٠]: ﴿وَظَنّ دَاوُد أَنّما فَتَنَّاهُ فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ وإنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفىٰ وحُسْنَ مَآب﴾.

هٰذا الظنّ منه يُحتملُ أن يكون علماً، ويُحتملُ أن يكونَ ظَنّاً علىٰ مَعنىٰ الظَن الذي هو التردُّد في الشَّكّ مع المَيل إلىٰ أحدِ الطَّرفين.

فإنْ كانَ بِمعنىٰ العلم فهو أنه لمّا علم أن الخَصمين مَلَكان وأنّه المقصودُ بالمِثَال وأنّه فُتِنَ أي اخْتُبِرَ وامتُحِن ببعض المُبَاحات، فعُوتب إذْ لم يصبر فيها صَبْرَ المُؤثِرين حتّىٰ قال ما قال وفعلَ ما فَعَل ﴿فَخَرَّ راكِعَاً﴾ يعني ساجِداً، فإنّ الرُّكوع والسُّجود يسمّىٰ كلّ واحدٍ منهما باسمِ الثّاني ﴿وَأَنَابَ﴾: أي تابَ من ذٰلك ظاهراً وباطناً. فأخبَرَ تعالى أنّه غَفَرَ له ذلك أي دَرَأَ عنه الطَّلب فيما رأىٰ هو أنّه ذنبٌ في حَقّه فترك الأَوْلَى كما تَقدّم.

وإن كان حُكمُه علىٰ حُكم الظَّنّ فيكون: أنّه غلب ظَنُّه علىٰ أنّ الذي وقَع منه فتنةٌ يتعلّق فيها طَلبٌ؛ إذْ للهِ تعالى في صريحِ العَقل أن يطلبَ مَا شَاءَ وَيَتْرُكَ مَا شَاءَ. فأخبر تَعَالى أنّه لا طَلَبَ عليه في ذٰلك.

(٢٠) ص: ٢٤/٣٨ ـ ٢٥.

شرحُ قِصة سُلَيْمان(*) عَليه السلام

في آيةِ الفِتنة الكُرسِيّ والجَسَد(**).

قال تعالىٰ:(١) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ ذكَر أصحابُ المَقالات في أشبهِ أقوالِهم(٢) في هذه القصّة، أنّ سُليمان ـ عليه السلام ـ كانت له امرأةٌ من كرائمه(٣) اسمُها جَرادة، وكان أبُوها مَلِكاً من مُلوك الجزائر البحريّة، وكان كافراً، فمنهم من قال: إنه خطبها إليه(٤) وتزوَّجها ـ ومنهم مَن قال: إنّه سَباها عُنفاً. وكان لها جَمالٌ بارع فكان يُحِبُّها ويقدّمها علىٰ جميع نسائه. وكانت عند أبيها تعبدُ صَنماً. فلمّا فَقدت ذٰلكَ عنده اكْتَرَثَتْ(٥) وحَزِنَت وتغَيّر حُسنُها، فسألها عن حالِها فأخبرَتْهُ أنّ ذٰلك من وحشَتِها

(*) قصة سليمان في: تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضىٰ: ٩٢، وعرائس المجالس: ٣٢٢، وابن كثير ٢: ٢٦٧، وتفسير الطبري ٢٣: ١٠٠، وتاريخ الطّبريّ ١: ٤٩٦، وتفسير القرطبيّ ١٥: ١٩٩.

(**) قال القاضي عبد الجبّار الهمذاني في تنزيل القرآن عن المطاعن: «وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسداً ثُمَّ أنابَ﴾ كيف يصحّ أن يُعزل عن النبوّة ويصير على كرسيّه بعض الشياطين على ما يُروى في ذلك؟

وجوابنا أن الذي يُروى في ذلك كذب عظيمٌ. والصحيح ما رُوي من أنه تفكّر في كثرة نسائه ومماليكه فقال ـ وقد آتاه الله من القوّة ـ إني لأطؤهنّ في ليلة واحدة فيحملن ويحصل لي من الأولاد العدد الكثير ففعل، ولم تحبل إلا واحدة وألقت جسداً غير كامل الخلقة فَحُمِلَ ذلك الجسد إلى كرسيّه فتنبّه عنده على أن الذي فعله من التمنّي كالذّنب، وأنه كان من حقّه أن ينقطع إلى الله تعالى فيما يرزق من الأولاد: قلّ أوكثر فأناب عند ذلك، وتاب مما كان منه.

فأمّا أن يُعزل ويؤخذ خاتم ملكه ويصير إلى بعض الشياطين، وأنْ يَطَأ ذلك الشيطان نساءه فذلك ممّا لا يجوز على الأنبياء، وقد رفع الله قدرهم عن ذلك.

(١) سورة ص: ٣٨/٣٤.

(٢) أي في أكثرها إمكان قَبُول؛ أو في أحسن أقوالهم.

(٣) من أزواجه الكريمات. وقيل في اسمها: الأمينة ـ وهذا كله من مختلقات الرواة، ومن دسائس الإسرائيليات.

(٤) في المخطوط: خطبها له.

(٥) اكترث له: حزن.

لأبيهـا، ورَغِبت إليـه أن يصنعَ لها الجِنُّ تمثالَ أَبيها حتىٰ تَنظـرَ إليـه وتتشَفّىٰ بعض الشّفاء ممّـا تجـدُ من وَحشتهـا لأَبيها، ففعل ذٰلك لها. فكـانت تدخلُ هي وجَواريها في بيـت التّمثال وتسجـدُ له وتعبُده هي وجوارِيهـا خفيةً من سُليمان ـ عليه السـلام ـ ففعلـت ذلك أربعين يوماً. فَسَلبه الله مُلكه أربعين يوماً.

وقيـل أَيضاً: إنـه كـان لهـا أَخٌ وكـان بينَهُ وبينَ رَجُلٍ من بني إسرائيل خصومةٌ، فسألتـه أن يحكمَ لأخيها علىٰ خَصمـه فأَنْعَم لهـا بذٰلك[٦].

وهـاتانِ القِصّتان علىٰ خلـلٍ فيهمـا أَسلمُ من سِوَاهمـا في حَقّ سُلَيمان ـ عليه السَّـلام ـ فإنّه يتصور الحقّ فيهما علىٰ وجوهٍ سَنذكرهـا فيما بعد إن شـاء الله تعالىٰ.

قـالوا: وكان عُقبىٰ أَمرِه معهـا في هذه القِصّة أنّه كـان إذا دخل الخَلاء وضع عندها الخاتم تَنزيهاً له أَن يدخلَ بهِ[٧] الخلاء لِمَـا تضمّن مـن أَسماءِ الله تعالىٰ. فلمّـا أراد الله تَعالىٰ سَلْبَ مُلكه تمثّل لهـا علىٰ صُورة سُلَيمان ـ عليـه السـلام ـ شَيطانٌ يُسَمّىٰ صَخـراً، وأَراها أنّه خارجٌ من الخَلاء فأَعْطَتْه الخاتـم فطـار به ورمَاهُ في البَحر، فخـرج سُليمان ـ عليه السَّلام ـ فطلب منها الخاتـم فأَخبرتْهُ بمـا كان من أَمره، فعلمَ أَنه قد فُتِنَ من أَجلها، فخـرجَ علىٰ وجهه إلىٰ الصَّحراء يَبكي ويرغَبُ ويُنيب.

ثـم إنَّ الشَّيطـان تصوّر علىٰ صورة جَسـدِ سُلَيمان ـ عليه السَّلام ـ وقعدَ علىٰ كُرسِيّه الذّي كان يقعدُ عليه لِفَصْلِ القَضاء بين النّاس، وهو معنىٰ قـوله ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسداً﴾ أَي جسداً مثل جسد سُليمـان ـ عليه السّلام ـ وبقي يَخلُفـه علىٰ كرسيّه وَيعبث ببني إسرائيل غاية العَبث بأَحكامٍ فاسدة وأَوامر جائرة أَربعين يوماً؛ حتى وجَد سُليمان ـ عليه السلام ـ خاتمـه في

---

(٦) أي أجابها إلى طلبها ووافقها (من قول: نعم).

(٧) في المخطوط «بها» وهو من سهو الناسخ.

بَطِنِ حُوت كان قد التَقَمهُ حين أَلقاه صخرٌ في البحر. فلمّا فطن الشّيطان بذلك فَرّ علىٰ وجهه، فجاءَ سُليمان ـ عليه السلام ـ فأخبروه بما فعَل الشّيطان بعده، فأمر الجِنّ بطلبه فجاؤوا به، فأمر أن يُعمل له بيتٌ منقُوب في حَجر صَلد وجعله فيه وأطبق عليه بحجر آخر وألقاه في البَحر فبقي فيه إلىٰ يوم البَعث.

وهٰذا أَسْلَمُ ما قالوه في قصّته ـ عليه السلام ـ وزاد فيها الفجرة أن الشيطان كان يقع على نساء سليمان ـ عليه السلام ـ. وهُنَّ حُيَّض. ولذا تفطَّنُوا أنّه لم يكنْ سُلَيمان، وحاشىٰ وكلاّ من هٰذه الوَصمةِ الخَسيسة أن يفعلها الله تعالىٰ مع أنبيائه ـ عليهم السَّلام ـ وكيفَ، والأُمّة مُجمعة علىٰ أنّه ما زَنت امرأةُ نبيٍّ قَطّ: كانت مؤمنةً أو كافرة. وخيانةُ امرأةِ نُوح وامرأةِ لُوط ـ عليهما السّلام ـ إنّما كانت في إظهارهما الإيمان وإخفائهما الكُفر لا غير. وكُلّ ما ذكروه في هٰذه القصّة تُجُوِّزَ[٨] له علىٰ أوجه سَنذكرها بعد إن شاء الله تعالىٰ، سوىٰ هٰذه القَولة الخبيثة.

وأما قصّة التّمثال الّذي صُنِع لها، وما قيل أنّه حكم لأَخِيها[٩]، فَيَتَصَّورُ فِيها الجَواز من وَجْهَين:

أحدهما: أن يكون صنعُ التّمثال مُبَاحاً له كما كان مُباحاً لِعيسىٰ ـ عليه السَّلام ـ قال تعالىٰ[١٠]: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيْهَا فَتَكُوْنُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾ فصَحّ من هٰذهِ الآية أنّ عيسىٰ ـ عَليه السّلام ـ كانَ يُصَوِّرُ التّماثيلَ بإذن الله. وكذٰلك سُليمان ـ عليه السَّلام ـ إذا صَحّ أنّه لم يُحَرَّمْ عَليه فِعْلُه في شَرعه. والأَظْهَرُ فيه أنّه لم يُحَرّم بدليل قوله تعالىٰ[١١]:

(٨) أي: وقع له التأويل.
(٩) أصل هذه العبارة في المخطوط: «أو ما قال إنه يحكم لأخيها». وقرأتها على الوجه المُثبت.
(١٠) المائدة ٥/١١٠
(١١) سبأ ١٣/٣٤

﴿ يَعْمَلُوْنَ لَـهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيْبَ وتَمَاثِيْلَ ﴾ والتّماثيـلُ قد تكـونُ علىٰ صُوَرِ الأناسِيّ[١٢]؛ قال امرؤُ القَيس[١٣]:

ويا رُبَّ يَومٍ قد لَهَوْتُ ولَيلةٍ   بآنِسَةٍ كأنَّها خَطُّ تِمْثَالِ!

وأمّـا إنْ عَبَـدت هي صَنماً من غيرِ أن يَشْعُرَ به سُليمان ـ عليه السلام ـ فلا بأسَ عَليه في ذلك، فإنَّ الأنبيـاء ـ عليهم السلام ـ عُنوا بالظّواهر، وأَمْرُ البَواطن إلىٰ الله تَعالىٰ. وقد كان المُنافقون يُصَلُّون خلفَ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّـم ـ ويَعْبدُون الأصنامِ في بيُوتِهمْ خِفْيَةً منه. جاء في الصّحيح عنـه ـ عليه السّلام ـ أنّه قال[١٤]: «أُمرت أن أُقاتِلَ النّاسَ حَتّىٰ يَقُولوا لا إله إلاّ الله» الحديث... إلىٰ قوله: «وحِسَابهُم عَلىٰ الله» يَعني فيما أَبْطَنُوه.

وأمّا قولُهم: إنَّها طلبت منهُ أن يحكمَ لأَخيها علىٰ خَصْمِـه فقال لها: نَعـم، فيَجُوز له أن يقولهـا وهو يُضْمِرُ في نفسِـه: إذا كان الحقُّ له لا عَليه؛ ثم طَيَّب نفسهـا بـ(نعم) لكونِ النِّساءِ تَطيبُ أَنفسُهنّ بمثلِ هٰذه المُشْتَبِهَات[١٥]، لضعف عُقولِهنّ وجَهْلِهنَّ بالحقائق. ولا يجـوز في حَقّه سوىٰ هذا، بدليل أنّـه لـو أَضمر في نفسِـه أن يحكم له؛ والحُكْمُ عَليه[١٦]؛ لوقَع في كَبِيرةٍ مُحرّمة؛ وهي أن يَنْوِيَ أن يحكمَ بالجَوْر، وحاشَاه مِن ذٰلك، وهو لا يَجُوز عليه ذلك كمـا تَقدّم.

وأمّا كونُ الشّيطان يَخْلُفه علىٰ كُرْسِيّه ويحكمَ بالبَاطِل، فليسَ علىٰ نَبِيّ

---

(١٢) الأناسي: جمع الإنسان.

(١٣) البيت لامرىء القيس (ديوانه: ٢٧) من قصيدة مشهورة أوّلها:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي   وهل يعمن من بات في العُصُر الخالي

(١٤) في صحيح مسلم١: ٥١ وطد و٥٣، وصحيح البخاريّ ١: ١١، وروايته: «... حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله......».

(١٥) يعني فهمها هي من (نعم) الموافقة المطلقة (بلا شروط) وقصده: نعم إذا كان الحقّ لـه. وهذا يَدْخُل في المَلاحِن، والمعاريض، والكلام الذي يحتمل التّأويلين.

(١٦) الـواو في (والحكم عليه) هي واو الحال.

الله ـ عليه السَّلام ـ لو صحّ في ذٰلك دقيقٌ ولا جَليلٌ[١٧] من الإثم، ؛ وهذا بمثاب عيسى ـ عليه السّلام ـ حين عُبِدَ من دونِ الله، كما جاء في الصّحيح[١٨] عنه ـ عليه السَّلام ـ قال: فَيأتون عيسىٰ ولم يـذكرْ ذنباً، فيقـولُ: لَسْت هناكم وقد عُبِدت أناْ وأُمّي من دُونِ الله. فامتَنع عنها[١٩] حَياءً من الله.

ومع ذلـك فالخبرُ باطـلٌ من وجهٍ آخر؛ وهو أنّـه لو جـازَ أن يخلفَ النبيّ شيطانٌ علىٰ صورتِه ويستنبطَ في شريعتِهِ أَحكاماً فاسدة، لكـان ذٰلك إخلالاً بالنُّبوة إذْ كـان يتخيّلُ النّاسُ ذٰلك في سائرِ أَحكامِ الأنبيـاء حتىٰ لا يَتمـيّزَ حكـمُ النّبي من حكمِ الشّيطان؛ فيشكلُ الأمر علىٰ المكلّفين ولا يتقون أمراً بعد، وهذا بمثابة تقدير خرق العادة علىٰ أيدي الكذّابين في ادِّعاءِ النُّبوة. وهٰذه **الأُلْقِيّةُ**[٢٠] في هذه القصّة من دَسائسِ البَراهِمة في إبطـالِ النُّبوّات والله أَعلم.

وأمّا ما يليقُ بِسُلَيمان ـ عليه السّلام ـ في بابِ الأَوْلىٰ والمُبـاح فـي هـذه القِصّة، فهو أَنَّهُ ما كان يقولُ لامرأتِه في طلبِ الحكومةِ لأَخيهـا: نَعَمْ حتىٰ يَتبيّنَ لهُ الحقّ أو يَتبيّن لها ما أَضْمر، فيقـول لهـا: نَعم، إذا وجَب لـه الحقّ فيها فإنه لا يَحْكُمُ بجورٍ ولا يَجُوز عليه ذلك.

وأَمّا صنعه لها التمثال علىٰ الوجهِ الذي تَقدّم فمَـا عليه في ذٰلك ذنبٌ ولا عَتْب، ولو كـانَ أيضاً صنعُه مُحَرّمـاً لما صَنعه لها أَصْلاً. فإنَّ صُنع التّمثال

---

(١٧) أي ليـس عليـه إثم: لا صغير ولا كبير.

(١٨) انـظر صحيح مسلم ١: ١٨٥، وصحيح البخاريّ ٥: ١٤٧ و٢٢٦، ومسنـد الإمـام أحمد بن حنبـل ٢: ٤٣٦، والعبـارة: «وقد عُبِدْتُ أنـا وأمّي من دون الله...» لم تـرد في الكتب الثلاثة.

(١٩) أي امتنع عن طلب الشّفاعة.

(٢٠) الأُلقيّة: ما أُلقي. والمقصود ما أُلقي ـ أي ما دُسَّ ـ فـي قصّـة سليمان عليـه السلام من أقوال البراهمة، الذين لا يؤمنون بالنبوّات؛ ويبطلونها جملةً. وهذه واحدة من ضلالات الوثنيّة وفي تفسير أبي حيان الغرناطي، وقد جاء بعد مؤلف هذا الكتاب بزمان، أنّ فيما نقله بعض المفسرين في قصة الكرسي أقوالاً يجب البراءة منها، «وهي ممّا لا يحلّ نقلها، وهي إمّا من أوضـاع اليهود أو الزنادقة». قال: ولم يبيّن الله تعالى الفتنةَ ما هـي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وذكر كلاماً مشابهاً لما قال المؤلف رحمه الله.

من الكبائِر التي أتىٰ فيها الوعيدُ الكثيرُ في الحـديث المشهور(٢١) في الثلاثة الأصناف الذين تلتقطهم أعناقُ النـار في المَحْشَر.

ومنهم من قال إنّما وقع العتاب عليه من جِهة اشتغالِه بِعَرْضِ الخَيل عليه حتىٰ غربت الشّمس وفاتته صلاةُ العشاء، وهذا أيضاً إذا صَـحّ فليسَ له في تَركهـا كسبٌ ولا عُلْقَةُ طلب(٢٢)، فإنه ناسٍ، والنَّاسِي لا طلبَ عَليه فيمـا نَسِيه، بالإجماع، قال تعـالىٰ مُخبراً عـن مُوسىٰ ـ عليه السـلام ـ أنّه قال(٢٣): ﴿لَا تُؤاخِذْنِيْ بما نَسِيْتُ﴾ وجاءَ عنه ـ عليه السَّلام ـ أنـه قال(٢٤): «إنّما أنا بشَرٌ كمـا تَنْسَوْن».

ومنهم مـن قـال: «إنّما كانت وَهْلَتُه(٢٥) لِمَا وردَ بِهِ الخبرُ(٢٦) في قوله: لأُطِيفنَّ اللّيلةَ بمئةِ امرأةٍ تلدُ كلّ امرأةٍ غُلامـاً يقاتلُ في سبيـل الله، فقالَ له صاحبِهِ: قل إن شـاء الله، فلم يَقُل ونَسِي؛ فأطاف بهنّ ولـم تلد منهنّ إلا امرأةٌ نصفَ إنسان»! قال النبيّ ـ عليه السلام ـ لو قال إن شاء الله لـم يَحنث وكان أرجى لحاجته.

(٢١) في مسند أحمد ٢: ٣٣٦ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلّم: «يخرج عنـق من النـار يوم القيامة، له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسـان ينطق به، فيقـول: إنّي وُكِّلت بثلاثة: بكلّ جبّار عنيد، وبكلّ مَـن ادّعىٰ مع الله إلهاً آخر، والمصوّرون».

(٢٢) ليس له عُلْقَةُ طلبٍ: أي ليس عليه شيء من المؤاخذة.

(٢٣) الكهف: ١٨/٧٣.

(٢٤) صحيح مسلم ١: ٤٠٢

(٢٥) الوهل: السّهو، والغلط، والنّسيـان.

(٢٦) في حديـث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلـم قـال سليمان لأطوفنّ الليلة على تسعيـن امرأة كلّها تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله. فقـال له صاحبه قـل إن شاء الله، فلـم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعاً فلم تحمل منهنّ إلاّ امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل! وايم الذي نفس محمّـد بيده لو قال إن شـاء الله لجاهدوا في سبيـل الله فرساناً أجمعون». صحيح مسلم: ١٢٧٦.

قـالوا: وهو الجَسدُ الذي أُلقي علىٰ كُرسِيّه[٢٧]. وهٰذا يعضدهُ الخبرُ الصّحيح. ويُتَصوّر العتابُ فيه مِنْ تَرْكِ الاستثناء فإنَّه أَولىٰ. فإنْ كانَ تَرَكَـهُ بعدما أُمِـرَ بهِ، فَتركَهُ ناسياً.

وقد ذكر المُفَسّرون أَنّ النبيَّ ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ لمّا طلب منهُ اليَهود أن يُخبرهـم عن قِصّة أَصحابِ الكهف، فقـال: غداً أُخبركم بِها ونَسِي الاستثناء أبطأَ الوحيُ عنه أيّاماً حتّىٰ نزلت عليه القِصّة. وقيـل له مع ذٰلك[٢٨]: ﴿ولا تَقُوْلَنَّ لِشَيْءٍ إنِّيْ فَاعِلٌ ذٰلِكَ غداً.إلاّ أَنْ يَشَاء الله وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيْتَ﴾ معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم تَذكّرت فاستَثْنِ بالمَشِيئة. وفي هٰذا أنّ الاستثناء بعد مُدّة يَرفَعُ الحَرَج ولا يرفَعُ الكَفّارة. ولِـذا أَجازه ابنُ عبّاس ـ رضـي الله عنهما ـ بعد سنة[٢٩].

فخـرجَ من عُموم ما ذكرنـاه في جميع القِصّة أ ن العِتابَ من الله تَعالىٰ لسليمانَ ـ عليـه السلام ـ إذا صحّ إنّما كـان علىٰ تركه الأَوْلىٰ من المُبَاحات.

والأَظهر في هٰذا الحديثِ أنّـه تَرك مندوباً إليه، ومَنْ ترك المندوبَ فلا إثْم عليه، فهو بمثابة تَرك المُبَاح في نَفي الذَّنب كما تَقدَّم، والله المُوَفِّق للصَّواب.

---

(٢٧) وقيل في (الجَسَد) المـذكور أقوالٌ منها:
ـ أن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان.
ـ وقيل هو سليمان عليه السلام نفسه، وذلك أنه مرض مرضـاً شـديداً حتى صار جسداً. وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى.

(٢٨) الكهف: ١٨/٢٣ ـ ٢٤
وفي كتـب التفسيـر وأسبـاب النّزول ـ والعبارة في القرطبي ١٠/٣٨٥ ـ: عاتـب الله تعـالى نبيه عليه السّلام على قـوله للكفـار حين سألوه عن الرُّوح والفتيـة وذي القرنين: غـداً أُخبركـم بجواب أسئلتكـم ولم يستثن في ذلـك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يومـاً حتى شـقَّ ذلك عليه وأرجف الكفار به فنزلت سورة الكهف مفرّجة.

(٢٩) حكـي عن ابن عبـاس (رض) أنه إن نسـي الاستثناء ثم ذكر ولـو بعد سنة لم يحنث إن كـان حالفاً. قـال القرطبي: وهو قول مجاهـد.

شَرْحُ قِصّة يُوسف(*) عَلَيه السلام

في إضافَةِ الله تَعالىٰ لَهُ الهَمّ عند مُراودةِ امرَأَةِ العَزِيز له عن نَفْسِه، والـذي ينبغي أن نقدّمَ أوّلاً، الإعلامُ بأنّ يوسف ـ عليه السّلام ـ كان نبيّاً قـبل المُراوَدة والهَمّ؛ والدّليلُ علىٰ ذلك أنّـه لو لم تَثبِتْ نُبوّته قبلَ ذلك لم تهتـمّ الأُمّـة بـذكر هَمّـه، لأنّ العِصمةَ المُجْمَع عليها لا تُشترط للنّبيّ إلا بعد ثُبوت نبوّته لا قَبلها. ومع ذلك فإنّ النبيَّ لا تَثبتُ لهُ معصيةٌ مشروعٌ تركُها قبل النّبوة ولا بَعدها. وسَنُشبِعُ القَول في ذلك في قصّة آدم ـ عَليه السّلام ـ إن شـاء الله تعـالىٰ.

وأمّـا إثباتُ نُبوّته قبلَ هَمّه من الكِتـاب فمن قـوله تعـالىٰ(١): ﴿وَلَمّـا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً﴾.

وأَجْمَعُوا علىٰ أنّ هٰـذا الحكمَ والعلمَ في حـقّ يوسف ـ عليه السلام ـ أنهـما النّبوة(٢)، ثمّ قـال تعـالىٰ بعدما ذكرَ الحُكم والعِلم(٣): «﴿وَرَاوَدَتْهُ الّتِي

(*) قـصة يوسف عـليه السـلام في تـنزيه الأنـبياء للشريف المرتـضى: ٤٦، وعـرائس المجـالس: ١١٨، وابن كـثير: ١: ٣١٧، وتـفسير الطبريّ ١٢: ١٠٦، وتـاريخ الطبريّ ١: ٣٣٧، وتفسير القرطبيّ ٩: ١٦٢.

(١) يـوسف: ١٢/٢٢

(٢) ومن قـال إنه أُوتـي النبوّة صغيراً قـال: لمّـا بلغ أشدّه زدنـاه فهماً وعلماً. وقـال ابن عطية الأنـدلسي صـاحب المحـرّر الوجـيز: إن كـون يـوسف (ع) نبـيّاً في وقـت هذه النـازلة لم يصحّ، ولا تظاهرت به روايـة. وإذا كـان كـذلك فهـو مؤمـن قـد أوتـي حـكماً وعـلماً. ويجـوز عليه الهـمّ الـذي هـو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحـب الخـاطر الرديء على ما في ذلك من الخـطيئة، وإن فرضنـاه نبيّاً في ذلك الوقت فلا يـجـوز عليه عندي إلّا الهـمّ الذي هـو خـاطر. ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حـل تكتـه ونحـوه لأن العصمة مع النبوة. قـال القرطبي: لكن قـوله تعـالى: ﴿وأوحـينا إليه﴾ يـدل على أنه كـان نبياً. . . وإذا كان نبيّاً فـلم يـبق إلا أن يـكون الهـمّ الـذي هـمّ به ما يخـطر في النفس ولا يثبت في الصـدر، وهـو الـذي رفع فيه الله المؤاخـذة عن الخـلق. . .

(٣) يـوسف: ١٢/٢٣.

هوَ فِي بَيْتِها عَن نَّفْسِهِ﴾». الآيـة.

وأمّا هَمُّه فأوّل ما ينبغي أنْ نُقدمّ أنّ الهَمَّ في اللِّسـان: الإرادَة لا غـير، فإنْ سُمّي الفعلُ هَمّاً فمَجازٌ من بـاب تَسميةِ الشّيء باسم الشّيء إذا قارَبَه أو كانَ منهُ بِسَبب. فلمّا كـانت الأفعـالُ مرتبـطةً بالإرادة التي هـي الهَمُّ سُمّـيت هَمّاً. فَيُقـال لمن نصَب أوانِي الخَـمر وما يحتـاجُ إليه شرابهـا: هَمّ، وكـذلك يُقـال لِمَن خَلاَ بامرأةٍ فلاَعـبها؛ وذلك لأنَّ الهَمَّ الحـقيقيَّ مَحـلُّه القلب؛ وهـو غير مَحـسوس، فلـما لم نُـدركه بالحواسّ لم نَعلمـه، فإذا أدركنا أسبابَه الدالَّة عليه بالحواسّ قلنا: هَمَّ، أي فعلَ أفعالاً دلّت علىٰ هَمِّهِ بها في باطنِه، فثبتَ أنّ الهَمّ الحقيقيّ هو الإرادَةُ لا الفِعـل.

جـاء في الصحيح عنه ـ عليه السّلام ـ أنـه قـال(٤): «مَن هَمّ بِحَسنةٍ فلَمَ يَعملها كُتبت له حَسنة، فإنْ عَمِلها كُتبـت له عَشراً. ومن هـمّ بسَيّئةٍ فلم يَعملها لم تُكـتب شيئاً، فـإن عَمِلها كُتِبَت سيّئة واحِـدة» الحَـديث.

فهـذا أدلُّ علَىٰ أنَّ الهـمّ غيرُ الفِعـل، قـال الشاعر(٥):

هَمَمْتُ ولَمْ أَفعلْ وكِدْتُ وَلَيْتني　　　تركتُ علىٰ عُثمـان تَبكي حَلائِلُهْ!!

فأخـبر أنّه همَّ ولَم يَفْعـل(٦)، وإذا كان هٰـذا هـكذا فما بـالُ الجَهَـلة باللِّسان المُقَلِّدين المُجـازِفين في الحَـقائق يقـولون: قَعد منها مقعدَ الرَّجـلِ من المرأة، وحـلّ عَقد نطاقِهـا وهـو ينظرُ إلىٰ أبيهِ تـارةً وإلىٰ المَلِك أُخـرىٰ ثُمَّ يعودُ لِحَـلّ العَقد!!

(٤) في صحيـح مسلم ١: ١٤٧ في حـديث الإسـراء.
(٥) البيت لضابىء بن الحـارث البرجـميّ، في الكامل في الأدب: ٤٩٦، ٥٠٣، وانـظر تخـريجاته.
(٦) في اللسـان: الهـمّ:(ما همّ) به في نفسه.
وهـمّ بالشيء: نـواه، وأراده، وعـزم عليه.

ونحـنُ مع ذٰلك نَعْلَمُ قَطعـاً أَنّ أحدَنـا؛ علىٰ جَهـلنا وعدم ِ عصمتنا وسُوء أَدبنـا؛ لو كـان علىٰ تلك الحالة وكشفت عليه أَمَتُهُ لانْقَبَض وتغيَّر عليه حالُه، فكيـف بنا إذا كشـف علينا آباؤنـا وكُبَراؤنا؟! فكيفَ الملائكة؟!

فانـظرْ إلىٰ مَقْتِ هٰـذه القَوْلة وماذا جَمعـت من الاجتـراء والافتـراء علىٰ أَنبياء الله تعـالىٰ، مع صفَاقةِ الوجـوه وعـدم الحَـياء، والتّهـاون بـذكر المُصطفين الأخـيار. وقـد ذكرهـا الهَمدانـي وغيره[٧] في شـرح قصّة يُوسف ـ علـيه السلام ـ مع أَنَّ الهـمّ في اللّسـان: هـو الخَـاطر الأَوّل، فـإذا تَمادىٰ سُمّي إرادة وعَزْماً، فإنْ لـم يعترضْهُ نقيضُ سُمِّي نِيَّة. ثم إنَّ الله تعالىٰ وصَفه بالخاطر الأَوّل فقـال: ﴿همَّ﴾ وهُمْ يقـولون: فعَلَ وصَنع! لا لَعاً[٨] لِعَثْرتهِـمْ ولا سَلامـة!

فصـل

فإن قيـل: فما الحـقّ الـذي يُعَوّل عليه في هٰـذا الهـمّ؟!

فنقـول؛ أَوّلاً: إنّ بعضَ الأئمّـة ذكروا أَنّ الإجـماع منعـقدٌ علىٰ عصمةِ بواطنهـم من كُلّ خـاطر وقَع فيه النَّهـي. وللمحـقّقينَ أَقوالٌ في هــذا الهـمّ نـذكر المختـار منها إن شـاء الله تعـالىٰ.

فمنهـم من قـال: إنّ في الكلام ِ تَقديماً وتـأخيراً، وترتيبُه أن يـكون: ولقد هَمّـت به، ولولا أَن رأَىٰ برهـانَ ربّـه لَهـمّ بهـا. ويـكون البُرهـان هنا النُّبوّةَ والعِصـمةَ وما كاشفَ من الآيـات وخَـوارق العادات. والتّقـديمُ والتّأخـير في لسـان العرب سائغ.

---

(٧) وهـي شائعة في كتـب التفسير، تُـذكر من المفسّرين بين سـرد وتلخـيص، وردّ واعتراض، وحـاكمها كـثير منهم؛ وردّهـا بجـملة من وجـوه الاعتـراض.

(٨) العـرب تـدعو على العاثر فتقـول: لالعـاً لكَ؛ أي: لا أقـامك الله. وتـدعو له فتقـول: لعاً لـك؛ أي: أقـامَ الله عثرتـك.

ومنهم من قال: هَمّ بِحُكم البشريّةِ مع الغَفلة عن ارتكابِ النّهي. ثم ذَكّره الله تعالى الإيمان وتحريمَ المَعصية وشُؤمَها والوعيدَ عليها؛ وهو البرهانُ الأعظم فَصَرف عنه السُّوء والفَحشاء، ولذا قال بعضُهم: هَمّ وما تمّ؛ لأن العنايَة من ثَمّ!

ومنهم من قال: كاد أن يهمّ لولا العِصْمَةُ السَّابقة، فيكون الهمُّ هنا مجَازاً.

ومنهم من قال: همَّ هَمَّ الفُحوليّة، وذلك أنه كان ـ عليه السلام ـ فحلاً شابّاً خلَت به امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وغُنج، وطالَبَتْه تلك المطالَبة، فاهتزّ هزّة الفحلِ بهزٍّ ضَرُوريٍّ غيرِ مُكتسب[٩]، فسُمّي ذٰلك الاهتزازُ هَمّاً لكونهِ من أسبابِ الهمّ كما تَقَدّم. ويكونُ الهمُّ علىٰ هٰذا التّفسير ضروريّاً ولا طَلَب في الضّروريّات، وأقولُ إنه إنْ كانَ همّ مُكْتَسِباً لهمّه ولم يفعل فلا لَوْمَ ولا ذَنْبَ؛ بدليل الحديث المتقدّم الذي منهُ قوله ـ عليه السّلام[١٠] ـ «ومَنْ هَمّ بسيّئةٍ فلم يعملها لم تُكتب شيئاً» معناه: لم يُكتب له صغيرةٌ ولا كَبيرة. وجاء في حديثٍ آخر[١١]: أَنّ تارك الخطيئة من أَجل الله تُكتب له حسَنة، بدليل قوله تعالىٰ للملائكة: اكْتبُوها له حسَنة فإنما تركَها من جَرّاي، أي من أَجلي. وهٰذا ينظرُ إلىٰ قول الله تعالىٰ[١٢]: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وإذا كان هٰذا في حق الرعية،

---

(٩) هو ما يدعى الطبيعي والغريزي.
ـ وقوله: لا طَلب: أي لا مؤاخذة.
(١٠) سبق الحديث.
(١١) في صحيح مسلم ١: ١١٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قالت الملائكة: رَبِّ! ذاكَ عبدُكَ يريد أن يعمل سيِّئةً (وَهُوَ أَبْصَرُ به)؛ فقال: ارْقُبُوه، فإن عَمِلَهَا فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً، إنَّما تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ».
(١٢) الفرقان: ٢٥/ ٧٠

فالأَنبياءُ ـ عليهمُ السَّلامُ ـ أَولىٰ بهٰذا التَّرك لا محالة، كيفَ وقد أَثنىٰ الله تَعَالىٰ عليه ونزّهه بقوله عندما قالت[١٣] ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. فهذا مما يَدُلُّ علىٰ أَنّه تركها من أَجل الله، وأنه مأجورٌ في تركها.

وإذا كان هٰذا فلا ذَنْبَ ولا عَتْبَ يلحَقُ يوسف ـ عليه السلام ـ صغيراً ولا كبيراً، بل يكون مأجوراً في التَّرك.

فهٰذه أقوالٌ تُشَاكِهُ[١٤] الصَّواب وتليقُ بالأكابر.

والأَظهَرُ القولُ الأخير من هٰذه الأَقوال لكونه معضُوداً بالخَبرِ والآية. والله أعلم.

فإن قيل: فإذا لم يُتَصَوَّر في حقّ يُوسفَ ـ عليه السَّلام ـ ذنبٌ ولا عَتبٌ فلأيّ شَيءٍ قال بعدما أَنصفَتْهُ امرأةُ العزيز وأَقرّت بفعلها[١٥]: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيْ إِنّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

قلنا: ومن أَين لكَ أَن تقولَ إنّه قالها والآيةُ تَقتضي أَنّها من قول امرأةِ العزيز وذٰلك أَنّه لمّا تأدَّب معَها بآداب الأَحرار حيث قال لِرسول الملك[١٦]: ﴿ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّك فَاسأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ فَخَلطها مَعهُنّ وذكرَ فِعلهُنّ وأَضرب عن ذكر فعلها تَنَاصَفت[١٧] هي وأَقَرَّت بأَنّها رَاوَدَتْهُ فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾.

علىٰ أَنّه لو ثَبَتَ أَنّه قالها لخرَجت له أَحسن مخرج؛ وذٰلك أَنّه لمّا

(١٣) يوسف: ١٢/٢٣.
(١٤) أي تشابهه.
(١٥) يوسف: ١٢: ٥٣
(١٦) يوسف: ١٢: ٥٠
(١٧) وقفت موقف الإنصاف.

أنصفتْهُ بإقـرارها وتبرئتـه قـال هـو: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِـي﴾ علىٰ أصلِ الحِوَارِ لا عَلىٰ نَفْسِ الوقوع، كما قـال الخليل ـ عليه السَّلام ـ[١٨] ﴿وَاجْنُبْنِيْ وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُـدَ الأَصْنَـامَ﴾ وهـو قد أَمـن بالعِصمةِ من عِبادَتها، وقـال تعـالىٰ[١٩] لنبيّنـا ـ عـليه الصّلاة والسلامُ ـ ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ﴾ وهـو تعـالىٰ قد شاء ألّا يُذهـبه. والعِصمـةُ والنَّزاهـة له علىٰ كمالها.

فليتَ شِعري إذا كـان للتّأويل في هٰـذه القصـة وأَمثـالها مَجـرًى سحـب[٢٠]، ومجـالٌ للسَّلامـة رَحـب[٢١]، فما بالُهـم يُضَيّقُـون هـذا الوَاسِع لولا الفضـول؟!

(١٨) إبـراهيم ١٤/٣٥
(١٩) الإسـراء ١٧/٨٦
(٢٠) سَحَبَ الشيء سَحْباً: جَرَّه؛ وأراد بقـوله: «مَجْرًىٰ سَحْب» أي يـطول الجـريُ فيه.
(٢١) المجـال الرَّحْب: الواسع.

شرح قصّة نبيّنا عليه الصلاةُ والسلام(*)

مع زَيد وزينب في قوله تعالىٰ[١]: ﴿وَإِذْ تَقولُ لِلَّذِيْ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ الله، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيْهِ وَتَخْشَىٰ النَّاسَ والله أَحَقُّ أَن تَخْشَاه﴾. إلىٰ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُوْلاً﴾.

هٰذه من القِصص التي آمْتُحِن بها عَوامٌ هٰذه الأُمة ومُقَلِّدُوهُم المجازِفُون المُقتفون ما ليسَ لهم بِه علم!

والقصّة بحمدِ الله أَشْهَرُ وأَظهرُ من أَن يُتَقَوّل فيها بِزُور أو يدْلَى بِغُرور، والأَوْلىٰ أَن نقدّمَ ما صَحّ من القِصّة ثم نَرجع إلىٰ شَرح الآية.

والّذي صحَّ منها أَنّ المرأة هي زينبُ بنتُ جحش بن أُميمة بنت عبد المطلب جد رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ وأَما بعلُها فهو زيدُ بن حارثة مولىٰ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ومُعْتَقُهُ. وكان رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ قد رَبّاه وتَبَنّاه، وكان يُسَمّىٰ ابنَ رَسُول الله حتّىٰ أنزل الله تعالى[٢]: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُم ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ فنفىٰ البُنُوّة بالدعوىٰ وقال[٣]: ﴿ادْعُوْهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله﴾. الآية. فلما أَدرَكَ زَوَّجَه رسولُ الله ـ صلّىٰ لله عَليه وسلّم ـ زَينب المذكورة. وبقي مَعها حتّىٰ أَمَر الله تعالىٰ نبيّه ـ عليه السّلام ـ أَن يتزَوَّجَها أَو أَخْبَرَهُ بِهِ كما سيأتي في شرح الآية إن شاء الله تعالىٰ.

(*) قصة نبينا صلى الله عليه وسلم مع زيد، وزينب: في تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضىٰ: ١٠٩، وتفسير الطبري ١٢: ١٠، وتاريخ الطبريّ ٢: ٥٦٣، وتفسير القرطبيّ ١٤: ١٨٨.

(١) الأحزاب: ٣٣/٣٧

(٢) الأحزاب: ٣٣/٤

(٣) الأحزاب: ٣٣/٥

وما تَقَوَّلَهُ المُنَافِقون والجَهلةُ المُجَازِفُون من أنّ رسول الله ـ صَلّى الله عَليه وسَلّم ـ رآها وأحبَّها وشُغِفَ بِحُبّها حتىٰ كان يضع يده علىٰ قَلبِه ويقول: يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قلبَ نَبيّك! ؛ ويدخُل عليه زيدُ المسجد ويقول: «ادْنُ منّي يا زيد» ؛ شَوقاً إليها! ؛ إلىٰ غير ذلك من هَذَياناتٍ لا يَرْضَاها صُلَحاء المُسلمين لأنفسهم فكيفَ سيّد المرسلين!؟[٤] فكلّ ذلك باطلٌ مُتَقَوَّل.

وكذلك قَوْلُهم إنّه ـ عليه السّلام ـ رآها فأحَبَّها؛ تَخَرُّصٌ وزُور، وكيفَ وقد تَربَّت في حِجْرِ رسُول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ حتىٰ زَوّجها لزيد، علىٰ أنّه لو أحبّها كما اخْتَلَقُوه لم يُدركه في ذلك لومٌ فإن الحبَّ أمرٌ ضروريٌّ لا يدخلُ تحت الكَسب؛ جاء عنه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ أنه قال[٥]: «اللّهمّ إنّي عدلتُ فيما أملكُ فاغفْر لي ما لا أملك». يعني: عدلت فيما أكسب فاغفرْ لي ما لا أكسب، فَلَمْ يَكْرَهِ العُقلاءُ الحبَّ إلاّ لِمَا يكونُ معه للمحبّين من الطَّيشِ، والمَيل، والذكر بما لا ينبغي، وطلب الظَّفر بالمحبُوب علىٰ الوجوه الفاسدة.

وهٰذه الأُمور كلها لا تليقُ بصلحاء المسلمين، فكيف بسادات المرسلين المعصُومين ممّا دون ذٰلك كما تقدم؟!

جاء في الأَثر: أن رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسَلّم ـ مَرَّ برجلٍ يُنشد[٦]:

أقْبَلْت فَلاحَ لَها عَارِضَان كالسَّبَجِ

(٤) تنظر في المطوّلات من كتب التفسير؛ ومنه في القرطبي ١٤/١٨٨ ـ ١٩٦

(٥) ورد الحديث في مسند الإمام أحمد ٦: ١٤٤ برواية أُخرىٰ، من حديث عائشة رضي اللّه عنها، قالت: «كان رسول اللّه صلّىٰ اللّه عليه وسلّم يَقْسِمُ بين نسائِهِ، فيَعْدِلُ. . . ثمّ يقول: اللّهمّ هذا فعلي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك».
وقول المؤلّف: «فإنّ الحبّ أمرٌ ضروريّ» أي فِطريّ.

(٦) الخبر والشعر في الرسالة القشيرية: ٣٣٨ ـ بتحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي؛ وورد البيت الثالث في العقد الفريد ٦: ٨.

أَدْبَرتْ فَقُلْتُ لَهَا والفُؤادُ في وَهَجٍ
هَلْ عَليَّ وَيْحَكُمَا إن عشقتُ من حَرَجٍ؟!

فقال له رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لا حَرَجَ إنْ شاء الله، معناه: لا حَرج عليك إن كنتَ تكتمُ وتَصْبِرُ ولا تُؤذي محبوبَكَ بقولٍ ولا بِفعل، ولا يشغَلُكَ حُبُّه وذِكره عَمّا فُرِضَ عَليك.

ومصداقُ هٰذا الشّرح ما جاء عنه ـ عليه السَّلام ـ أنّه قال[٧]: «مَنْ عَشِقَ وكَتم وعَفّ وماتَ ماتَ شَهِيداً» وسببُ شَهادته أنّ النّفس الأمّارة بالسُّوءِ تُحِبُّ الشّهوة والتَّشَفِيّ بالفعل، فيحاربها الوَرِعُون المتّقُون بالكتمان والعَفاف حتىٰ يقتلهم.

وعلىٰ هٰذا مضت العادات وتناظَرت الحكايات، ولولا قَصْدُ الاختصار لأسمعتك في هذا الشّأن أخباراً وأشعاراً عن ظُرَفاء المُحِبّين المُتَدَيِّنين، وأهل الهمم من فتيان العرب. فقد قيل: إن قَيْس بني عامر[٨] تعرَّضَتْهُ ليلىٰ بأرضٍ فلاة فقالت له: ها أنا بُغْيَتُكَ ومَثار فِتنتك، ليلىٰ! جئتك ولا رَقيب ولا واسطة فاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ!

فقال لها: بِي منك ما شَغَلَنِي عَنْكِ! ثمّ سارَ وتركها. فَهٰذا من ظرفاء المُحِبّين.

وآخر رأىٰ غُبارَ ذيلٍ[٩] محبوبه فَغُشِي عليه فهٰذا أَظرف منه، إلىٰ غير

---

(٧) في الفتح الكبير، للسّيوطيّ ٣: ٢١٢: «مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ فَمَات فهو شهيد».

(٨) قيس بن الملوّح العامري، أحد بني عامر بن صعصعة، ومن مشاهير عشّاق العرب، عَشِقَ ليلىٰ بنت مهدي العامريّة، وكان يرعىٰ الغنم منذ الصِّغر عند جبل يقال له «التّوباد»، وقال فيها الشعر، وذاع شعرهُ فمنعه أهلها الاقتراب من ديارهم واستَعْدَوْا عليه الوالي، فأهدَرَ دَمَهُ إن زارها؛ وخَطبها فرفض أبوها، وزوّجها من رجل غنيّ من ثقيف فاختلط قيس، فكان يجيء جبل التوباد فيقيم به ثمّ يهيم على وجهه، ثمّ وُجِدَ ميتاً في أحد الأودية؛ وللمجنون ديوان شعر مطبوع بتحقيق الاستاذ عبد السّتّار فرّاج ـ رحمه الله ـ نشرته (مكتبة مصر) بالقاهرة.

(٩) غبار ذيل ثوبها.

ذلك. وجاء في الأَثر: أنّ علياً ـ كَرّم الله وجهه ـ كانت له جاريةٌ تتصَرَّف في أشغاله. وكان بإزائه مسجدٌ فيه قَيّم، فكانت متىٰ مرّت به تلك الجارية قال لها: أَما إني أُحِبُّك، فشقّ عليها ذلك فأخبرَتْ عَلِيّاً ـ رضي الله عنه ـ بذلك، فقال لها: إذا قال لك ذلك فقولي له: وأنا أُحِبُّكَ فأَيش تُريد بعدَ هٰذا(١٠)؟!

فلمّا مَرَّت به قالت له ذلك، فقال: نصبِرُ حتّىٰ يحكمَ الله بَيننا. فلمّا أخبرت علياً ـ عليه السلام ـ بما قال لها دعَا بِهِ وقال له: خُذْها إليك فقد حكمَ الله بينكما! فهذا شأنُ الظُّرفاء والمُتَدَيِّنين من المُحِبِّين.

ومع هذا فالرَّسول ـ عليه السّلام ـ أشرفُ وأَسْنىٰ من أن يُمتحن بمثل هذه النَّقيصة، ومع ذلك فما صَحّ أَنَّ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلم ـ أَحبّها ولا شُغِفَ بها في كِتابٍ ولا سُنّة سوىٰ ما تخيّله(١١) الجهلة، وكُلّ ما رَوَوْهُ في ذٰلك عن الصَّحابة فكذبٌ وزُور وجَهْل بِمُقتضىٰ الآية ومنصبِ النُّبُوَّة، وتخرّصٌ من أهلِ النّفاق، وها أُبيّنُ لك ذلك في سياق الآية إنْ شاء الله تعالىٰ.

فصل

قال الله تعالىٰ(١٢): ﴿وإِذْ تَقُوْلُ لـلّذي أَنْعَمَ الله عَلَيْـهِ وَأَنْعَمـتَ عَلَيْـهِ أَمْسِـكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله﴾.

ذكر بعضُ المفسّرين في أَشْبَهِ الأقوال أن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾، تنبيهٌ من الله تعالىٰ لنبيّه ـ عليه السَّلام ـ علىٰ وجه العتاب في قوله لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وأقول إنّه تنبيه لنبيّه ـ عليه السَّلام ـ ليتهيّأ لفهم الخِطاب من غير عتاب، وهو الأَظهَرُ والأَوْلىٰ.

(١٠) فأيش: فأيّ شيء.. (وهذا اختصار قديم من باب النّحت).

(١١) ما تخيّله الجهلة: من خيالهم المريض. وفي المخطوط بالحاء المهملة «تحيّله» ولها وجه أيضاً. ورجّحت الخاء المعجمة.

(١٢) الأحزاب: ٣٣/٣٧

وبذا تناصرت الآيات كقوله تعالىٰ(١٣) ﴿ إذ ابْتَلىٰ إبْرَاهِيْمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ وقوله(١٤) ﴿ وَإِذْ قُلْنا للمَلائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآي.

وأمـا قولـه تعالىٰ(١٥): ﴿أَنْعَمَ الله عَلَيْه﴾. ففي هذا الخبر معجزةٌ للرّسول ـ صلّىٰ الله عليه وسلم ـ وكرامةٌ لِزَيد، لكنّهـا من أعزّ الكراماتِ وأشرفها.

فأمّا المُعجزة فهي من باب إخباره ـ عليه السَّلام ـ بالغُيوب فتَقع كما أَخبر عنها. وذٰلك أَنّ الإنعـام هـا هنا إنّما هو في أَنْ وهَبه الله تعالىٰ إيماناً لا يُفارقه إلىٰ المَمـات، إذْ لـو كـان في معلوم الله تعالىٰ أن يسلُبَه إيّاه عند الوفاة لـم يسمّه نعمة، فإنّ ثمرة الإيمان إنما تُجتنىٰ في الآخرة، وإيمان زائلٌ لا ثمرةَ له في الآخرة ولا يُسَمِّىٰ نعمةً بل هو نقمة. كإيمان بلعم بن باعُورا(١٦) وغيره من المخذُولين المبدّلين، نعوذ بالله من بَغتاتِ سخطه.

فخرج من فحوىٰ ذكر هذه النّعمة أَنّ زيـداً يموتُ مؤمناً. فكانَ ذلك وزيادة، أنّه ماتَ أَميراً شهيداً مُقْدِماً بين الصَّفّين، في يوم مُؤتة. كان قـد قدّمه رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ علىٰ الجيش في حديث يطـول ذكره؛ ثم قُتِل شَهيداً فنزل الوحيُ علىٰ رسـول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فصعـد المِنبر

---

(١٣) البقرة: ١٢٤/٢

(١٤) البقرة: ٣٤/٢ وفي سُور أُخـر.

(١٥) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(١٦) بلعام بن باعوراء كـان أيام موسى عليه السَّلام. قـال القرطبي ٣١٩/٧ كان في مجلسـه اثنتا عشـرة ألف محبرة للمتعلّمين الـذين يكتبون عنه. ثم صـار بحيث أنه كان أول من صنّـف كتاباً في أن: ليس للعالم صانع! وقـال مالك بن دينار: بُعِث بلعام بن باعـوراء إلى ملك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمـان فأعطاه الملك وأقطعـه فاتّبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات (يعني الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧ من سورة الأعراف).

فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قـال[١٧]: «أخذ الرّاية زيدُ فأُصِيب، إلىٰ قوله: لقد رُفِعوا لي في الجنة علىٰ أَسِرّةٍ من ذَهب». الحديث.

فهٰذه معجزة صَحَّت لهُ ـ عليه السّلام ـ من بـاب الإخبار بالغُيوب، فوقعـت بمحضر الأشهاد كما أخبر عنها، وكمـا وقع نقيضُها في قصّة أبي لهب[١٨] حيث أخبره ربه في قرآنٍ يُتلىٰ أنّه من أهلِ النّار، ومـاتَ كافراً فكانَ ذٰلك.

وأمّا كرامَةُ زَيد فبإعلام الله له في ضِمن الآيـة بسلامةِ العاقبة كما ذكرناه.

وأمّـا تصوّر العِتَاب إن صحّ في قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فقد يقع من باب ترك الأَوْلىٰ من المُبَاحات كما تَقدّم، وذلك أنّ الله تعالىٰ أمره بزواجها أو أخبره بـه حيـث قـال له في آخر الآية[١٩]: ﴿وكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ وسيأتي بيانُ ذلك الأمـر عنْد فراغنا من شـرح الآية إن شـاء الله تعالىٰ.

وأما سببُ قولـه له أمسكها فهـو أن زيداً جاءه يتشكّىٰ لـه بها، فقال: يا رسـول الله زينب تسُبُّني وتَستعلي عليَّ وتُعَيِّرُني وتَفْخَرُ عَليّ بِشَرَفها، إلىٰ غير ذلك، وأريد أن أُطلّقها.

فقد ربما كان الأولىٰ أن يقول لـه ـ عليه السّلام ـ مثلاً: أنت وشأْنَكَ! أو ما يَقْرُبُ من هٰـذا من الأقوال، أو يسكت عنـه فلا يأمـره ولا يَنْهَاه لكونه ـ عليه السّلام ـ قد أمره الله تَعالىٰ بِتزويجها أو أخبره بذلك، فقـال له: أَمسكها. والأَظْهَرُ أنّه قصد ـ عليه السّلام ـ بهذه القَولة خوف القالـة من السُّفَهاء أن يقولوا

(١٧) في مسند الإمام أحمد ٣: ١١٣ و١١٨، ولم ترد فيه العبارة: «لقد رُفِعوا لي في الجنّة علىٰ أسرّةٍ من ذهب».
(١٨) في سورة تَبّت يدا أبي لهب.
(١٩) الأحزاب: ٣٧/٣٣

ما قالُوه فيهلكوا بِأَذِيَّتِه، فتصحّ عليهمُ اللّعنةُ في الدَّارَيْنِ، والعَذابُ الأليم؛ بدليل الكتاب؛ قـال الله تَعالى(٢٠): ﴿إِنّ الَّذِيْنَ يُؤذُوْنَ الله ورَسُولَه لَعَنَهُـمُ الله في الدُّنيا والآخِرَةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُّهِيْناً﴾.

وأيضاً أنه لمّـا سمع أنّ الله تعالىٰ عاتَب داوود ـ عليه السلام ـ في قـوله(٢١): ﴿أَكْفِلْنِيْهَا﴾، قـال هو: «أَمسكها»، وسَقط العتاب.

وأما قوله(٢٢): ﴿وَاتَّقِ الله﴾، يعني في ذِكرها بالقُبح لغيبها في قـوله: تقولُ لِي كـذا وتفعلُ بي كذا؛ وهي غائبة، فنَهاه عن الغيبة المنهيّ عنهـا شَرعاً، بدليل أنّ قول زيد: أُطَلِّقُها، كلام مُبَاحُ ليس فيـه حَظْرٌ ولا كراهةٌ في الشرع.

وأمّـا قول الله ـ عز وجل ـ لنبيّه ـ عليه السّلام(٢٢): ﴿وتُخْفِي فِيْ نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيْهِ﴾. يعني من تَزويجها الّذي أَمرتك بـه أَو أعلمْتُك به.

وأَمّـا قولُـه تعالىٰ(٢٢): ﴿وَتَخْشَىٰ النَّاسَ﴾، أي تخشىٰ من قولِ النَّاس، علىٰ حذف حرفِ الجر كأنـه يقول: تخشىٰ من الناس أن يقولوا فيك فيأثموا ويهلكوا، والله أَحقُّ أَن تخشاه.

أي تخشىٰ منـه علىٰ النّاس وللّناس حتىٰ يقع مرادي فيك وفي الناس، إذ ليس احتياطُك يُغني عنهم من الله شيئاً، فلا عليك مِمَّن قال ولا مِمَّن أثم، فأنا أعلم بما يقولون وبما أُجـازيهم. كمـا قال تعالىٰ له(٢٣): ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٢٤) و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾(٢٥) و﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إلىٰ غير ذٰلك.

---

(٢٠) الأحزاب: ٥٧/٣٣
(٢١) ص: ٢٣/٣٨
(٢٢) الأحزاب: ٣٧/٣٣
(٢٣) آل عمران: ١٢٨/٣
(٢٤) البقرة: ٢٧٢/٢
(٢٥) القصص: ٥٦/٢٨

وأمّا أن يكون الرسول ـ صلىٰ اللّه عليه وسلم ـ يخشىٰ النّاسَ من غيرِ مُراعاةٍ لهذا القدر وما أَشبهه، فحاشا وكَلاّ، وكيف وقد قال تَعالىٰ بعد هذه الآية(٢٥)*: ﴿ الَّذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ رِسَالاَتِ اللَّه وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاّ اللَّه ﴾ فقد زكّىٰ الله تَعالىٰ أنبياءَهُ بأنّهم أَفْرَدُوه بالخشية، فلو كان الرسول ـ عليه السلام ـ يخشىٰ النّاسَ لأجْلِ النّاس لَتَناقَضَ الخَبر، والتّناقض في خبرِ الله ورسوله مُحَال.

وأمّا ما خاف أن يقولَهُ النّاس فيهلكوا، فهو علىٰ خمسة أَوْجُه:

أحدها: ما جَرت به عاداتُ الجَهلة المتكبّرين علىٰ المَوالي فيقولون: كيفَ يَسُوغ لَهُ أن يعمدَ إلىٰ كريمةٍ من كرائمِه وأقرب النّاس إليه نَسباً فيزوّجها لِعبده؟!

والثاني: وهو أشدُّ عليهم في الإنكار أن يقولُوا: كيف رَضِيَ أن يتزوَّجَها بعد عَبْدِه؟!

الثالث: أن يقولوا: إنّما حمله علىٰ ذلك حُبُّه لها وشغَفُه بها.

الرّابع: قلّة المُرَاعاة لأمر الله، وعدم التّسليم لِحُكمه، إذْ لو كانُوا يذعنون لأحكام الله تعالىٰ ويُسلمون له لم يُنكروا شيئاً ممّا فعله نبيهم ـ عليه السلام ـ

الخامس: وهو أصلٌ لكلّ رذيلة، وهو مُرَاعاة التَّحسين والتَّقبيح وردّهما إلىٰ العُقول القاصرة، وما جرت به العَادات، وهو دَاءٌ عُضَال نَغلَتْ بِهِ(٢٦) قلوبُ الجَهلةِ الضّالين، فَفنّدُوا حكمَ اللّه تعالىٰ واعْتَرضُوا لفعاله في خلقه.

---

(٢٥)*الأحزاب: ٣٩/٣٣

(٢٦) النّغل: الفَساد، وفي الحديث (في النهاية واللّسان): «رُبَّما نظر الرجل نظرة فنغل قلبه كما ينغل الأديم في الدِّباغ فيتثقّب».

وكان أوّل من سَنّ هذه الداهية الدهياء إبليس، حيث قال(٢٧): ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، (٢٨)و﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُوْنٍ ﴾، (٢٩)و﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، (٣٠)و ﴿ أَرَأَيْتَكَ هٰذا الَّذِيْ كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ إلىٰ غير ذلك من أقوالِه السَّخيفة. فانظرْ ـ رحمك الله ـ إلىٰ أهل هذه المذاهب الخسيسة بمن اقتدوا فيها وعلىٰ من عَوَّلُوا في اقتدائهم، قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون.

ومما قيل في معنىٰ قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾، أنه يخشىٰ النّاس أن يقولوا: كيف يحرّمُ عَلينا أَزواجَ البنين وهو مع ذٰلك يتزوّج زوجَ ابنِه؟ فلأجل هٰذه الأقوالِ كانت خشيته ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ علىٰ النّاس؛ إذْ ليس منها واحدةٌ إلاّ وهي تحملُ إلىٰ سِجِّين، فإنّها كلها معارضَةٌ لِقوله تعالىٰ(٣١): ﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقوله تعالى(٣٢): ﴿ مَن يُّطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾.

وقوله تعالىٰ(٣٣): ﴿قُل إن كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ الله فاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ الله﴾.

وقوله تعالىٰ حيث أَقسمَ بذاتِه المُعَظَّمة فقال(٣٤): ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتّىٰ يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْماً﴾.

فمن أَجل هذه الآي وأَمثالِها خشِـي رسولُ الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم

(٢٧) الإسراء: ٦١/١٧
(٢٨) الحجر: ٣٣/١٥
(٢٩) ص: ٧٦/٣٨
(٣٠) الإسراء: ٦٢/١٧
(٣١) الحشر: ٧/٥٩
(٣٢) النساء: ٨٠/٤
(٣٣) آل عمران: ٣ /٣١
(٣٤) النساء: ٦٥/٤

ـ أن يقـع فيه النّاس، وقد وقعوا فيما ذكرناه وفيما هو أشدُّ منه.

قـال تعالىٰ[٣٥]: ﴿فَلَمَّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الوَطَرُ هنا: النِّكاح.

واعلَمْ ـ رحمك الله ـ أنّ في هذه الآية فوائد جَمّة منها أنّ الله تعالىٰ جَعل فيها لزيدٍ صِيْتاً وشَرفاً خصَّه بـه عـن جُملةِ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وذٰلك أنّه لم يذكُر في الكتـاب منهم أحَداً باسمِـه العَلَم إلا زيداً، وسَببُ ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ النبيَّ ـ صلّىٰ الله عَليه وسلَّم ـ كان قد تبنّاه قبل ذلك، فكان يُدعىٰ بابنِ رسُول الله حتىٰ نَزَل عليه[٣٦]: ﴿ادْعُوْهُمْ لآبائِهم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله﴾.

فَسُمّي بعد ذٰلك زيـدَ بْنَ حارِثَة، فعوّضه الله تعالىٰ بأنْ سَمّاه في كتابه باسمِه العلَم.

وهذه القَولةُ ليسـت لي ولا يبلغُ نظري إلىٰ هـذا القدر، وإنّما ذكرها الإمام أبو بكر بـن العربي[٣٧] في بعض تواليفه، ولا أعلم هل هي له أو لغيره[٣٨]، ولأنَّ مَنْ غاصَ عَلَيْهَا لَغوَّاصٌ من باب الإشارة.

وقد يُحتمل أن تخرج من باب الفِقه، وهو أنْ يكـون تسمية زَيْدٍ بالعَلمِيَّة ليتبين في الآيـة ثبوتُ هٰـذا الحُكم ووقوعُه في أبناءِ التَّبَنِّي، إذْ لو قـال تعالىٰ: فلما قضىٰ بعلها، لم يُعلم مَن البعل من مُقتضىٰ الآية.

ومنها: أَنّ الله تعالىٰ سَنّ لرسوله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ هذه السُّنَّة علىٰ

---

(٣٥) الأحزاب: ٣٣/٣٧

(٣٦) الأحزاب: ٣٣/٥

(٣٧) هـو القاضي أبو بكـر محمد بن الله المعافري الإشبيلي الأندلسـي المعـروف بابن العربي (ولد ٤٦٨، وتوفي ٥٤٣) من أعيان علماء الأندلس، ومن كبـار المصنفين البارعين. ومن كتبـه أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضـة الأحوذي على كتاب التّرمذي. وغيرها.

(٣٨) لم أر هـذا في (أحكام القرآن) ولعله من كتاب آخر.
ونقله القرطبي في تفسيره ١٤/١٩٤ عن أبي القاسم السهيلي (ولد ٥٠٨؛ وتوفي ٥٨١).

رغم أَنفِ المتكبّرين، فمن لامَ بعد هٰذه السُّنَّةِ أحَداً في أن يزوّج مَثلاً بنته لعبده أو يتزوّج امرأةَ عبدِه من بعده فَلْيُفْغَر فوهُ بِفهْرٍ يكسرُ قَواضِمَهُ وخَواضِمَهُ، ويُطرح في أُمِّه الهاوية(٣٩)! إذْ ليس بعدَ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ شارعٌ ولا فوقَ شرفه شَرف.

ومنها: قولُه تعالىٰ لرسوله ـ صَلّىٰ الله عليه وسلم(٤٠) ـ ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾

فأضاف تَعالىٰ تزويجها لنبيّه إلىٰ نفسِه، وما أضاف الله تَعالىٰ لنفسِه شيئاً إلّا وشرَّف ذٰلك الشّيء، كما قال تعالىٰ(٤١): ﴿روحي﴾ و(٤٢) ﴿بيتي﴾ و(٤٣)﴿جنتي﴾، و(٤٤) ﴿عذابي﴾، و(٤٥) ﴿ناقة الله﴾، و(٤٦) ﴿نار الله﴾، والكلُّ مخلوقٌ ومربوب، ولكنّ الله اختصَّ بالشَّرف الإضافي هذه المخلُوقات.

وفي هٰذا التّزويج شرفٌ لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ مِن كون تزويج النّاس أجمع من عِندهم وباختيارِهم واجتهادهم، وهٰذا التزويجُ بأمر الله علىٰ الخُصوص، واختياره وإكرامِه لنبيّه ـ عَليه السَّلام ـ.

ومنها: تشريفٌ لزينبَ زوجه، وذٰلك أنّ الله تعالىٰ ما اخْتَارها لنبيّه ـ عليه السلام ـ حتىٰ علم حَصانتها ودِينها وورَعها وحفظَ أَدبها لِمُرَاعاة خُلطةِ سيّد المُرسلين. ولها أيضاً علىٰ سائر نسائِه في هٰذا التّزويج مزيّة، وإن كُنّ كلّهن

---

(٣٩) الفِهْرُ: الحجر يملأ الكفّ. والقواضم: الأسنان؛ مأخوذ من القَضْم، وهو أَخْذُ الشيء وأَكْلُه بأطراف الأسنان. والخواضم: الأضراس؛ مأخوذ من الخَضم، وهو أخْذُ الشيء وأَكْلُه بأقصىٰ الأضراس. وأمّه: أي أمّ رأسه، وهي الدّماغ، أو الجِلْدَة الرّقيقة التي عليها. والهاوية: جهنّم.

(٤٠) الأحزاب: ٣٣/٣٧

(٤١) الحجر: ١٥/٢٩

(٤٢) البقرة: ٢/١٢٥

(٤٣) الفجر: ٨٩/٣٠

(٤٤) الأعراف: ٧/١٥٦

(٤٥) الشمس: ٩١/١٣

(٤٦) الهمزة: ١٠٤/٦

مُطَهّرات مَحْفُوظات. وقد ذكـرت هي ذٰلك لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ فقالـت لـه: يا رسُول الله أما إنّي لأُدِلُّ علَيك بثلاثٍ لا يدلّ بها عليك واحدةٌ من نسائك.

فقال لها: وما هي؟

فقالت: **إحداها**: أنّي أقربُ إليكَ نَسباً من جميعِ نسائك، لأنّ جَدّي وجدّك واحد؛

والثانية: أنْ الله تعالىٰ زَوَّجني إيّاك؛

والثالثة: أنَّ كان السّفير بيني وبينك جِبريل ـ عليه السَّلام ـ.

فيا لهـا من حُرَّة! فلَقد فَخرت وصَدقت، مع أنهـا أغفلت رابعاً يؤكّد ثبوتَ هٰذه الثلاثة وهو: كونُ قِصَّتها مُسَطَّرةً في قُرآنٍ يُتلىٰ إلىٰ الأبد.

إذ لو كانت من خَبرِ الواحد لاخْتَلَجَتْهَا الظُّنون.

ثم قـال تعالىٰ(٤٧): ﴿لِكَيْلَا يَكُوْنَ عَلَىٰ المُؤمِنِيْنَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعيائِهِمْ إذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُوْلاً﴾.

عَلّل الله ـ عَزَّ وجل ـ هذا التزويـج ليعلم النَّـاسُ أنّ من تَبَنَّى أحداً ثمّ تزوَّج امرأتَهُ مِن بعـدهِ فلا حَرجَ عَليه، فإنَّ مَن تَبَنَّاه ليسَ كابنِه الّذي لِصُلْبِه.

قـال تعالىٰ في تحـريم أزواجِ الأبناءِ للصُّلب(٤٨): ﴿وَحَلاَئِلِ أَبْنَائِكِمُ الَّذِيْنَ من أصلابكم﴾ وقال(٤٩): ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾. فرفَع الله الحرجَ بهـاتين الآيتين في التبَنيّ، ثـم قـال تعالى ﴿وكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُوْلاً﴾.

(٤٧) الأحزاب: ٣٣/٣٧
(٤٨) النساء ٤/٢٣
(٤٩) الأحزاب : ٣٣/٤

الأمرُ هنا يحتملُ الحقيقةَ والمَجاز، فإنْ كان الله أمَرَهُ بتزويجها فيكون وكأنّ المأمور به مَفْعولاً: أي واقعاً في معلوم الله تعالى، ويسمى المأمورُ به أمر المناسبة بين الآمر والمأمور، فإنّ الأمر من الله تعالى يستحيل أنْ يكون مفعولاً لكونه يرجِعُ لكلامه الأزليّ، وإنْ كان أمر بمعنىٰ المُراد على سبيل المجاز، فيكون وكأن ما أخبرك الله تعالى به من المُراد واقعاً؛ إذ ما أراد الله تعالى وقوعه فلا بدّ من وقوعه. فتأمَّلْ ـ رحمكَ الله ـ هٰذه القصّة العجيبة فإنّها تتضَمَّنُ خمس عَشْرَة فائدة، **منها في جانب الرَّسول ـ عليه السلام ـ ستّة:**

إحداها: المُعجزة في إخباره بالغُيوب فوقَعتْ كما أخبر عنها.

الثانية: تواضُعه ـ عليه السلام ـ أَنْ زوَّج كريمَتُه بعبده.

الثّالثة: انقياده لأمر الله في تزويجها بعبده.

الرابعة: إثباتُ هٰذا التَّزويج سنة.

الخامسة: قمع المتكبّرين وإرغام أُنوفهم في هذه السُّنّة.

السّادسة: في الردّ على مَنْ قال بتحسين العَقل وتقبيحه.

والتي من جانب زَيد أربع:

إحداها: بشارة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ له بسلامة عاقبته.

الثّانية: موتُه شهيداً بين الصَّفيّن.

الثالثة: ما أخبر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنّه في الجنة.

الرّابعة: تسميته في الكتاب بالعَلَمِيَّةِ على الخُصوص.

والّتي في حَقّ زينبَ(٥٠) ـ رضي الله عنها ـ خَمس:

(٥٠) قال الشعبي: كانت زينب رضي الله عنها تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إنّي لأُدِلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأةٌ تدل بهنّ =

إحداها: أنّ الله تَعالىٰ رَضِيَها لِنبيّـه ـ صَلّى الله عَليه وسَلَّم ـ أهلاً.

الثّانية: أَنْ صَيَّرها أُمَّ المُؤمنين.

الثّالثة: أَنْ كانَ خطيبَها جِبريلُ ـ عليه السَّلام ـ.

الرّابعة: أَنْ كان وَلِيَّها رَبُّ العَالَمين.

الخامسة: أنْ كانت قِصَّتُها قرآناً يُتلىٰ.

فهٰذه خمسَ عَشْر فائدة صَحّت في هٰـذه القصة، شاملة لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ولأمتـه، سوىٰ ما أغفله الخاطر.

والجهَلةُ يَخْبِطُون عَشواء الدُّجـون[٥١].

فهٰذا ما مَنَّ الله تعالىٰ به من ثَمراتِ النَّظر في هٰذه القِصص الأَرْبَع في حَقِّ السَّادةِ القادة ـ صَلواتُ الله عليهم.

ونسأل الله تَعالىٰ ـ مع هٰذا التحفُّظ علىٰ مَناصِبهم السَّنية ومناقبهم الرَّضِيّة ـ العَفْوَ عَمّا وقع فيها من الخَطأ والخَطل بحوله وطَوْله[٥٢].

= ـ أنَّ جدّي وجدّك واحد؛
ـ وأَنَّ الله أنكحك إياي من السماء
ـ وأَنَّ السفير في ذلك جبريل.

(٥١) العشواء: النّاقـة التي لا تبصر أمامها ليلاً. والدُّجُـون: جمع الدُّجُنَة، وهي الظُّلْمَة؛ ومن أمثـال العرب السّائرة: هو يخبط خبط عشواء، يُقـال للّذي يركب رأسَهُ ولا يهتمّ لعاقبته.

(٥٢) الطَّوْل: المَنُّ.

فصـل

ولنـذكر الآن ما وقَع من بعض قِصص الأنـبياء ـ عليهـمُ السَّلام ـ في القُرآن، وهي القصص التي اعترَضهـا أهلُ الزّيغ والإلحـاد في أَقـوال الأَنبـياء ـ عليهم السَّلام ـ وأَفعـالهم، بما مَنّ الله بِهِ، والله المُستعـان.

وقـد كنّا نرتّـب الكلام فيها علىٰ ترتـيب الزَّمـان، فنـبدأ بقـصة آدم ـ عليه السّلام ـ ونخـتم بقصّة نبينّا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنّا قدَّمنـا هذه القصص لتأكيد اعتراض السَّفلَة عليهَا وشناعة طبعهـم فيها كما تقدَّم.

فنـذكر قصـة آدم ـ عليه السّلام ـ في أكـله من الشَّجـرة المنهـيّ عنها.

وقصّة نُوح ـ عليه السلام ـ في قوله[١]: ﴿إِنَّ ابْنِيْ مِنْ أَهْلِي﴾، وفي دعائه على قومـه.

وقـصة إبـراهيم ـ عليه السَّلام ـ في الثَّلاثة الأقـوال التي عـدّهـا[٢] هـو كـذبات، وفي الثـلاثة الكواكـب والأَنـوار، وقصّته ـ عليه السلام ـ في قـوله[٣]: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِيْ المَوْتَىٰ﴾.

وقـصة عُزَير ـ عـليه السّلام ـ في قـوله[٤]: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَـا﴾.

وقصّة أَيُّوب ـ عَلَيْه السَّلام ـ في مِحْنَتِه.

وقصّة يُونـس ـ عليه السَّلام ـ ومُغاضَبتهِ لقومِه وفـراره منهـم، ولومـه، وتَوْبتـه، وقـبول توبـته.

(١) هـود: ١١/٤٥
(٢) في الأصل المخـطوط: عددها.
(٣) البقرة: ٢/٢٦٠
(٤) البقرة: ٢/٢٥٩

وقصّة موسىٰ ـ عليـه السّلام ـ في قـتل الكـافر.

ثـم نختم هذه القـصص بقـصة مـريم عليها السّلام ـ في هَزّهـا الجِذع، وغَلِط مَنْ حَطّ من مَقامِهـا من الجـمع إلىٰ الفرق في ذلك الوقت إن شـاء الله تعـالى.

وكـذلك قصّة إخـوة يُوسف ـ عليه السَّلام ـ والرَّد علىٰ مَن اعْتَرض عَلينا فقـال: إنّهـم عندما واقعُوا ما وَاقَعُوا مع أخـيهم وأبيهـم كانوا أنـبياء، والله المُستعـان.

شرح قصة آدم(*)
عليه السلام

في أكله من الشّجرة بَعْدَما نُهِيَ عَنها.

اختلف النَّاس في هٰذه القصّة اختلافاً لا يكاد ينضبط. وذلك لأنّ الله تعالى ما نصّ علىٰ معصيةٍ لنبيٍّ إلا لآدم ـ عليه السّلام ـ خُصوصاً. فلمّا كان ذلك وجَد أهلُ الدّعاوىٰ وأَهْلُ الحَيرة مع ما دَهاهُم من عَدم التّحقيق وكَيد الوَسواس سبيلاً إلىٰ الإخلالِ بحقّه ـ عليه السَّلام ـ حتىٰ سَطّروا في الضَّبائر(١) وأَفْصَحُوا على المَنابر بأَنْ قالوا: إذا كانَ رأسُ الدَّنِّ دُرْدِيّاً(٢) فما ظَنُّكَ بِقَعْرِه!

وهٰذه وصمةٌ تَجُرُّ إلىٰ تنقيصه وتنقيص مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الأَنبياء ـ عليهمُ السَّلام ـ وهو مقصودهم في ذلك، وشَرَحُوا قوله تعالىٰ(٣): ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أنهما لَمّا عَصيا سَلَبَ الله عنهما أنوار الرُّبوبيّة الرَّوْحانِيّة التي كانت فاضَت علَيهما منه تعالى عمّا يصفون. فظَهَر لَهُما الجِسمَ التُّرابيّ المجبُول على المَعصية، فعلما إِذْ ذاك أَنّه منه أُتِيَ عَلَيهما. فأَوْجَبُوا المَعاصي للأجسام التُّرابية. وأَنبياءُ الله تعالىٰ كلّهم أَجسامٌ ترابيّة، وهي ظاهرةٌ لهم.

وهذا أقَلّ ما نَسَبُوه لآدم ـ عَلَيْه السَّلام ـ.

(*) شرح قصّة آدم عليه السّلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٩، وعرائس المجالس: ٣٠، وابن كثير ١: ٥٠، وتفسير الطبريّ ١: ١٨١، وتاريخ الطبري ١: ١٠٦، وتفسير القرطبيّ ١: ٢٩٨ ـ ٣٢٣.

(١) الضّبائر جمع الضّبيرة، على وزن فعيلة، والمشهور في ذلك: الإضبارة، وهي الحزمة من الصُّحُف.

(٢) الدُّرديّ عكر الزّيت؛ ويكون ـ لثقله ـ في قعر الدَّنّ أو الظَّرف.

(٣) الأعراف: ٧/٢٢

فصـل

وأوَّلُ ما يَنبغي أن نقدّم أنّ آدم ـ عـليه السَّلام ـ لم يـكن عندما أكـل من الشّجـرة نبيّاً، والعِصمـةُ لا تُشترط للنبيّ إلا بعد ثُـبوت النبوّة لـه. فـمن النّـاس من ذكر الإجـماع علىٰ أنّـه لم يكنْ نبيّاً عندما أكـل من الشجـرة، ومنهـم من اكتـفى بظاهـر قوله تعـالىٰ(٤): ﴿ثُمّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وهـذا عطفٌ بـ (ثـم)، التي تُعـطي المُهـلة. ثم ذكر الاجتـباءوالهِـداية.

والاجتبـاء هنـا: النُّبـوّة: بـدليل قـوله تعـالى في سـورة مـريم: عليهـا السلام، عندما عَدّد الأنـبياء، عليهـم السلام، ومناقـبهم علىٰ التّفصيل، قـال(٥): ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ يعـني من النَّبيّين أجـمعهم.

وقـال في قـصة يُونـس ـ علَيه السَّلام ـ بعد قـصة الحـوت(٦): ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ وهـذا وجـهٌ من الوُجـوه يُثـبت أكـله من الشجـرة قـبل نبوته.

فصـل

والـذي يـنبغي أن يُعَوَّل عليه في قـصة آدم، عـليه السَّلام، أنّ نهـيه عن الشجـرة كان نهـيَ إرشادٍ وإعـلام على جهـة الوصيّة والنَّصِيحـة لا عـلىٰ جهـة التَّكـليف؛ فإنّـه ما صَحّ تكليفُه في الجَنّـة ولا نُبُوّتُـه لا في كتـابٍ ولا سنـة. والأوامـر والنّواهـي تنقـسم إلى مشـروعٍ وغـير مشـروع، كالأوامـر اللُّغوية، فإن السَّيِّد قـد يقـول لعبده والأخ لأخـيه والصّاحـب لصاحـبه علىٰ جهـة الإعـلام والإرشـاد والنَّصيـحة: افعَلْ كذَا، واتْرُك كـذا تَسْلَمْ من كـذا وتَظْفَرْ بـكذا. وكـذلك أوامـر الأطـباء للعـليل بالحِمْيَةِ والدّواء والغـذاء إلىٰ غير ذٰلك.

---

(٤) طه ١٢٢/٢٠
(٥) مريـم ٥٨/١٩
(٦) القـلم ٥٠/٦٨

فكان أمر الله تعالى لآدم عليه السلام بِسُكنىٰ الجنان والأكل الرغد ونفوذ المشيئة من باب الإعلام والتّأنيس بالبِشارات بأنه لا يجوعُ فيها ولا يَعْرَىٰ ولا يظمأ ولا يَضْحَىٰ. وكان نهيه له علىٰ جهة الإرشاد المتقدّم ذكره، أو التّحذير ممّا تؤول إليه عُقباه إن فعل ما نُهِي عن فعله في خُروجه عن الجنّة وشقائه في الدّنيا، والإعلام بمكيدة الشيطان، والتحفظ منه، وكونه عدواً حاسداً له.

وهذا معلومٌ في اللّسان. وما جَرت به العادات. وقد أَمَر الله تعالى إبليسَ بقوله[٧]: ﴿واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وشَارِكْهُمْ في الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ فهذه أوامرُ علىٰ جهة الوعيد له والتّهديد، كقوله تعالى للكفَرة[٨]: ﴿ اعْمَلوا ما شِئْتُمْ﴾ وليست بتكليفٍ، إذْ لو كانت على جهة التّكليف بفعلها لكان وقوعُها منه طاعة، وهو عاصٍ في هٰذه الأفعالِ إجماعاً.

وقد أَمرَ الله موسى عليه السّلام بأخْذِ الحَيّةِ ونَهاهُ عن الخَوف منها حيث قال له[٩]: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ والخوفُ أمرٌ ضروريّ فلا يقع الأمر به جَزْماً. فكان الأمر له علىٰ جهة التّأنيس والإعلام بأنّها لا تُؤذيه إذا أخذها. وكان مكلّفاً إذ ذاك ولم يكن ذلك الأمر والنّهي له مشروعَيْن. وكذلك قوله تعالىٰ[١٠]: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوْءٍ﴾ وقوله تعالىٰ لأمّ موسىٰ[١١]: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فأَلْقِيْهِ فِي اليَمِّ وَلَا تَخَافِيْ وَلَا تَحْزَنِي﴾.

---

(٧) الإسراء: ١٧/٦٤
(٨) فصّلت: ٤١/٤٠
(٩) طه: ٢٠/٢١
(١٠) القصص: ٢٨/٣٢.
(١١) القصص: ٢٨/٧

وكـذلك قـوله عـليه السَّلام في الصّحيح إذْ رأى رجـلاً يقطعه الآل(١٢) فقـال: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَة» فـإذا هو أَبُو خَيثمـة. فهـذا أمرٌ علىٰ وجـهِ الخَبَر، كأنّـه يـقول: هـذا أبو خـيثمة، إلى غير ذلك.

ويـكفيك أنّ الآخـرة ليست بـدار تـكليف وفيها أوامرُ ونَواهٍ مـثل قـوله تعـالىٰ للمؤمنـين على جهـة البشارة(١٣): ﴿ادْخُلُوا الجَنَّـةَ أَنْتُـمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، وقـوله تعـالى(١٤): ﴿ادْخُـلوْهَا بِسَلام آمِنِيْنَ﴾، وقـوله تعـالى للكـافرين على جهـة الإغـلاظ والتّرويع(١٥): ﴿فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّـمَ خَـالِدِينَ فيها فَبِئْسَ مَثْوَىٰ المُتَكَبِّرِيْنَ﴾، وقـوله تعـالى(١٦): ﴿اخْسَؤُوا فِيهـا وَلاَ تُكَلِّمُوْنِ﴾ عـلى جهـة التَّحـقير والخِزْي والطَّرد. وقـوله تعـالىٰ علىٰ جهـة التَّصَيُّر لأصحـاب السَّبت(١٧): ﴿كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾، وقـوله تعـالىٰ علىٰ جهـة

(١٢) انظر خَبَرَ الحـديث في سيرة ابن هـشام ٢: ٥٢١
(١٣) الزخـرف: ٧٠/٤٣
(١٤) الحـجر ٤٦/١٥
(١٥) النحـل ٢٩/١٦
(١٦) المؤمنون ١٠٨/٢٣
(١٧) البقـرة ٦٥/٢
ـ وهـم الـذين اعتدوا في السَّبت.
ـ وقـول المؤلف رحـمه الله: «عـلى جهـة التَصَيُّر» يـشير إلى مسخ المُخـالِفين قـردةً خـاسئين. وتـمام الآيـة الكريمة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الّذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُم في السَّبتِ فَقُـلنا لهـم كُونُوا قِرَدَةً خَـاسِئِيْنَ﴾ أي انتـقلوا من حـال البشرية الإنسـانية إلى حـال الحيوانيـة عقوبة ونكـالاً. وفي سـورة الأعـراف ﴿واسألهـم عن القرية التي كـانت حـاضرة البحـر إذْ يَعْدُون في السَّبتِ إذ تأتيهـم حيتانُهُـم يوم سـبتهـمْ شُرعاً ويَوْمَ لا يسبتون لا تأتيهـم كـذلك نبلوهـم بما كانوا يفسقون. وإذ قـالت أمّـة منهم لِمَ تَعِظُونَ قـوماً الله مُهْلِكُهُـمْ أو معذّبهـم عذاباً شديداً قـالوا معذرةً إلى ربـكم ولعلهـم يتّـقون﴾ الآيتـان ١٦٣ ـ ١٦٤.
أي واسأل اليهـود جـيرانك عن أخـبار أسلافهـم، وما مسخ الله منهـم قردة وخنـازير. وهـذا سؤال تقـرير وتوبيخ. وفيه دلالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ونبوّتـه. أي سَـلهم يـا محـمد عن القرية أما عذّبتهـم بذنوبهـم؟ وذلك بتغيير فرع من فـروع الشريعة؟ وكـان اليهـود يكتـمون هذه القصّة لما فيهـا من السبّة عليهـم. =

التَّعجيز(١٨): ﴿كُوْنُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيْداً﴾. إلى غير ذلك من أَنْواع الأَوامر والنَّواهي.

وإذا كان هٰذا هٰذا، فمن أين لقائلٍ أن يقول: إن نَهي آدم عليه السلام كان علىٰ جهة الحَظْر أو الكَراهة؟. فإن احتجُّوا بقوله تعالىٰ(١٩) إنّه: عصى وغوى وظلم نفسه.

قُلنا: إذا لم يثبت تكليفُه في الجنة فتخرج هذه الألفاظ على مُقتضىٰ اللُّغة؛ فإنّ المعصيةَ في اللّسان عدمُ الامتِثال: كانت مقصودة أو غير مقصودة. وظُلم النفس: غبنها وبَخسها في مَنافعها، لكونه وضع الفِعل في غير موضعه. وكذٰلك غَوى: أَدْخَل علىٰ نَفْسِه الضَّرر، يقال: غوىٰ الفَصِيلُ: إذا رضع فوق حَدّه من اللبن فَبَشِم، فعلىٰ هذه الوجوه تُخَرّج هذه الألفاظ.

فإن قيل: إذا خَرَّجتم هذه الألفاظ علىٰ هٰذه الوجوه فما قولكُم في

= وكانت قرية إلى جانب البحر. وقد خالف فريق من أهلها واعتدوا في السبت، واصطادوا ـ وقد نهوا عن الصّيد في ذلك اليوم ـ ولقوا جزاءهم. وكان الفريق الآخر من أهلها ممّن لم يخالفوا شهوداً على ما جرى لهم.
ـ ومعنى خاسئين: مُبعدين.

(١٨) الإسراء: ١٧/٥٠، والخطاب للمشركين، وسياق الآية مع ما قبلها: ﴿وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورُفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً. قل كونوا حجارةً أو حديداً. أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أوّل مرّة فسيُنغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾.
والمعنى: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم. وقيل: لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم. وقيل: لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم. وقيل: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون.

(١٩) في سورة طه: ٢٠/١٢١ ﴿وَعَصَىٰ آدم ربه فغوى﴾.
وفي سورة الأعراف: ٧/٢٣ في خبر آدم وحواء ﴿قالا رَبَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾.

قـوله تعـالى[٢٠]: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَـا فَأَخرَجَهُـمَا﴾ وفي قـوله[٢١]: ﴿فَدَلّاهُمَا بِغُرُوْرٍ﴾ إلى غير ذلـك. فنقـول: تخـرج هـذه الألفـاظ أيضاً علىٰ جهـة قـصد الشَّيطان، والتّعـريض بالوسوسة إليه لا عـلى قـصد القَبُول من آدم عَلَيه السَّلام لِوَسْوَسَتِهِ وَخِدَعِه. فإنّ الشَّيطان قد يُوسوس إلى الأنـبياء ولكنْ لا يقـبلون منه. قـال تعـالىٰ لنبيّنـا عليه الصلاة والسـلام[٢٢]: ﴿وَإِمَّـا يَنْزَغَنَكَ من الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بِالله﴾، وقـال له[٢٣]: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِيْن. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْن﴾.

وسنحيلُ ذٰلك فيمـا بعد إن شـاء الله تعـالى.

وجـملة الأمـر أنه إذا لم يثبت تـكليفٌ لم يثبت إيجـابٌ ولا حَـظر ولا طاعـة ولا معصـية يقـع فيها ذمٌّ شرعيّ ولا مدحُ ولا ثوابٌ ولا عِقَـاب. وهـذا ما أجْمَع عليه أهْلُ السُّنّـة.

فصـل

فـإن قـيل: فـإذا كـان ذلك كما زعمتـم، فـما المُختـار عند أهـل الحـقّ في هذه القـصة، وما مُعتقدهـم فيها، وكـيف التخـلُّص منها؟

فنقـول: التخـلُّص منها عند أهـل الحـقّ إن شـاء الله: أن الله تعـالى نهـاهُ عـلىٰ جهـة الإرشـاد والإعـلام والنَّصيحـة لا عـلىٰ نهـي التكـليف. ووسوسَ إليـه الشَّيطانُ على جهـة الإغـواء والحَسَد والمَكْـر فلم يَقْبَل منه. ثم

(٢٠) البقـرة: ٣٦/٢
(٢١) الأعراف ٢٢/٧.
(٢٢) الأعـراف ٢٠٠/٧
(٢٣) المؤمنـون ٩٧/٢٣ ـ ٩٨

أنساه الله تعالى بعد ذلك إرشاده إياه ووصيّته له، ووسوسة الشيطان إليه، فأكل منها غافلاً عن الوصية والوسوسة.

وإذا كان ذلك لم يُبَلْ هل كان عند ذلك نبيّاً أو لم يكنْ نبياً؛ فإن النّاسي لا طَلَب عليه في الشّرع ولا ذمَّ، بالإجماع. والدّليلُ على أنّه نسي قوله تعالى[٢٤]: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ من قبلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ يعني: عَهِدنا إليه في أمر الشجرة فنسيَ العهدَ فأكلَ منها من غير عزم على أكلها [ولا] متعمّداً لاطّراح الوصية والنّهي، أو نسي المراقبةَ لِتلك الوصيّة، ولم نجد له عزماً على المراقبة؛ فألقي عليه النسيانَ بتركه المراقبةَ، فأكل منها. ولا يصحّ في حقّه عليه السّلام مع شهادة القَرائن وعِظَم المكانة غير هٰذين الوَجْهين. مع أنّ العزْمَ في اللّسان هو: الإرادة التي يقع معها الفِعل، وقد نهاه تعالىٰ عنه، فلم يبق إلا أنّه أكل ناسياً من غير عزم.

فإن قيل: وما دليلكُم على أنّ العَهْدَ المنسيَّ إنما كان في أمر الشّجرة، والعُهود كثيرة كعهده له في حَمل الأمانة وغيرها؟

فنقول: دليلُنا علىٰ ذلك أنه لو قصد ارتكاب نهي الله تعالىٰ وترك نصيحته له مراعاةً لمكيدة الشيطان ومكرِهِ به وقبوله منه فأكل منها متعمّداً لصحّة قول اللّعين، تاركاً لوصية الله ونهيه، متعمّداً لتركهما لكان مُتَّهماً لخبره تعالىٰ مفنّداً لحكمه، مُرتكباً لنهيه، وهذه كانت فعلة الشّيطان عند امتناعه من السُّجود حَذْوَكَ النَّعل بالنّعل، وبها حُكِمَ بِكُفره.

فمن اعتقد هذا في حَقّه عليه السّلام فقد رماه بِرجام الكُفر، والإبتراك[٢٥] في أوضار الجهل، ودَحض المزلّات[٢٦]. فأما ما كان يَبْترك

(٢٤) طه: ٢٠/١١٥

(٢٥) يقال: ابْتَرَك أي أسرع في العَدْو وَجَدَّ؛ وابترك الرجل في عِرض أخيه يقصّبه: إذا اجتهد في ذمّه.

(٢٦) الأوضار: الأوساخ.

=

فيه من الجَهالات: ففي تقليده عدوّه الشّيطان، وقبول قوله من غير دليل في أنّها شجرة الخُلد التي توجب المُلك الدّائم والحياةَ الدّائمة. وهذا هو القول بالطّبع فإنه لا يخلُو أن تفعل الشّجرة ذلك باختيارها أو تُوجبه بنفسه، ومحال أن تفعل باختيارها فإنّها جماد، ولو قُدرت حيّاً لم يصحّ فعلُها في غيرها، فإن القدرة الحادثة لا تتعلّق بما خرج عن محلها، فلم يَبْقَ إلا الطّبع؛ والقول به كفر. فمن قال إنّه أكلها قاصداً لِمَا ذكرناه، أُلزم اعتقادَ وُقوع هٰذه الجَهالات كُلّها من آدم عليه السلام وهي لا تجوزُ عليه؛ فإنّها تؤدّي إلى الكُفر الصُّراح.

ومعلومٌ من دين الأُمّة أنّه ما كفَر نبيٌّ قطّ، ولا جَهِلَ الله تعالىٰ، ولا سَجَدَ لِوَثن، ولا أَخبر تعالىٰ عن واحدٍ منهم بالكُفر، ولا بما دون الكُفر من المعاصي قبل النبوة وبعدها؛ سوى قصة آدم عليه السَّلام، فمَنْ قال بِسوىٰ هذا فعليه الدَّليل، ولا دليل!

فإن قيل: ولعلّه كان يعتقد أنّ إبليس أُعلم أنه من أَكل منها يَخْلُد في الجنّة بإرادة الله تعالىٰ لا بالطبع والإيجاب.

قلنا: باطل، فإن الله تعالىٰ أعلمه قبل ذلك بنقيض قول الشّيطان في أن الأَكل منها سبب الخروج، فلو اعتقد الخُلود فيها إذا أكل من الشَّجرة بقولِ الشَّيطان لكان مكذِّباً للخبر السابق من الله تعالى، وهو الذي فَرَغْنا من استحالته عليه. فلم يبقَ إلاّ أنه أكل منها ناسياً فإنّه إذا لم يصحّ العمد لم يَبق إلا النِّسيان. علىٰ أنّا لو قدّرنا وقوع هٰذه القبائح من أدنىٰ عاقل مؤمن من البُلْهِ مِنّا لم يصح، فكيف يصحّ ممن خلقه الله تعالى بيده، وأسْجَد له ملائكته، وجعَله قبلةً لهم، وعلّمه الأَسماء كُلّها، وجعلَه معلّماً

= ـ والدحض: الزَّلق. وفي حديث أبي ذرّ (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض.

لهم، كلّمه بلا تَرْجُمان على جهة الإكرام والإعلام والنّصيحة. جاء في الصّحيح عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال(٢٧): آدم نبيّ مكلم؛ يعني بغير واسطة، إذْ من الأنبياء غيرُ مكلّمين، قال الله تعالى(٢٨): ﴿مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾، فكيف يكون آدمُ عليه السّلام مكلّماً على هٰذه الوجوه كما تقدم، ثم يقعُ في مثل هذه الجَهالات قاصداً متعمّداً، حاشى وكلا! فيا لله لما يرتكبه الجاهلُ من نفسه، من حيث لا يشْعُر!

فخرج من مجموع ما ذكرناه، أنّه أكل منها ناسياً، وعُوتب على نسيانه الوصيّة، إذ لو كان مُراقباً لم ينسها على مَجرى العادة، فهذا هو الحقُّ الذي يُرغب فيه ولا يُرغب عنه. ولا يصحّ أن يُعتقد في حقّه، ولا في حق نُظَرائه من النَّبيين والمُرسلين سوى ما ذكرناه، أو ما يُضاهيه من الشُّروح التي لا تُخِلّ بقدره، ولا تغضّ من جاهه واجتبائه واصطفائه كما أخبر تعالى عنه.

فإن قيل: ولعلّه أكل منها غير قابلٍ لمكيدةِ الشَّيطان، ولا رادٍّ لوصيّة ربه وإرشاده إياه، أو ناسياً لمكيدة الشّيطان عالماً بوصيّة ربه، لكن لشهوةٍ غلَبت علَيه، حتى هانَ عليه الخُروج من الجَنّة، لتحصيل تلك الشّهوة.

قلنا هذا لا يصحُّ في حَقّه عليه السّلام، لأنه مُؤذن بضعف عقل فاعله وشدّة شَرهه وسُوء رأيه، وقلّة علمه والتقحُّم على خَسيسِ الشّهوة

(٢٧) قال في الجامع لأحكام القرآن:
المكلّم موسى عليه السلام؛ وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبيٌّ مرسل هو؟ فقال: نعم نبيٌّ مكلّم. قال ابن عطيّة: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنّة. فعلى هذا تبقى خاصية موسى.
- و: «من كَلَّمَ» أي: من كلّمه الله.
(٢٨) البقرة: ٢٥٣/٢

رضىً بالنّقمة. وليست هٰذه أخلاقه ولا شيمته، بل كانَ رأس العقلاء، ورئيس الحكماء، ومعلّم الملائكة، ولو حُكِيَ هذا عن عاقل من لفيف الناس لاستبعد في حقه، فكيف في حقّ مَنْ كَلّمه الله بلا تَرْجُمان على جهة الإكرام؟ فلم يبقَ إلا أن النّسيان الذي أخبر الله عنه، وعَدمُ العَزم، إنّما كان في أمرِ أكل الشّجرة لا غير.

فهذا هذا، ولم يبقَ بعد الخُروج عن هذه الإلزامات، في أنه أكَل منها ناسياً مَطْعَنٌ لطاعن. والله أعلم.

ولْتَعلموا أرشدنا الله وإياكم، أنّ هذه النّكتة الغريبة في أمر النّسيان، الذي خلّص هذه القصة من التخيُّلات الفاسدة، والآراء المُضطربة، قد تقدّم إليها غيرُ واحد من العلماء وذكرها، لا سيما مشايخ الصُّوفية، فإنّهم على هٰذه القولة عَوَّلوا لكنهم لم يتخلّصوا منها كل التخلّص بل نَزَّهُوه عنها تَنزيهاً جُملياً غير مفصّل بمثل هذا التفصيل.

ولقد تحيّرت في إثبات هذا التخلص، على هذا الوجه منذ سنين لمعارضة هذا النسيان، بذكر المعصية والغواية والظُّلم، حتى تذاكرت يوماً فيها مع الفَقيه العالم المتفنّن أبي العباس أحمد بن محمّد اللّخمي[٢٩] أدام الله كرامته، فكان منه في درج المذكّرة ما يليقُ بمثله من التّنبيه فيها على بعض نكتٍ نادرة مؤيّدة بالتّوفيق الرباني، فثلج بها الصّدر إذ لا يصح سواها كما قدمناه.

وأخبرني مع ذلك أنه أتعبه النّظر في حَلّ مُشكلاتها مدة طويلة، حتى فُتِحَ عليه، فشارك بحمد الله وأعانَ على ما كان تعذّر منها، بارك الله له فيما

---

(٢٩) أبو العباس أحمد بن محمد اللّخمي: أرجّح أنّه من علماء الأندلس، ولم يتعيَّن لديّ؛ فقد وجدتُ في كتاب الذّيل والتكملة لابن عبد الملك نحو عشرة ممّن يكنون بأبي العبّاس ويتَسَمَّوْن بأحمد بن محمّد اللّخمي، ولا مُرَجِّحَ أو دلالة على المقصود فيهم.

منَحه، وبارك لنافي حياته وبقائه وصحّة مُعاملته ومعونته. فانظرْ أيُّها اللّبيب الفَطِن إليها، نَظر المُتَناصف ولا تعدل عن هذا الشَّرح إلى سواه، لئلا يُفتح عليك بابٌ من الفساد ولا يمكنك سدّه؛ فإنه إذا جُوِّزَتْ عليه المعصيةُ المَنْهِيُّ عنها شَرعاًجازَت على من بعده من الأَنبياء عليهم السّلام. وإذا لم تَجُز عليه فأحرى ألاَّ تَجُوز على مَنْ بَعْدَه مِنهم، لكونهم لم يُذكر لواحدٍ منهم معصيةٌ في الكتاب ولا في السُّنّة ضِمناً ولا تَصريحاً؛ ولا يجوزُ وقُوعها عليهم كما قَدَّمناه.

ثم إنّ الله تعالى لَطف بآدم عليه السّلام، في أَكله من الشّجرة بعد النّهي عَنها، من ستة أوجه:

أَحدها: أنّه لما أَسجد له ملائكته على جلالة قدرهم، وصيّره قبلةً لهم ومعلّماً، لطف بقلبه ألا تخطر به لفتة عُجب، فامتحنه بأكل الشجرة، فلمّا أكل منها عُوتب عليها فتواضع.

الثاني: أنه كان مُنبسطاً، فلمّا أَكل منها انقبضَ، فَسَلِمَ من وَهلات البسط لأنّ الله تعالى لا يعامل إلا بالخَوف والقبض.

الثالث: أنه امتُحِنَ التكليف وكدّ المعيشة في الدُّنيا، ليحصل له مقام الصبر.

الرابع: أنّه رُزِقَ من طيبات ثَمراتها ليلتذّ بها، فيشكر نِعَمَ الله تعالى عليه فيَجمع بين الصَّبر والشُّكر.

فإن قيل: فقد كان يتنعّم في الجنة بأكثر مما يتنعّم في الدُّنيا، قلنا: كان يتنعم من غير تعبٍ سابق، ونعيمُه في الدُّنيا ممزوجٌ بالمشقة، والتنعم بعد المشقة يؤكد خالص الشُّكر؛ وأيضاً فإنّه لم يكلَّف في الجنّة كما تقدم، فما كان يؤجر على شُكرٍ لو وقع منه.

الخامس: أنه لما خَرج من دار التنعُّم والدَّعة إلى دار المَشَقَّة

والتّكـليف صحّـت له المُعامَـلة بالكـسب والدَّرجـات بالطاعـة وميزان الجـنّة بالعـمل.

السادس: أن تَحـصَّل له أُجُـور ما يَنتهـكُ بعضُ ذريته من حُـرمة عِرضـه في هذه القصّة، فإنهـم يغتابونَهُ في اقتفـاء ما ليسَ لهـم به عـلم. وكـفى بالمرء عـقوقاً أن ينتهـك عرض أبـيه.

فهـذه، رحـمك الله، ستّة ألـطاف به في ضمن كلّ لـطف منها مقـام كـريم لآدم عـليه السلام كما قيـل[٣٠]:

لعـلَّ عتبـكَ محـمـود عـواقِبُــه فربّمـا صَحّـت الأجـسامُ بالعِلَلِ!

(٣٠) البيت للمتنبّي من قـصيدة في ديوانه (بشرح العكبري): ٣/٨٦.

شرح قصّة نوح(*) عليه السلام

في محاورته مع ابنه الكافر وسؤاله رَبّه في أمره. وكذلك في دُعائه على قومه.

قال تعالى(١): ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ. قال سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَال لا عَاصِمَ اليَوْمَ من أَمْرِ الله إلاّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِيْنَ﴾.

قالوا: كيف يصحّ أن يقول له ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾، فيأبىٰ ويظنّ أنّ الجبال تعصمه من الغرق، مع قول أبيه له ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الكافِرِيْنَ﴾ وفي إبائه أن يركب مع أبيه السّفينة مع عُقوق أبيه والرّد عليه واعتصامه بغير السَّفينة، دليلٌ على إثبات كُفره، إذ لو صدَّق أباه في أنّ النجاةَ في السفينة والهلاكَ في غيرها لم يَقُلْ ذلك.

وفي قوله أيضاً مع اعتقاده أنّ الجبال تعصمُ من الماء، تسفيهُ حلم أبيه، إذْ لو كان الاعتصام بغير السّفينة، لكان الاعتصامُ بالسّفينة سَفَهاً من جهة الضّيق والتّعزير. ونوحٌ عليه السلام أعلمُ النّاس بهذه الوجوه، وهذه القرائن من أحوال ولدِه وأقواله، فإنّها تدلُّ على كفره بتكذيبه إياه وتسفيه حِلمه. وإذا كان هذا فكيف يَسُوغ له عليه السّلام أن يقولَ بعد ذلك(٢) ﴿رَبِّ إنَّ ابْنِيْ مِنْ أَهْلِيْ وإنّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ يعني في سلامة أهلي. وقد

(*) شرح قصة نوح عليه السلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ١٧، وعرائس المجالس: ٥٤، وابن كثير ١: ١٠٤، وتفسير الطبريّ ١٢: ٢٥، وتاريخ الطبريّ ١: ١٧٩، وتفسير الطبّري ٩: ٣٠.

(١) هود: ١١/٤٢ ـ ٤٣.

(٢) هود: ١١/٤٥

قيل له قبل ذلك(٣): ﴿إلاّ من سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ﴾ وأقوالُ ابنهِ وأحوالُه تدلّ علىٰ أنه مِمَّن سَبق عَليه القَوْل. وكذلك قولهُ تعالىٰ له(٤): ﴿وَلاَ تُخاطِبْنِيْ في الَّذِيْنَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُوْنَ﴾ وهو من الذين ظَلَمُوا.

فالجواب: أنَّ نُوحاً عليه السّلام حين ركب السَّفينة وأَدْخَل فيها المؤمنين وأَهله كما أُمِر، رَأىٰ ولده في جهةٍ من خارج السَّفينة وبمقرُبةٍ منها حيث يسْمَعُ النِّداء، ولم يَر امرأته، فيئس من سلامتها، وظَنَّ أنها هي المُستثناة وَحدها وأنّها هي التي سَبَق عليها القول من الله تعالى بختم الكُفر والعَذاب فقط، وطمع في إيمان ولده الذّي كان عهد منه قبل ذلك، وكان ولدُه يُظهر له الإيمانَ ويُبْطِنُ الكُفر. والأنبياء عليهمُ السّلامُ إنما عُنُوا بالظَّواهر والله يتولّى السَّرائر. فلما لمْ يَر امرأته يَئسَ منْ سلامتها. ولمّا رأىٰ ولدَه بمقربةٍ من السّفينة حيث يسمعُ النِّداء طَمِعَ في سلامته وحَسَّن الظَّنَّ أنّه مُؤمن، فقال(٥): ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ يعني في السَّفينة ﴿وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ أي لا تَبْقَ في الأرض فتَهلِكَ مع الكَفَرة. [و] في قوله له: ﴿وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ دليلٌ علىٰ أنّه كان يعتقدُ إيمانه. فلمّا قال له(٦): ﴿سَآوِي إلىٰ جبَلٍ يَعْصِمُنِيْ مِنَ المَاءِ﴾ حَسّن أيضاً بِهِ الظَّنَّ بأنه كان يعتقدُ أنّ ما أخبر به أَبُوه من هلاكِ الكَفَرة صحيح، وأنّ المؤمن يسلمُ بإيمانه، فظنّ هو أنّه يَسْلَمُ في السَّفينة وغيرها فقال له أَبُوه(٧): ﴿لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ يعني من مُراد الله هلاكَ الكفرة. ﴿إلاّ مَنْ رَحِمَ﴾(٧) يَعني من رحمهُ الله فسَلِمَ بإيمانه. ولم يقل: إلاّ من ركب السَّفينة. فاحتملَ القول جوَاز سلامةِ المُؤمن في السّفينة وغيرها، فلم يقع من الولد تكذيبٌ ظاهرٌ لأبيه في هٰذه

---

(٣) هود: ١١/٤٠
(٤) هود: ١١/٣٧
(٥) هود: ١١/٤٢
(٦) هود: ١١/٤٣
(٧) هود: ١١/٤٣

المُرَاجعة مع هذه الاحتمالات، ثمّ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ﴾(٧) في الحين، فظنّ نوح عليه السَّلام أنّه قد كان يدخلُ معه السّفينة لولا ما حال بينَهُمَا الموج. فلمّا حال بينهما الموجُ لم يَدْرِ ما صَنَعَ الله بهِ وبقي مُستريباً في إيمانه، فقال بعد ذلك(٨): ﴿رَبِّ إنّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، يعني في النّسب وظاهر إيمانه ﴿وَإنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ في سلامة أهلي بإيمانهم ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِين﴾(٨). إن كان الحكم هُنا من الحكمة التي هي العِلّة فمعناه: أنت أعلمُ العالمين بحالِه ومُعتقده؛ وإن كان الحكمُ: القَهر بالإرادة والقُدرة فمعناه: أنت أقهَرُ القاهرين الذي لا رادَّ لأمرك ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِك.

وفي ضمن هذا كُلّه سؤاله ربّه ورغبته [في] أن يُطلعه على عاقبة أمر ولده كيف كانت؟ فأطلعه الله على ذلك فقال(٩): ﴿يا نُوْحُ إنّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يعني في الدِّين لا في النَّسب(٩) ﴿إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ يعني أن عمله غيرُ صالحٍ، لكنْ سَمَّاه باسم صِفته الغالبة عليه. وقد قُرىء(١٠): (إنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ) بفتح اللاّم على معنى الخَبر عن عمله، فأعلمه الله تعالى بحاله ومآله ثمّ أدّبه تعالى ووعَظه وعَلّمه فقال له(١١): ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ نَهَاهُ رَبُّه أن يسأله تحصيلَ عِلم ما لَمْ يُكَلَّف علمه، إذْ ليس يجب على المكلف أن يَسأل علم ما لم يكلّف العلم به.

---

(٨) هود: ١١/٤٥

(٩) هود: ١١/٤٦

(١٠) في الجامع لأحكام القرآن ٤٦/٩ «قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي: «إنّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالح» أي من الكفر والتكذيب، قال: واختاره أبو عُبيد. وقرأ الباقون «عَمَلٌ غيرُ صالح» أي ابنك ذو عمل غير صالح؛ فحذف المضاف، قال الزجّاج وغيره.
قال القرطبي: وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال، أي إن سؤالك إياي أن أنجيه غير صالح.
ونقل وجوهاً أخرَ نكتفي بما أوردنا منها.

(١١) هود: ١١/٤٦

ومن هٰذا الوجه تخرج قولة خِضر لموسى عَليهما السّلام[١٢]: ﴿فَلَا تَسْأَلْني عَنْ شَيءٍ حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ وذٰلك أَنَّ مُوسى عليه السَّلام طَلب منه علماً لم يكلّف طلبه؛ إذْ لا يجوزُ لطالبِ العلم المكلّف بطلبه السكوتُ عن سُؤالِ علم يلزمه، ولا يجوز للمعلّم أيضاً أن يَنْهاه عن السّؤال فيما كُلّف العلمَ به.

فخرج من ذٰلك أنّ نُوحاً عليه السلام سَأَل في أَمْرِ ولده عن علمٍ لا يلزمه، فنَهاه الله تعالى أن يسأل عَمّا لم يُكَلَّف العلمَ به. ثم حَذّره تعالىٰ أن يفعلَ ذٰلك، علىٰ جهةِ النَّزاهة لا عَلىٰ الحَظْر، فقال:[١٣] ﴿إنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الجَاهِلِيْنَ﴾ يعني الّذين يتعصَّبُوْنَ لعاطفة الرَّحِم حَتّىٰ يسألوا عَمّا لم يُكَلَّفُوا العلمَ بِه.

فقد قامَ بحمد الله عُذر نوح في سُؤاله عن رَفع الإشكال، وإجابة ربّه تعالىٰ إيّاه في إعلامه بمآل وَلده، وعتبه ألاّ يعود لمثل ذلك. واستعاذ هو بربّه ألاّ يفعل مثل ذٰلك.

ولله تعالى أن يعتب أنبياءه، ويؤدبّهم، ويُحَذّرهم، ويُعَلّمهم، من غير أن يلحق بهم عتبٌ ولا ذنب.

فهذا هٰذا، والجَهلة يخبِطُون عَشْواءَ الدُّجون.

---

(١٢) الكهف: ١٨/٧٠

(١٣) هود: ١١/٤٦

فصل

في شرح ما جاءَ في الكتاب من دُعَائه على قَومه، وامتِنَاعه الشّفاعة الكُبرى في الآخرة من أَجله.

وأمّا قصّته عليه السّلام في دُعائه على قَوْمه حين قال(١٤): ﴿رَبِّ لاتَذَرْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِيْنَ دَيّاراً﴾ فأَجابه ربُّه فيهم، فجاء في الخبر أنه احتمل أَذَايَتَهُم ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً، كما أَخبر تعالى، وهو يقُول مع ذلك ربِّ اهدِ قومِي فإنهُم لا يَعلمون، فبينا هو ساجد يوماً إذ مرّ به رجلٌ من كُفّار قومه وعلىٰ عُنقه حفيدٌ له، فقال الجدُّ للحفيد: يا بُنَيّ، هٰذا هو الشّيخ الكذاب الذي دَعَانا إلىٰ عبادة ربٍّ لا نعرفه وأَوْعَدنا وعيداً بلا أَمَد، فتحفّظْ منه لئلاّ يُضِلّك، فقال الحفيدُ له: إذا كان علىٰ هذه الحالة فَلِمَ تركتمُوه حَيّاً إلى الآن؟ فقال له الجَدّ: وما كنا نصنعُ به؟ فقال: أنزلني حتّى ترىٰ ما أصنع به، فأَنزله، فأخذ صخرةً فصَبَّها على رأسه فتلَقَّفَها المَلَكُ، وقيل: شجّ رأسه، فلما سمع نوحٌ عليه السّلام قوله ورأىٰ فعله، علم إذْ ذاكَ أَنّ الحفيد أَطْغىٰ من الجَدّ، فدَعَا في تلكَ السّجدة فكان ما كان(١٥). ثم نَدِمَ على دُعَائِه حتّى إذا سُئِلَ الشّفاعة في الآخرة امتنع منها واعْتَذر بأنّه دَعَا على قَومه بالإهلاك(١٦).

ومعلومٌ أنّ دعاء المؤمن على الكافر مباحٌ لا ذنبَ فيه صغيراً ولا كبيراً،

---

(١٤) نوح ٢٦/٧١

(١٥) الخبر في القرطبي ٣١٢/١٨

(١٦) في سُورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِيْنَ دَيّاراً. إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجِراً كَفّاراً﴾.
وقيل في التفسير:
- دعا عليهم حين يئس من اتّباعهم إيّاه.
- دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه «إنه لن يؤمن من قومك إلاّ مَنْ قد آمن». فأجاب الله دعوته وأغرق أُمّته (يعني كفّارهم).

لا سيّما بعدما قيل له[١٧]: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾. فلما قَطَع بكفرهم دَعَا عَليهم. .

وإذا كان الدُّعاء علىٰ الكَفرة علىٰ الإطلاق مُباحاً كان أَحْرَى إذا وقع القَطع على كفرهم بالخَبر الصّدق.

وقد دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم على مُضَر[١٨]. وكذلك موسىٰ عَليه السَّلام دَعَا على فرعون ومَلئه[١٩].

علىٰ أَنَّ دعوة نوح عليه السلام رحمةٌ عَلّلها هو إذْ دَعا فقال[٢٠]: ﴿إنَّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ يعني يُضِلّوا مَنْ آمَنَ مِن قومه بكثرة الأَذاية، فربما رجَع منهم إلى مَذْهَبِهم. وقد يكون العبادُ هنا: المولودين على الفِطرة الّذين إذا أَدْرَكوا يكفُرون بِكُفر آبائهم[٢١] كما ورد في الخبر.

﴿وَلاَ يَلِدُوْا إلاّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ يعني: من يكفر في ثاني حال، لصحّة الخبر أنهم لا يُؤمنون؛ ولِمَا رأى من الصّبيّ الذي طَرَح على رأسه الصَّخرة، إنْ صحَّ الخبر.

---

(١٧) هود: ٣٦/١١

(١٨) في صحيح مسلم ٤: ٢١٥٧، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم دعا على قريش لمّا استَعْصَتْ عليه بسنينَ سبعٍ كسنيّ يوسف، فأصابهم قحطٌ وجَهْدٌ، حتّى أكلوا العظام، حتّى أتى رَجُلٌ (قيل هو أبو سفيان) قال: يا رسول الله، استغْفِرْ لِمُضَر، فإنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، فلم يستغفر لهم رسول الله، ولكنْ دعا الله لهم فَمُطِرُوا. (نقلتُ الحديث بمعناه) وانظر مسند الإمام أحمد ١: ٣٨٠، ٣٤١، ٤٤١.

(١٩) قال تعالى في سورة يونس ٨٨/١٠: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زينةً وأَمْوَالاً في الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيْلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوا العَذَابَ الأَلِيْمَ﴾ ومعنى: اطمِسْ على أموالهم: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم.

(٢٠) نوح: ٢٧/٧١

(٢١) إشارة إلى الحديث المشهور: كلّ مولود يولد على الفِطرة:
ـ وقوله: «إذا أدركوا» يعني بلغوا مبلغ الرجال، وصاروا في سِنّ التكليف الشرعي.

وإذا كـان كـذلك وطـال مكثهـم يتوَالَدُون فيكثُر سوادُ أهـل النّار بطول مُكثهم.

وهـذا دُعاءٌ مُبَاحٌ مع ما فيه من الرِّفق بالغَير وطلب السَّلامة للبعض. وقد عـدّه هو ذنبـاً، وذلـك لأنّـه رأى أنّ سكوتـه وصبره عليهم كـان أولىٰ به، حـتى ينفذ فيهـم حُـكم ربّهـم بما شـاء.

ويُحـتمل أن يعدّه ذنباً لـكونه لم يُؤمـر به، كما عـدّ موسىٰ عليه السّلام قَتَل الكـافر ذَنـباً لكونـه لم يُؤمـر به فيقـول: قتلت نـفساً لم يأمـرني الله بقتلهـا.

فهـذا رَحِمَكَ الله، أدلُّ دليلٍ علىٰ صِحَّـة ما ذَكرنـاه في أنّ الأكـابر يصيّرون بعضَ المُبـاحات ذنوباً من بـاب الأَوْلىٰ والأَحْـرىٰ، إذِ الدُّعـاءُ على الكَفَرَةِ مُبَـاحٌ إجـماعاً[٢٢].

فصـل

ثم إن لله تعـالى أن يعتب أنبيـاءه وأصفيـاءه، ويؤدبهـم كما تقدّم، ويطلبُهـم بالنَّقِيْرِ والقِطْمِير[٢٣]، من غير أن يَلْحَقَهُـم في ذلك نقصٌ من كمَالِهـم، ولا غَضٌّ من أقـدارهم، حـتىٰ يَتَمَحَّـصُوا للعُبوديّـة، والقيـام في نطاقِ الخِدمـة، والقُعـود على بِـساط القُربـة.

ألا ترىٰ كـيف نَهـىٰ الله تعـالى نبـينا صـلى الله عليه وسلّم عن النّظر

(٢٢) عَلّق في الجـامع لأحـكام القرآن بعد آيـة سورة يونـس الثامنة والثمانين قـال: «استشكل بعض النـاس هذه الآيـة فقـال: كـيف دعا عليهم وحُـكم الرسـل استدعاء إيمان قومهـم؟». فالجـواب: أنـه لا يجـوز أن يـدعو نبيّ على قـومه إلا بإذن من الله، وإعـلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخـرج من أصلابهـم من يؤمن، دليلُ قـوله لنوح عليه السلام: «إنّه لن يؤمن من قـومك إلاّ من قد آمـن» وعند ذلك قـال: «ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً» والله أعـلم.

(٢٣) يضربـان مثلاً في القليل والـذي لا شأن له:
فالنقير: النُكْتة (النُقْرَة) في ظَهْرِ نواة التَّمْرَة.
والقِطمِير: القشرة الرقيقة على نـواة التـمرة كاللّفافة لهـا.

لبعض المُبَاحات فقال[٢٤]: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ الآية. ونهاه أن يُتبع النظرة الأولى ثانيةً؛ فقال له[٢٥]: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِيْنَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مع قوله تعالى في مقامٍ آخر[٢٦]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ الله الَّتِيْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

فإذا لم يحرّم أكل الطيّبات والتمتّع بالزّينة إذا كانت من كَسْبِ الحلال، ـ والنّظر في الحُسن من التمتّع والزّينة ـ فكيف يحرم النّظر إليها؟ لكنْ كمَا قال المشايخ: حَسَناتُ الأبرار سيّئات المُقَرَّبين!

جاء في الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال يوم الفتح[٢٧]: «ما كان لنبيٍّ أن يكونَ لهُ خائنةُ الأَعْيُن».

يعني الإشارة بالعَين في الأوامر حتّى يُفصح بها.

والإشارة بالعين في الأوامر مُبَاحة، لكنّه يجري[٢٨] عنها تنزُّهاً وتأكيداً لرفعِ الالتباس، وهي مباحةُ لغير الأنبياء.

(٢٤) الحِجر: ١٥/٨٨.
(٢٥) الكهف ١٨/٢٨
(٢٦) الأعراف: ٧/٣٢
(٢٧) في سنن أبي داوود ٤: ١٢٨، ونصّه: «إنّه لا ينبغي لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين».
(٢٨) في الأصل المخطوط كلمة رسمها (يجري) بلا نقط.

شَرْحُ قِصّةِ ابْرَاهِيْم(*) عَلَيْهِ السّلام

بِما تَقْتَضِيْه الآياتُ الثَّلاث.

إحداهـا: في استدلاله بالثَّلاثة الكواكـب.

الثانية: فـي الأقـوال الثّلاثة التي قـال إنها كذبات.

الثالثة: في قوله(١): ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى﴾

فَمِمّـا تَخَيَّلُوه في استِدلاله بالكواكب أنّهم زَعَمُوا أنّ أُمّه فَرَّت به صغيراً إلىٰ مغارة خوفـاً من النُّمرود، فإنّه كان يذبح أبناءَ العَماليق ويستحيي نساءَهُم، خيفةً علىٰ خرابِ مُلكه علىٰ يدِ مولودٍ فيهم. كما كان يفعلُ فرعون ببني إسرائيل، خيفةً من خرابِ مُلكه علىٰ يد مولودٍ منهم.

فألقته في المغارة، وكـانت تختلف إليه(٢) فَتُرضعه فيها، وكان يشقُّ عليها ذلك خيفةً من أن يظهر أمرُها معه لقومها بالتّكرار إليه، إلىٰ أن جاءت يوماً فوجدَتْهُ يرضع ظَبية، فطابت نفسُها وعلمت أنّه محفُوظ، فتركته ولم تعد إليه، فبقي كذلك حتىٰ حصل في حَدِّ مَنْ يَعقل، فخرج ليلاً من المغارة ليطلب العِلم بصانعه ومعبوده، فرأىٰ كوكباً وَقّاداً فقال: هٰذا رَبيّ إلىٰ آخر ما قال.

فأما قولهم في قصّة المغارة والظَّبْيَة، فهو قليلٌ في كَرامته وجائزٌ عليه.

وأما قولهم: نظر في الكوكب فقال: «هذا رَبيّ»، مُعتقداً لِذلك فباطل، فإنّ هذا القول كفرٌ صُرَاح، وما كَفَر نبيٌّ قطُّ ولا سَجَد لِوَثَنٍ قبل النُّبُوّة ولا بَعْدَها،

(*) شـرح قـصة إبـراهيم عليه السـلام في: تنـزيه الأنـبياء للشريف المرتـضى: ٢٠، وعـرائس المجـالس: ٧٣ ـ ٧٩، وابـن كـثير ١: ١٩١، وتـفسير الطبريّ ٣: ٣٢، وتـاريخ الطبري ١: ٢٣٣ و٧: ١٥٨ و١٧: ٢٨، وتـفسير القرطبي ٣: ٢٩٧ و٧: ٢١ و١١: ٢٩٩

(١) البقـرة: ٢/ ٢٦٠

(٢) أي تأتـي مرّة بعد مَرّة؛ بحسب الاقتضـاء والضـرورة.

ولا تَفَّوه أحدٌ من الأُمَّـة بذلك قَـطّ، كان مُحِقّاً أو غيرَ مُحِق.

جاء في الأَثر في خُروج نبينا صلىٰ الله عليه وسلّم صغيراً مع عمّـه أبي طالب إلىٰ الشام، أنَّه لما مَرَّ بصومعةِ بَحِيْرَا الرّاهب[٣] نزل إليه في حديثٍ يطول ذكرُه، إلىٰ أن قـال لـه: باللاّتِ والعُزّىٰ يا غُلَامُ ما اسْمُك؟

فقـال له: إليكَ عَنّي، فوالله ما تَكلَّمت العربُ بكلمةٍ هي أَثْقَلُ عَليّ مِنْ هٰذه الكلمة!

فحاشا لِأَنبياء الله تعالىٰ من اعتقادِ الكُفر في وقتٍ من الأَوقات!

وكيـف، وقد جـاء في الصّحيح أنّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذ كان غلاماً كان يوماً ينقلُ الحجارةَ مع عَمّـه أبي طالب لإصلاح ما ثلم في الكَعبة[٤]، وهو عارٍ؛ فسقط علىٰ وجْهه في الأَرض مغشِيّاً عليه، فلمـا أَفاق قـال له عمُّه: ما بالك؟ فقال: رأيتُ شخصاً أَشار إليّ أَن اسْتَتِرْ. وكان ذٰلك الشّخص المَلَك. فهٰذا صغيرٌ ينبّهه الملَك علىٰ أَدبٍ من آداب الشَّريعة قبل التّكليف. فما ظنُّك بحمايتهم من الكُفر؟ علىٰ أَنّ مِنهم من أُوتي الحُكْمَ صَبِيّاً، كيحيى عليه السَّلام. قال تعـالىٰ[٥]: ﴿وَآتَيْنَـاهُ الحُكْـمَ صَبِيّـاً﴾ وعيسـىٰ عليـه السـلام تكلّم في المهـد صبِيّاً بـالحكمة، حيث قـال[٦]: ﴿إِنّيْ عَبْدُ الله..﴾ الآيـة؛ والذبيح أُوتي العِلْمَ والحِلْمَ غُلاماً؛ قال[٧]: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيْمٍ﴾ وفي آية

---

(٣) انـظر السيرة النبويّة ١: ١٨٢
(٤) انظر السيرة النبويّة ١: ١٨٣، ومسنـد الإمـام أحـمد ٣: ٢٩٥
(٥) مـريم: ١٩/١٢
(٦) مـريم ١٩/٣٠
(٧) الذاريـات ٥١/٢٨
- «عـليم» أي يـكون بعد بـلوغه من أولي العلم بالله ودينه.
قـال في الجـامع لأحـكام القرآن: الجمهـور على أن المبشّر به هـو إسحـاق. وقـال مجاهـد

أخرىٰ(٨) ﴿حَلِيْمٍ﴾.

فهذا هو الّذي يصحُّ من أحوالهم، ويُعتقد في جانبهم الكريم.

وإذا كان هـذا شأنهم في حال الطُّفوليّة، فما ظَنُّك بهم في حال الإدراك وكمال العقل؟!

فحاشاهُم أن يكفروا اعتقاداً أو يتلَفَّظُوا بكلمةِ كُفر: كانوا صغاراً أو كباراً.

فإن قيـل: فمن أين عَرفُوا الله تعالىٰ قبل النُّبوة؟!

فنقول: بالنَّظر والاستِدلال.

فإن قيل: فقـد كانوا زمنَ النّظر غيرَ عالِمين بالله تعالىٰ!

قلنـا: كذلك هو. لكنْ ما دام المحلّ معمُوراً بالنَّظر لم يحكم له بكفرٍ ولا بإيمان، إلا أنّه كان آخر نظرهم مُتّصلاً بالعِلم، ففي أثر ما نظروا عَرفُوا الحقّ حقاً من غير أن يَعْتَقدوا جهلاً أو يتلفَّظُوا بكلمةِ كُفر.

ومن الناس مَنْ قـال: إنّهم عَلِمُوا خالقهم بعلومٍ ضروريّة علىٰ جهة الخَرْقِ والإكرام لهم.

وهذا سائغٌ في المقدُور لائقٌ بهم، إلاّ أنهم يفوتُهم في ذلك أَجْرُ الكَسب، إذْ ﴿ليس للإنسان إلاّ ماسعىٰ﴾.

ومنهم مَنْ قـال: إنهم اكتَسَبُوا العلم من غير تقدّم نظرٍ علىٰ جهة الخَرق، إكراماً من الله تعالىٰ لهم؛ والله أعلم.

ولَهُم في هـذا كلامٌ لا تحتمل هذه التّعاليق بَسْطَهُ، لكنهم مُجمعون

= وحـده: هـو إسماعيـل. قـال: وليس بشيء فـإن الله تعـالى يـقول: «وبشّرناه بإسحـاق» وهـذا نصّ.

(٨) الصافّات: ١٠١/٣٧ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُـلامٍ حَلِيْمٍ﴾ أي يكونُ حليماً في كـبره، فكأنه بُشّر ببقـاءذلك الولـد لأن الصغير لا يوصـف بـذلك.

علىٰ أنهم علموا من أول وهلة، علىٰ أيّ وجهٍ علموا: نَظراً أو ضرورة.

فصــل

وأول ما ينبغي أن نقدّم قبل الخَوض في هٰذه المَسائل الإعلام بأنّ إبراهيم عليه السَّلام كان نبيّ الحُجَّةِ، وهو أوّل من أَصَّلَ أُصول الدِّين بالاستِدلال على عِلم التَّوحيد. وبه اقْتَدى رؤساء المتكلّمين في استِدلاله بالثّلاثة الكواكب التي ورَدت في الكتابِ كما سيأتي فيما بعد إن شاءَ الله تعالى.

قال تعالى(٩): ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْناهَا إِبْرَاهِيْمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ درَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ﴾.

نرفع درجات من نشاء، أي بالحُجّة البالغة والعلوم العالية، فكان قومه حَرَّانِيّيْنَ(١٠) ينظُرون في النُّجوم ويردّون لها القَضاء في الأَفعال، ويعبُدون بعضهَا. فكان هو يقصد الاحتجاج عليهم في حُدوثها بتغيرها وتبدّل أحوالها، فخرج مع أهل الرّصد ليلاً لينبّههم على حدوثها بتغيّرها مع تسليم مذهبهم الفاسد لهم جَدَلاً؛ وقصدُه: مقابلةُ الفاسِد بالفاسِد فإنّه من وُجوه النظر. والأظْهَرُ في طريقة التّنبيه على الحُدوث الاستدلال بالأكوان، فإنّ الحركة يُعْلَمُ حُدُوثُها ضرورةً لكونهَا تقطع الحَيِّزَ بعد الحيّز بحركةٍ بعد حركةٍ. فمن رأى ساكناً يتحرّك عَلِمَ تَغَيُّرَهُ ضرورةً، فنظر عليه السَّلامُ فرأى كوكباً فقال لقومه: ﴿هٰذا رَبّي﴾ يعني على ظَنّكم وحِسابِكم. ففرحوا بقوله وظَنُّوا أنّه رجع إلى مذهبهم، فلمّا أفل رجع لهم عن قوله الأول بقوله: ﴿لا أُحِبُّ الآفلين﴾!

فعلموا إذ ذاك أنّه رجع عن مذهبهم بحجّةٍ بالغة، والدّليل على صحة ما

---

(٩) الأنعام: ٦/٨٣

(١٠) الحرّانيون نسبة إلى مدينة حَرّان؛ وهي مدينة مشهورة، تقع اليوم في تركية، فُتِحَتْ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (وانظر معجم البلدان: حَرَّان).

رُمناه من أنّه قال﴿هذا ربي﴾على جهة التَّعْنِيْتِ لهم، وإقامته الحُجّة عليهم لعلهم يتفطّنون ويتعلمون منه وجوه الاستدلال.

ويتصوّر الردّ فيه عَلى القائلين بأنّـه استَدَلّ وغَلِطَ وتَحَيّر من ثلاثةِ أُوجه:

أحدها: أنّه لو قـال:﴿هٰذا ربي﴾على جهة الاعتقاد والتَّصميم لكان كافراً في تلك اللّيلة إلى حين غُروب الكوكب. وكذلك يلزم في قوله في القمر والشّمس، ومن اعتقد هٰـذا فقد أعظمَ عليه الفِرْيَة، وردّ ما عُلِم من دين الأُمّة في أنّ نبياً ما كَفر قَطّ عَقداًولالفظاً كما تَقدّم. وغايته أن لو كان ما زعموه لتوقف على دؤوب النّظـر حتى يعلم الحق حقاً لكون الناظر في حال نظره لا يُحكم له بكفرٍ ولا بإيمان كما تقدّم.

الثاني: أنّه لو كان يُثبت إلَهِيّة الكوكب عند الطُّلوع من أجل ظهوره وينفيها عند الغروب من أَجل غـروبه لقامت عليه حُجّة الخصم بأَنْ يقول له: إذا أثبتّ إلَهيّة الكوكب عند الطّلوع ونفيتها عند الغروب فالكوكبُ يَسْرِي على ما هـو بـه، وإنّما غاب عنك وسيطلع غداً ويظهر لك فيلزمك أن تُثبت الالَهِيَّة له عند كلّ طُلوع وتنفيها عند كُلّ غروب. وهذا تناقضٌ بيّنٌ مع تساوي الغُروب والطُّلوع لـه في التَّغَيُّر.

الثالث: أن الكواكب لا تكاد تُعَدُّ كثرةً فمن أَين له أَن يعيّـن أَحدهـا بالإلَهيّة مع التّساوي بينهما في كل حال.

فَإِنْ قالُوا إن الكوكب كان من الدّراري السّبعة التي يعتقد قومه فيها الالَهيّة قبلُ.

قيل لهم: هذا باطلٌ من أَربعةِ أوجه:

أحدها: أنكم قُلتم إنّه عندما خرج في حال صغره من المَغارة رأى أوّل كوكب فقال هٰذا رَبيّ. فهو على قولكم لم يعلم الدّراري من غيرها رؤيةً ولا سَماعاً لكونه لم يَرَ أَحـداً يُخبره بذلك.

الثاني: أنه لو كان يقصد أحَد الدّراري لعلمه بأن قـومه عَبَدُوها وخَصصوها بالآلِهيّة فيقول﴿هـذا ربيّ﴾معتقـداً لذلك لكان مقلّـداً لقومه في الكُفر لكونه ما عِنْدَهُ إلّا ما سمع منهم بأنّها آلهةٌ. وهذا أشدّ عليهم في الإنكار من كل ما تَخيّلوه.

الثالث: أنّ الطُّلوع والغُروب في التّغَيُّر والحَركات على سَواءٍ في الاستِدْلالِ على الحُدوث؛ فلم استدلّ بأحدهما على نفي الآلهيّـة وأثبتها للثّاني؟

الرّابع: أنه قال في الشّمس والقَمر ما قاله في الكوكـب فصـار ينقـل الآلهيّة مِن جسمٍ إلى جسم، والكُلّ في حالةِ الطُّلـوع والغُروب على سـواء. وهٰـذه غايةُ الجَهل الّذي يُحاشى الخليلُ عليه السُّلامُ عنه قَطعاً.

فإنْ قالوا: لما رأى القَمر ظَــنَّ أنَّه لا يَغْرُب فقال ذٰلك؛ قُلنا: هذا باطـل فإنّـه قد جَرّب الكوكبَ وطلوعَـه وغُروبه ثمّ رأى القَمر طالعاً كالكوكب. فلو كان ما زعمتُمْ لتوقّف عن هٰذا القول حتى يرى هل يغرب أم لا يغرب، وأمّا قولُه في الشّمس فيجب أن يتأكّد الإنكار عليه لتأكُّدِ تَكرارِ التجربة منه في الكواكب والقمر.

وهٰـذه الأقوال كلُّها لو قُدّرت لأحدٍ منّا لأنكرها كلّ الإنكار فإنّ فيها غاية الحَيرة وعدم الاستِدلال. فكيف تثبت لخليلِ الرَّحمنِ الّذي أراه ملكوت السّموات والأرض حتى كان يرى ويسمع صَرِيفَ القَلم[١١] في اللَّوح المحفُوظ؟ وكان يُسمع خَفقات قلبِه من خشية الله على فَرسخ؟ فإذا بطلت في حقّـه ـ بل في حَـقّ العُقَلاء المُستدِلّين ـ هٰـذه الأقوال لم يبـق إلا أنّه قالها من باب مُقابلة الفاسِـد بالفاسِد ليقيم الحُجّة على قومه في التغيُّر بالأكوانِ الدالـة

(١١) صريف القـلم صوت صـريره على الورق وما يُكتـب عليه من أشيـاء.

على الحُدوث، ويعضد ذلك قوله لهم في الشمس[١٢]: ﴿هٰذا رَبِّي هٰذا أكْبَرُ﴾ يعني أكبر جِرْماً وأَبْهَرُ ضياءً، وأنفع لأهل الأرض، من كل ما دُونها من الكواكب، وهي تتغيّر كتغيرها، وليس بعدها ما ينتظر[١٢] ﴿يا قوم إنّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُوْنَ﴾ الآيات إلى قوله[١٣] ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّيْ فِي الله وَقَدْ هَدَانِ﴾ الآية والباريءُ تعالى يُخبر أنّه نادى قومه وناجاهم، وحاجُّوه وحاجَّهم، وردَّ عليهم. وهم يَقُولُون إنّه خرج من المغارة وحده. واستدلّ وغلط وتحيَّر وقال: هٰذا رَبيّ في الكواكب الثّلاثة؛ فلو كان صغيراً كما زعموا لم يكن له قومٌ يُناديهم ويُحَاجُّهم ويُحَاجُّونه، ولو كان أيضاً لم يَر الكواكب إلا تلك اللّيلة كما زَعَمُوا، لم يقل في الشّمس على الإطلاق «هٰذا رَبّي هذا أكبر»، مع تجويزِ طُلوعِ أكبر منها فلولا ما رأى الكواكب قبلَ ذٰلك لم يقل: هذا أكبر.

وهذا جزآء من يتكلّم في أُمور الأنبياء عليهم السّلام، قبل أن يَتمرّن في علم ما يجب لهم ويسْتحيلُ عليهم.

فصل

فإن قالوا: فإذا زعمت أنه قال لقومه هذا، يعني ثلاث مرات معترضاً ومنبّهاً، ليقيم الحجّة عليهم وهو يعتقدُ خلافَ ما يقول، فَلِمَ لَمْ يعدّ هٰذه الأقوال في الكذبات التي يعتذر بها في المحشر، حين يُطالب بالشّفاعة[١٤] فيقول: كذبتُ في الإسلام ثلاث كذبات، وهي بالإضافة إلى هذه الثّلاث سِتّ؟ وكذلك جاء في الحديث أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكذب إلا ثلاث كذبات، وما منها كذبة إلا وهو يُمَاحِلُ بها عن الاسلام أي يُدافع؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

---

(١٢) الأنعام: ٦/٧٨

(١٣) الأنعام: ٦/٨٠

(١٤) انظر الحديث بتمامه في مسند الإمام أحمد ١: ٢٨١

أحدها: أنّ الثلاث الكذبات التي عددها على أوجه مختلفة، فإحداها أنه لمّا دعوه للخُروج معهم لِمهرجانهم في سُدْفَةِ السَّحر، وفي باله أن يكيد أصنامهم بعد خُروجهم، كما أخبرهم حين قال[١٥]: ﴿وتَاللَّه لأَكِيْدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِيْنَ﴾ فنظر إلى النُّجوم ليقيم عُذْرَهُ عندهم على زعمهم لكونهم يقولون بالقضاء في النُّجوم[١٦]، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيْمٌ﴾ فاعتَقَدُوا أنّه رأى في النُّجوم أسبابَ المرض، فَرَضُوا عنه بذلك وتَركُوه!

وهٰذا من النّمط الذي قدّمناه في الكواكب الثّلاثة، أنّ أقواله فيها إنما كانت علىٰ جهة الإِبهام عليهم، والتّنبيه لهم لعلّهم يتفَطَّنون في ثاني حال.

الثانية: قوله بعدما صيَّر أصنامهم جُذاذاً[١٧] حين سألوه[١٨]: ﴿مَنْ فَعَلَ هٰذا بِآلِهَتِنَا﴾؟ فقال: ﴿بل فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هٰذا﴾، وأشار إلى كبيرِ الأصنامِ، وهو قد شوّه صُورته، وسمَل عينيه[١٩] وجدع أنفه. ومقطوعٌ به أنّه قال ذلك ليقيمَ الحُجّة عليهم في نفي الإِلٰهيّة عما اعتقدوه من الكواكب والأصنام، فصارت هذه القولة في معناها، تُشبه تلك الأقوال الثّلاثة في الكواكب. فلمّا كانت الأقوال مع قوله في الصّنم على وجه واحدٍ من إقامة الحُجّة على مذهب الخَصم، ومقابلة الفاسِد بالفاسِد، صارت كالوَاحدة في المعنى. ثم أضاف لها القَوْلَتَيْن المُختلفتين، في النّظر في النُّجوم، وقولـه في أهله للملك الجَبّار «هي أختي»، فصارت ثلاثاً[٢٠].

(١٥) الأنبياء: ٢١/٥٧

(١٦) الصّافات: ٣٧/٨٩ وقبلها قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُوم﴾ الصّافات: ٣٧/٨٨

(١٧) جُذاذاً: قِطَعاً مُكَسَّرَةً.

(١٨) في سُورة الأنبياء: ﴿قالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذا بآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ. قالوا سَمِعْنَا فَتًى يذكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبراهِيم. قالوا فأتوا بِهِ على أَعيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُون. قالوا أأنْتَ فعَلْتَ هٰذا بآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيْمُ. قال بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هٰذا فاسْأَلُوهُم إنْ كانُوا يَنْطِقُوْنَ﴾ الآيات: ٥٩ ـ ٦٣

(١٩) سمل عينيه: اقتلعهما.

(٢٠) انظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم ٤: ١٨٤٠

وأمّا الثالثة التي هي قوله للملك الذي أراد أن يأخذ منه أهله عنوةً، فسأله: ما هٰذه التي مَعَك؟ فقال: هي أُختي؛ فكان قوله ذلك طَمعاً في تخليصها منه بهذه القولة ليقيم عُذره عند الملك، لكون الغَيرة على الأُخت، آكد منها على الزَّوج. فقال له ذلك لعلّه يتركُها له، كالّذي فَعل. فلو قال هي زَوجتي فربّما كان يقوُل له: انزلْ لي عنها أَتملّكْها على الوَجْه الذي كانت عندك فلمّا كانت القَولتان تخالف الواحدة التي اتَّحَدَتْ مع الثلاث في إقامة الحجّة على الخُصوم، بعد تسليم مَذهبهم لهم جَدَلاً عَدّ الكُلّ ثلاثاً، لاتّحاد الأَربعة الأقوال في المعنى.

الوجه الثاني: أن تكون القولات الثلاث في الكواكب التي لم يعدها من الكذبات، بأمرٍ من الله تعالى، أُمِر أَن يقولها فقالها ولم يعدها كذبات لكونه مأمُوراً بها؛ وتلك الثّلاث التي عَدّها كانت عن نَظَرِهِ واجتِهَاده فأبهمها بأنْ رأىٰ أَنّ السُّكوت عنها كانَ له أُولىٰ، علىٰ ما قَدَّمْناه في حَقّهم من مُراعاة الأَولىٰ.

وإذا كانت الثّلاث الأُخَرُ بأَمر الله تعالىٰ له فلا حَرج فيها لكونه مأموراً بها، فتخرج له مخرج قول المَلَك لِداوُود عليه السّلام(٢١): ﴿إِنَّ هٰذَا أَخِي﴾ ولم يكن أخاه حقيقة. وقوله(٢١) ﴿لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُوْنَ نَعْجَةً﴾ ولم يكن له نعاج؛ إلىٰ آخر ما قاله.

وقول يوسف عليه السّلام لإخوته(٢٢): ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُوْنَ﴾ كما قدّمناه حرفاً بحرف.

والأظْهَرُ من الوجهين الأَخيرُ منهما؛ ودليلنا عليه أن السّتّة الأَلفاظ في التلفُّظ بخلافِ المُعتقد علىٰ سواء.

فَذِكْرُ الثّلاث والإِعْرَاضُ عن ذكر الثّلاث الأُخَر، مع ورعه عليه السّلام وشدّة مراقبته، دليلٌ علىٰ أنّ الّتي أعرض عن ذكرها كانت بأمرِ الله تعالىٰ.

---

(٢١) ص: ٢٣/٣٨

(٢٢) يوسف ٧٠/١٢

الثّالث: ما جاء في الصّحيح أنّ النبيّ صلّى الله عَليه وسَلّم قال(٢٣): «لم يكذب إبراهيمُ عليه السّلام في الإسلام إلاّ ثلاث كذبات، كلّها مَاحَل بها عن دِين الله: قولـه في الكـوكب ﴿هٰذا ربيّ﴾، وقولـه في سارة «هي أُختي» وقوله في الأوثان ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هٰذا﴾».

فقد فسَّرها عليه السّلام حين عَدّها ثلاثاً، فصارت الثّلاثة القولات في الكَواكب كالواحدِ في العَددِ لكونها متّحدة في المعنىٰ. وانضافت إليها قولته عن سارة، وقولتـه عن الأوثان، فصارت ثلاثاً.

وتكون قولتـه: «إنِّيْ سَقِيمٌ» حقيقة، وتكون النُّجوم هنا ما يَنجم له من تفاصيل أحْوَاله أي يظهر له. ويعضُد هذا الخبر ما ذكرناه من أنه قال في الكواكب ما لم يعتقده دِيناً كما زَعم الجَهلة.

فصل

وأما قِصّتهُ عليه السَّلام في طلب رُؤية كيفية البَعث وجمع الأجسام بعد تبدّدها. وسَبب هٰذا الطّلب ما جاء في الخَبر عن سيّد البشر صلىٰ الله عليه وسلم أنّه قال(٢٤): «بينما إبراهيم عليه السَّلام يمشي علىٰ ساحل البَحر إذ مَرَّ بدابّةٍ

---

(٢٣) في صحيح مسلم ٤: ١٨٤٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «لم يكذب إبراهيم النبيّ - عليه السلام - قطُّ إلاّ ثلاث كَذَباتٍ؛ اثْنَتَيْنِ في ذاتِ الله: قوله: إنّي سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا؛ وواحدة في شأن سارة...» وذكَرَ خَبَرَ إبراهيم وسارة مع الجَبَّار.

(٢٤) ونقل القرطبي في الجامع، قال الحسن: «رأى إبراهيم - عليه السلام - جيفةً نصفها في البرّ توزّعها السباع، ونصفها في البحر توزّعها دوابّ البحر، فلمّا رأى تفرّقها أحبّ أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق...».
- وفي تنزيه الأنبياء للشريف: وقد روى المُفَسّرون أن إبراهيم عليه السلام مرّ بحوتٍ نصفه في البر ونصفه في البحر، ودواب البرّ والبحر تأكل منه وأخطر الشيطان بباله استبعاد رجوع ذلك حيّاً مؤلفاً مع تفرق أجزائه وانقسام أعضائه في بطون حيوان البر والبحر... إلخ. وردّ الشريف على ذلك بوجوه مختلفة جاء المؤلّف هنا بما يشبهها أو يماثلها.

بعضُها ـ في البَرّ وبعضُها في البحر، فرأىٰ دوابّ البحر تأكُل مِمّا يليها، ودوابّ البَر تأكُل مِمّا يليها، فقال: ليتَ شِعري، كيف يجمع الله هٰذه؟». . . الحديث.

فاشْتاق إلىٰ رؤية الكيفيّة فقال إذ ذاك[٢٥]: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾. نُقل هٰذا الخبر علىٰ المعنىٰ.

فصل

اعترضت المُلحدة هذه القصّة ومن تابَعهم من اليهود والنَّصارىٰ والقَرامطة، ومَنْ قال من الباطِنيّة باستحالة حَشر الأَجْسَاد، والجهلةُ بعصمةِ الأَنبياء عليهم السّلام، علىٰ الوجهِ الذي ذكرناه قبل.

فقالوا: هذا إبراهيم عليه السّلام علىٰ جلالة قدره قد اسْتَراب في البعث حتّىٰ طلب رُؤية الكيفيّة ليطمئنّ قلبُه بنَفْي الاستِرابة. وهذا أشدّ في الاعتراض من كُلّ ما ذكروه، فإن الشّكّ في البَعث كفرٌ صُرَاح بالإجماع من كل أُمّة[٢٦]. فإنّ حقيقة الكُفر في الشرع تكذيب الله ورسله. وما ملئت طباق جهنّم[٢٧] إلاّ من هذا الصّنف الشاكّ فيما جاءت به الرّسل عليهمُ السّلام.

فانظر عَصمنا الله وإياكم إلىٰ مُعْتَقِدِ هٰذه الوصمة في حَقّ الخليل صلىٰ الله عليه وسلم، أن تُؤوّل به. ولأَجلها جاء عنه عليه السّلام أَنّه قال[٢٨]: «نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبْرَاهِيْمَ»؛ نَبّه ضعفاء العامة أَنّ أنبياءَ الله تعالىٰ في العِصمة والنَّزاهة علىٰ سواء، فما جاز علىٰ أَحدهم جاز علىٰ الكُلّ. فكأنه

---

(٢٥) البقرة ٢ : ٢٦٠

(٢٦) يقول: إن الإقرار بالبعث والنشُور أساس في كلّ عقيدةٍ في أديان الله.

(٢٧) طِباق جهنّم: طَبَقاتُها، طبقة فوق طبقة.

(٢٨) في صحيح مسلم ١ : ١٣٣

يقول: إيّاكم أن تجوّزوا الشكّ علىٰ إبراهيم عليه السلام فيما يوحىٰ إليه بـه، فإن جَوَّزْتُموه عليه فأنا أحقّ أن تُجَوّزوه عَليّ، وأنتم لا تجوّزونه عَليّ فلا تجوّزوه عليه. ثُمّ تأدّب عليه السَّلام مع الأب بقوله: نَحْنُ أحقّ.

فصل

في شرح الآية. قال الله تعالىٰ(٢٩): ﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيْمُ رَبّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤمِنْ قَال بلىٰ ولكنْ لَيَطْمَئِنَّ قلبي، قَالَ فَخذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثمّ اجْعَلْ علىٰ كُلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ آدْعُهُنَّ يَأتِيْنَكَ سَعْياً، واعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾.

قولـه تعالىٰ: ﴿وإذْ قَال إبْرَاهِيْـم﴾ تنبيهٌ لنبيّنا عليه السَّلام ليتهيّـأ لقبـول الخطـاب، كما قَدّمنا في قصة زَيد، فكأنـه يقـول له: وقد أُخبرك عن قـول إبراهيم إذْ طلب أن أُرِيَهُ كيف أُحْيي المَوْتىٰ، فأَسعَفْتُه في ذلك وأَرَيْتُه الكيفيّة فذكره تعالىٰ إسباغ آلائه علىٰ أنبيائه وإسعافه لهم فيما يثلج به صُدورهم ممّـا غـاب عَنهم من بعض الجائزات في معلوماته تعالىٰ.

وأما قولة إبراهيم عليه السّـلام: ﴿رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ﴾ وأنـه طلـب أَن يُريه تعالىٰ مَثلاً محسُوساً يُطلعه علىٰ كيفيّة الجَمع من أَقاصي الأَرض وبُطون الحَيوانات، وكيفية سُرعتها في الحَركات عند الاجتماع، ولأي أَصل تجتمع، وعلىٰ أيّ وجهٍ تتصوّر، إذ الجوازُ بَحْرٌ لا ساحلَ له.

وقد نبّه عليه السَّلام علىٰ بعض هٰذه الكيفيات فقـال(٣٠): كلّ ابن آدم تأكلُه الأرض إلّا عجبَ الذّنب فإنه منه خلق وفيه يركّب.

---

(٢٩) البقـرة: ٢/٢٦٠

(٣٠) في صحيح مسلم ٤: ٢٢٧١، من حـديث أبي هـريرة، أنَّ رسـول الله صلـى الله عـليه وسـلّم قـال: «كلّ ابن آدم يأكـله التـراب إلاّ عجـبَ الذّنـب، مِنْه خُلِقَ، وفيه يُرَكّـب».

ومعنىٰ (خلق) هنا: (صَوَّر) لكونِ الشّيء لا يُخترع من الشّيء، وإنما يُخترع لا من شيء. وأخبر عليه السّلام أنّ عُجب الذَّنَب الذي هو وسطِ الجرْم منه بدىء تركيبه في الرَّحم، وإليه ترجع الأجزاء الزّائلة عنه في نواحي الأرض إذا بُعِث.

وفي هٰذا الحديث دليلٌ علىٰ أنّ أكل الأرض إنّما هو عبارة عن تبدُّدِ الأجزاء في الجهات لا عَدَمها البَتّة.

ويعضد ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ في هٰذه القصّة من جمع أجزاءِ الطُّيور بعد تَفْريقها. وللنّاس في هذا عريضٌ من القول لسنا الآن له.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلىٰ﴾.

سأله بالنَّفي فأجابه بـ «بلىٰ» التي هي جوابُ النّفي لإثبات المنفيّ. كأنه قال له: ألستَ مَؤمناً بالبعث؟ قال: بلىٰ، معناه: أنا مُؤمن به كما علمت، لكنّني أُريد أن يطمئنّ قلبي برؤيةِ الكيفيّة، فقال تعالىٰ له: ﴿فَخُذ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أَمِلْهُنّ إليك بالإحسان والتّعليم لكي تدعوها فتأتيك مُجيبة لدعائك. ففعل ذٰلك ثم أخذ الطُّيور وذَكّاها[٣١] وحَزّ رؤوسَها، وأمسكها عنده، وهشم أجسامَها وخلَطها حتىٰ صارت جِسْماً واحداً لا يتميّزُ بعضُها من بعض، ثم فَرّقها علىٰ أربعةَ أَجْبُل، ثم قَعد هو في الجَبل الوسط الذي أحاطت به الجبال الأربعة، ثمّ دَعاها فطارت القَطْرَةُ من الدّم إلىٰ القَطْرة، واللّحمة إلىٰ اللّحمة، والرّيشة إلىٰ الريشة، وكذلك صكيك العِظام، وهو ينظرُ إليها حتّىٰ التأم كُلّ جسد علىٰ ما كان عَليه من الأجزاء التي كانت له قبل، ثم طار كلُّ جسدٍ إلىٰ رأسه فالتأم به.

---

(٣١) ذَكّاها: ذَبَحَها. وصكيك العظام: المدقوق المهروس.

فصـــل

انظروا ـ رحمكم الله ـ إلىٰ وُقوع هٰـذه الكيفيّـة فإنّها تشبه بعـث بعض الأجساد وجمعها وإحياءها وسُرعة مسيرها إلىٰ أرض المحشر حَذْوَكَ النّعل بالنّعل(٣٢).

فأمـا كونُ وقوع المثال بالطُّيور بَدلاً من سائر الحيوانات، فهو أن يقع الشّبَهُ فيها بأحوالِ البَعث من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها تقبل التّعليم حتىٰ تُدعىٰ فتجيب، كالنّسر والعُقاب والبَازِي والسُّوذنيق(٣٣) والغُراب والطّاوُوس، إلىٰ غير ذلك.

وأنّها تُؤخذ أفراخاً فتربّىٰ وتُعَلّم فتَقْبَلُ التّعليم حتىٰ تَطِير، وترجع إلىٰ داعيها إذا دُعيت، وكذلك المَلَكُ إذا دعا المَوتىٰ من القُبور جُمعوا وحَيُوا وأَتَوْه.

والثّاني: أنّ الطُّيور إذا دُعِيت أَتت بسرعة تفوق بها سائر الحَيوانات، وكذلك المَلَك إذا دَعا الموتىٰ أُتوه بسرعة. كما قال تعالى(٣٤): ﴿مُهْطِعِيْنَ إلىٰ الدَّاعِ﴾ أي مُسْرِعين. وقال تعالى(٣٥): ﴿يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ من الأَجْدَاثِ سراعاً كَأَنَّهُمْ إلىٰ نصب يوفضون﴾.

الثالث: أنّ الطّير تأتي في الهَواء علىٰ خطّ استواء فتكون أَسْرع في الإتيان، وأَظْهَر للرّائي فإنّها لا تَفُوت بَصره. فلو كانت غير الطّيور من الحيوانات كالأرانب والثعلب والكلب والذّئب، إلىٰ غير ذلك، وجاءَتْهُ لكانت تَتوارىٰ في بعض الغِيطان وخلف الشَّجر والرُّبا إلىٰ غير ذلك ، فكانت تغيبُ عن بصر

---

(٣٢) الحَـذْو: التقـدير والقـطع، وفي الحـديث: «لتركَبُنَّ سَنَنَ من كـان قبلكـم حَذْوَ النعـل بالنعـل» أي تعمـلون مثل أعمـالهم كما تُقطع إحـدى النعـلين على قـدر الأخـرى.

(٣٣) السُّوذنيق: الصَّقْرُ.

(٣٤) القمر: ٨/٥٤

(٣٥) المعارج: ٤٣/٧٠

إبراهيم عليه السلام تارةً وتظهَرُ أخرىٰ، فما كانت تتمُّ له الرؤية التي طلَب، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيْ﴾.

وأمّا كونُها أربعةً ولم يكن أكثر ولا أقلّ، فلأنْ يقَع الاكتفاء بها في الجهاتِ الأربع، وهو المقصود أيضاً بكون الجِبال أربعة؛ وذلك لأنّ الجهات سِتّ: فوق وتحت ويمين وشمال وأمام وخلف.

ومعلومٌ أنّ أَجْزاء الحَيوانات الأرضِيّة إذا تَبدَّدت بعد موتها لا تصعد إلىٰ فوق، ولا تغوصُ إلىٰ تحت، وإنّما تتبدّد في الجهات الأربع.

فلذا كانت الطُّيور أربعة، والجبال أربعة. والله أعلم.

وأما كونُ إبراهيم عليه السّلام علىٰ الجبل المتوسّط منها فأشبه شيء بالملك الذي يقفُ علىٰ صخرة بيت المقْدس فيدْعُو الحيوانات فيأتون إليه من الأربع جهات مُسرعين كما تقدم.

وأمــا مجيء النُّقطة من الدّم إلىٰ النقطة، واللّحمة إلىٰ اللَّحمة، والرِّيشة إلىٰ الرّيشة، والعظم إلىٰ العظم، وهو ينظر إليها؛ فأشبه شيء بمجيء الأجزاء يومَ البَعث من الجهاتِ الّتي افترقت فيها حتّىٰ تجتمع كما كانت أوّل مرّة لا يشذُّ مِنها شيءُ عن صاحبه. وهو كان مطلوبه عندما رأىٰ الدّابّة تتبدّد أجزاؤها في بُطونِ حَيوانات مختلفة، كما جاء في الخَبر، فاشتاق إلىٰ رُؤية كيفيّة الجمع، فسألها فأُجيب فيها.

وأمّا فائدةحبس الرّؤوس عنده ومجيء الأجسام بأعيانها فلخمسة أوجه:

أحدها: أنّه لمّا كانت رؤوسُها عنده وجاء كل جسد إلى رأسه، وَقع له اليقينُ أنّها هي لا غيرها.

الثاني: أنّ في هذه القصّة رداً على من أنكر حَشر الأجساد من غُلاة الباطنيّة وغيرهم.

الثالث: ردّ على من زَعم أن الأرواح تركّب في أجسامٍ أُخَر غير الّتي كانت مركّبة عليها في الدُّنيا، لكون الأرواح عندهم هي الحيُّ النّاطق؛ والأجسام ظُروفٌ متماثلة فلا يُبالي بإعادتها.

الرابع: ردٌّ عَلى مَن قال من أَهل الأَهواءِ المُضلّة؛ إن الحيوانات لا تَحْيَى دون الرُّؤوس، ولا يجوزُ ذلك؛ فحييت بلا رُؤوس.

الخامس: قولُهم: إنّه لا تكونُ الإدراكات والحواسُّ إلاّ في الرُّؤوس على بِنيةٍ مخصُوصة، فأكْذَبهمُ الله تعالى بأَن سمعَتْ ورأَت بإدراكات خُلِقت في بعضِ أَجسامِها دونَ الرُّؤوس؛ فحَيِيَتْ وسَمِعَت حين دُعيت ورأَت، وجاءت طائرةً بلا رُؤوس ولا عُيونٍ ولا آذان. وهٰذا هو مذهبُ أَهل الحقّ أنه ليس للإدراكات شرطٌ في المحلّ سوى الحيَاة.

وأما قوله تعالى(٣٦): ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾؛ فقد يكونُ أمراً له عليه السلام بأن يَبقى على معلُوماته في إثباتِ عِزّة الله تعالىٰ وحِكمته؛ لا أَن يستجدّ علماً بما لم يكنْ يعلم. ويُحتمل أن يأمره بأن يستجدّ علُوماً أُخَر بأنواعٍ من الحكمة والعزّة لم يكنْ يعلمُها قبل.

وأَما ذِكره العزّة في هذا المقام فهي الغَلَبُ والقَهر؛ تقول العرب(٣٧): (مَنْ عَزَّ بَزّ) أي: مَن غَلب سَلب. فلمّا كان في جمع الموتىٰ وإحيائهم دفعةًواحدةً غايةُ الغَلب والقَهر والحُكم والعِلم والإتقان والإحكام تَمَدَّحَ البارىء تعالىٰ بصفاته العُلى وعِزّة قهره؛ فأَمره أن يتزيّد علماً بصفات الجَلال والجمال.

وقد يكونُ الأَمر بالعلم فيما رأى من تفاصيل عجائب الكيفيّات. فلمّا أطلعه علٰى ذلك غاية الإطلاع، وعَلّمه ما لم يكن يَعلم قال له

(٣٦) البقرة: ٢/٢٦٠

(٣٧) أي في أمثال العرب. والبَزُّ: السَّلب. والقول مشهور في كتب الأَمثال.

تعالىٰ : ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : وابْقَ عالماً بما زِدتك من العُلوم الحِسيّة التي لا يتأتّى الجهلُ بها ولا الشكُّ فيها في مستقرّ العادة، ولا يُتغافل عنها.

فهذه ـ رحمك الله ـ قصص إبراهيم عليه السَّلام في الثلاث الآيات والتَّبرئة له(٣٨).

(٣٨) في النص هنا «على أوله صلى الله عليه وسلم».

شرح قصة عُزَير
عليه السلام(*)

في الآية التي وردت في إماتته وإحيائه.

قال تعالىٰ:(١): ﴿أوْ كَالَّذِيْ مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ﴾ الآية.

إلى قوله تعالى: ﴿أعْلَمُ أنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

فَمِمَّا اخْتَلَقُوْهُ عَليه ـ عليه السَّلام ـ أنّه شكَّ في البَعْث بقوله: ﴿أنَّىٰ يُحْيِى هٰذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِها﴾ فأراه الله الآية في نفسه حيثُ أماتَهُ ثُمّ أحْيَاهُ، فحينئذٍ أيْقَن بالبعث فقال: ﴿أعْلَمُ أنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

وما أرىٰ أنّ هَؤلاء الأوباش، الّذين يعتقدون في عقائد أنبياء الله تعالى مثلَ هٰذا الاعتقاد، إلا أنّهم يقيسُونها بعقائدهم الفاسدة وشُكوكهم المضطربة!

كما قيل(٢): رمَتني بدائِها وانسَلَّتْ!؛ وقيل(٣): وكلُّ إناءٍ بالّذي فيه يرشحُ!

(*) شرح قصة عزيز عليه السلام في: عرائس المجالس: ٣٤٣، وابن كثير ٢: ٣٢٤، وتفسير الطبريّ ٣: ١٩، وتاريخ الطبريّ ١: ٥٤٨ ـ ٥٥٧، وتفسير القرطبي ٣: ٢٨٨.

(١) البقرة: ٢٥٩/٢؛ والآية بتمامها:

﴿أو كالَّذِي مَرَّ على قريةٍ وهي خَاوِيَةٌ على عُروشِها قالَ أنّى يُحْيِي هٰذه الله بعد مَوْتِها فأمَاتَهُ الله مئةَ عامٍ ثمّ بعَثَه قال كم لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يوماً أو بعضَ يومٍ قالَ بل لبِثْتَ مِئةَ عَامٍ فانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وشَرَابِكَ لم يَتَسَنَّهْ وانظُرْ إلى حمارك ولِنَجْعَلَكَ آيةً للنّاس وانظُرْ إلى العِظام كيْفَ نُنْشِزُها ثم نكسُوها لحماً فلمّا تبيّن له قالَ أعْلَمُ أن الله على كُلّ شيءٍ قديرٌ﴾.

* قال جماعةٌ هو عُزَير: وقال وهب بن منبّه وغيره هو إرمْيَا وكان نبيّاً. ـ وقال ابن إسحاق إرميا هو الخضر ـ وعن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل غير مسمّى. قال النقاش: ويقال هو غلام لوط عليه السّلام، وقيل هو شعيا.

وعن ابن عباس أنه عُزَيْر.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ١: ٢٨٦

(٣) المثل في مجمع الأمثال ٢: ١٦٢، ونَصُّه فيه: «كلّ إناء يرشح بما فيه».

مع جهلهم بمقادير النُّبوة فيمشون فيهم مثل هذه الأقوال الحاسمة(٤) لأصل الإيمان.

ومنهم مَنْ قال: إنّه ما مات عُزَير ولكنْ غُشِيَ عَلَيه، بدليل أنّه لو مات لم يَحْيَ بعد.

وهذا هو التّنصيص على إنكار البعث واستبعاد إحياء الموتى، وتكذيب الباريء تعالى حيث قال: ﴿فَأَمَاتَهُ الله مئة عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾.

وقد قال كلبٌ من كلاب القُصّاص هذه القولة في هذا البلد(٥) على المنبر فما أنكروها عليه ولا طُولب بها، وما يمكن أن يَنْبو فهمُ مسلم عن فساد هذه القولة، فإنها ردُّ نصِّ الكتاب، ولكنها قُلوبٌ طَبع الله عليها بطابع الحِرمان.

فصل

وأمّا عُزَير عليه السّلام فاخْتَلف النّاسُ في نبوّته لكونه لم ينصّ عليه الكتاب. والأظهر إثباتُ نبوّته بدليل قوله تعالى(٦): ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾. وهذا خطابٌ لليهود والنّصارى. واليهود عَبدت عُزَيراً بنصّ الكتاب. وممّا يَدُلُّ على نبوّته أيضاً من الكتاب أنّه ذُكِرَ مع الأنبياء في مَعرِض الفضيلةِ والإكرام في مَوْطِنين، ذكره تعالى مع إبراهيم عليه السلام في إحياءِ المَوْتى لهما. وذكره مع عيسى عليه السلام في أَنْ عُبِدَ من دُون الله.

وسبب هاتين القصّتين نذكره الآن بعون الله تعالى.

(٤) الحاسمة: القاطعة.
(٥) زاد هنا كلمة لم تتضح لي بعد كلمة «البلد».
(٦) آل عمران: ٣/٨٠

جـاء في الأَثـر أنّـه كـان في بني إسـرائيل من بعد مُـوسى عـليه السّلام؛ نبيّاً، وكـان اسمُه دانيـال، وإنما سُمّي عُزَيراً لكـثرة تعـزير اليَهُـود له وإعظامهـم لِقْدرِه عليه السَّلام. ثم غَلَوا في تعظيمِه حـتّى عَبدوه. وسبب ذلك لأنْ أماته الله مئـة سنَة ثم أحـياه، وأراه الآيـة في طعامِه وشرابه الّذي مرّت عليه مئة عـام ولم يَتَسَنَّـهْ، أَي لـم يَتغيّـر. وفي حمارِه الّذي أَماتـه معه وتبدّدت أَجـزاؤه، ثـم أُنشِرَت وجُمِعَـت وحَيِيت وهو ينظُر إلى ذٰلك كُلّـه.

فقـال الجَهـلة: لـم يختـصه بهذه الكرامـات إلا لأن كان ولَده فعبَدوه! تعالىٰ الله عمّا يصفون.

فـلمّـا طغى بنو إسـرائيل وقتَـلوا الأَنبـياء بغير حَقّ، وبَدّلوا أَحـكام التَّوراة وأَخـبارها، سَلّط الله عليهـم بُخْـتَ نَصَّر البَابِليّ، وكـان مجوسـياً فأتـى إلى مدينة بيت القدس ودخـلها عُنـوةً، فـرأى دماً يترشّح فيها من الأرض، فجـمع بني إسـرائيل وسألهـم عن سـبب ذلك الدَّم، فأنـكروا سببه خيفةً منه أن يـقع ما وقع، فقال له بعضُ من يختصّ به: هنا رجل يزعُم أَنّه نبيّ؛ والأَنبياء لا يكذبون، فسَلْه يُخْبرْك! فأمـر بإحـضاره فجـيء بـه، فقـال له: أَيُّهـا الشيخ، أُخـبرت أنـك تزعمُ أنـك نبيّ، والأَنـبياءُ لا يـكذبون، فأخـبرني عن سـبب هٰـذا الدم.

فقـال له: عسىٰ أن تُعفِيني أيهـا الملك!

فقـال: لا أُعفيـك حـتى تُخـبرني، أو أعذّبـك حـتىٰ تموت.

فقـال له: أمّـا إذْ لا بدّ من القـول، فهـذا دمُ نبيٍّ قتله قومُه ظلماً.

فقـال له: وَمَن ذلك النبيُّ الذي قَتَله قومـه ظلماً؟!

فقـال: يَحـيىٰ بن زكريّـا عليهـما السَّلام.

فقـال له: وَمَن قومُه الـذين قـتلوه؟!

فقـال: بنو إسـرائيل.

فقال: والله لأقْتُلَنّ عليه خيارَهُم، ولا أُرفع عنهم السَّيف حتى يجفّ هذا الدم.

فقتل عليه من خِيارهم سبعين ألفاً، وحينئذٍ جفّ الدم.

ويعضد هذا الخبر ما جاء عنه عليه السلام أنّه قال(٧): «دِيَةُ النبيّ إذا قتَله قومُه سبعون ألف رَجُل من خِيار قومه». فلمّا رأى ذلك دانيال عليه السّلام خرج فارّاً بنفسه إلى بلاد مصر، فبقي فيها أربعينَ سنة، ثمّ اشتاق إلى موطنه ومسقط رأسه، وقبور أسلافه من الأنبياء والأولياء عليهم السّلام، فركب حماراً له وأتى نحو بيت المقدس، فلما كان بمقربة منه رأى جنّة كانت له وقد بقي فيها بعض علائق من شجر العنب، فأتاها فوجدَ فيها عنباً نضجاً، فاقتطف منها وأكل وملأ سلّة كانت معه، وركب حماره وسار حتى أشرفَ على مدينة بيت المقدس، فرآها خَراباً يباباً لم يبق فيها رسمٌ ولا طللٌ. فتحسَّر علىٰ فقد الخلّان وخراب الأوطان، كما قيل(٨):

أحب بلاد الله ما بين منعجٍ ... إليَّ وسُلمى أن يصوبَ سحابُها
بلاد بها عَقّ الشَّبابُ تمائمي ... وأوّل أرضٍ مَسَّ جِلدي تُرَابُها

فتحرك قلبه تحسُّراً على فقد الخِلّان وخراب الأوطان فقال(٩): ﴿أنى يُحْيِي هَذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني كيف تعودُ هذه البلدة على ما كانت عليه بعد خَرابها؟! فاستبعد أن تعود علىٰ ما كانت عليه من نَباتها وشجرها وبَساتينها. كما يستبعد النّاسُ أن تعودَ البلادُ كما كانت عليه بعد خرابها، علىٰ مجرىٰ العادة.

---

(٧) حديث.
(٨) البيتان لرفاعة (وقيل: رفاع) بن قيس الأسديّ، أو لأبي النّضير الأسديّ، أو لامرأة من طيّء (انظر سمط اللآلي ٢٧٢، والكامل في الأدب: ٨٤٢، ومعجم البلدان: منعج).
(٩) البقرة ٢/٢٥٩.

وهـذا مـن الكلام المُبَـاح الـذي يقولُه النّـاس إذا خـربت البـلاد وكـانوا يعرفُونهـا عامـرةً من قـبل.

وكـثيراً ما قـيل هـذا في نـدب الأَطلال الخـالية والرسـوم البـالية. إلا أَنَّ أهـل المُرَاقـبة يُطْلَبُـون بهـذه الأقـوال التي كـان غيرُهـا أُولى منها كما تقدّم.

فـإنّ مثـل أُولئك لا يستبعـدون كائنـاً في مقدورِ الله تعـالىٰ، كـان مُعتـاداً أَوْ غير مُعتـاد، لما يعلَمُون مِن نُفـوذ إرادتِه ومَضَاء أَمره، إذا أراد شيئاً فإنّمـا يقولُ له كُنْ فيكون.

كمـا عتب الملائكـة امرأة إبـراهيم عليه السّلام حـيث قالت [10]:

﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُـوْزٌ﴾ الآيـة؛ فقـالوا لها [11]: ﴿أَتَعْجَبِيْنَ مِنْ أَمْرِ الله﴾؟!

أي: مثلك يـرى في فعـل الله عَجـباً وأنت صِدِّيقـة!؟

قـال المشايخ: العَجبُ أن لا تـرى عجـباً، فـإذا لم تـر عجـباً كنتَ أنت العَجـب.

فـلما استَبْعَد إصلاحهـا على مَجرىٰ العادة أراه الآيـة في نفسه، فأمـاته ثم أحيـاه بعد مِئـة سنة، ثم أَطلعـه على ذلك بأَنْ أنشـأ له الحمارَ الـذي كان يركَبُه بعدمـا أَمـاته، ورَمَّ حـتى صـار تُـراباً، ثم أنشـأه له من التُّـراب وهـو ينـظر إليه، وأبقى عِنَـبه كمـا كـانَ بعد مِئـة سنـة. ثم التفت إلى جهـة مدينة بيت المقدس فرآهـا أعْمَـر ما كـانت قبل، فنـدم على قـولته. فكأنّ الله عـز وجـل عَتبـه وأَدَّبه حـتىٰ لا يستبعـد وقوع مقـدور تحـت القَهـر: كان خـارِقـاً أو غير خَـارق.

فهـذا هو الّذي يجـوز في حـقّه عليه السلام لا ما اخْتَلَقُوه.

---

(١٠) هود: ٧٢/١١.
(١١) هود: ٧٣/١١.

شـرح قصّة مُوسى
عليه السـلام(*)

في الآيـة المتضمنة قتـل الكافر. قـال تعـالىٰ (١): ﴿وَدَخَلَ المَدِيْنَةَ عَلَىٰ حِيْنِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هٰـذا مِن شِيْعَتِهِ وهَٰذا مِن عَدُوِّهِ﴾ الآيـة.

إلىٰ قـوله(٢): ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

فمن أَقـوال المُخَلِّطة في هٰـذا القصّـة، أن موسى عليه السـلام قَتَلَ القِبطي من أَجْـل العِبـراني، لأنْ كـانَ العبرانيُّ من قبيله والقبطي من غير قبيله. فصيّروا الكـليم عليه السّلام متعَصِّباً لأجـل قبيله وعَشِيرتِه، وليسَ الأمرُ كـذلك، وحـاشاه من ذلك.

فـإنّ هـذه هي حميّة الجاهليّة، وإنما مَرّ موسى عليه السـلام برجـلين يقتتلان أَحـدهما يعرفُه مُؤمناً والآخـر يعرفُهُ كافراً، فاستغاثـه المُؤمـن على الكـافر، فوكز الكافرَ ليحـمي المُؤمن فصادفَ مَقْتَلاً من مقاتِله بتلك الوكْزَةِ فمَات.

فـصـل

فـإن قيـل: مـن أَيـن لـكم أن تحـكُموا بإيمـانِ أحـدهما وكُفر الآخـر، وإنّمـا نطق الكتـاب بـ«رجـلين» أَحـدهما من شِيعته، أي من بني إسرائيـل، والآخَرُ من عَدُوّه لكونـه من القِبْط؟!

(*) شـرح قـصة موسى عليه السّلام في: تنزيه الأنـبياء للشريف المرتضىٰ: ٦٧، وعَرَائِس المجـالس: ١٧٢، وابـن كـثير ٢: ١٢، وتـفسير الطبري ٢٠/٢٨، وتـاريخ الطبري ١: ٣٩٠، وتـفسير القرطبيّ ١٣: ٢٥٩.

(١) القصص: ٢٨/١٥

(٢) القصص: ٢٨/١٥

فنقـول: ومن أين علمتمُ أيـضاً أنّ أحـدهما [كان] قبطياً والآخـر [كـان] سِبطيّاً، والكتـاب إنّمـا نَطـق برجـلين؟!

فـإن قـالوا: لقـوله تعـالى: ﴿هٰـذا مِن شِيْعَتِهِ وهٰـذا مِن عَدُوِّهِ﴾ والشّيعـة: القبيلُ والرَّهـط، فمن أين نَقلتـم الحقيقةَ إلىٰ المَجـاز، ومن أين صحّ لكـم العِلمُ بكـفر أحـدهما وإيمـان الثّـاني؟!

فنقـول: علمنا ذٰلك من ثـلاثة أوجـه:

أحدهــا: أنّ شيعة الكـافر قبيلهُ ونسيبُه وصِنفه. وشيعـة المؤمـن إنّما هـو شريكُه في الإيمـان؛ كـانَ من قـبيله أو من غير قـبيله. قـال تعـالىٰ[٣]: ﴿إِنَّمَـا المُؤمِنُوْنَ إِخْوَةٌ﴾.

وقـال في قـصّة إبـراهيم عليه السّلام مع أبـيه[٤]: ﴿فَلَمَّـا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّـهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وقـال في الكَفـرة[٥]: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُـمْ يومَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُوْنَ﴾.

وقـال تعـالىٰ[٦]: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أَخِيْهِ. وأُمِّـهِ وَأَبِيْهِ. وصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ﴾.

والمرءُ هـذا: الكـافر، بـدليل قـوله تعـالى[٧]: ﴿الأَخِـلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُـمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلّا المُتَّقِيْنَ﴾.

والأَخِـلّاء هُنـا المُؤمنـون.

---

(٣) الحُجـرات: ١٠/٤٩
(٤) التوبـة: ١١٤/٩
(٥) المُؤمنـون: ١٠١/٢٣
(٦) عبس: ٣٤/٨٠ ـ ٣٦
(٧) الزُّخـرف: ٦٧/٤٣

وقال تعالى(٨): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غِلٍّ إِخْوَاناً عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ﴾.

وقال تعالى في الكافر(٩): ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾.

إلىٰ قوله: ﴿يَا لَيْتَنِيْ لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيْلاً﴾.

إلىٰ غير ذٰلك ممّا جاء في الكتاب والسُّنة من تبرّيء المؤمن من الكافر. ومجموعُ هذا يدلُّ على أَنَّ الذي استغاثَ بموسىٰ عليه السلام كان مُؤمناً علىٰ بقايا من دينِ يُوسف عليه السَّلام.

قال تعالىٰ(١٠): ﴿وقَالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ﴾.

فكان في بني إسرائيل وفي القِبط مُؤمنون يكتُمون إيمانهم. فكان هذا الرَّجُل المُستغيث بموسى عليه السلام منهم.

الثاني: قول الله تعالى لأُم موسى عليه السَّلام(١١): ﴿يَأْخُذهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾.

ومعلومٌ قطعاً أنَّ الله تعالى ما سَمّى فرعون عَدُوّاً له ولنبيّه إلا لأجل كُفره، فخرج من هٰذا أنّ هذا القَبيل إنّما كان عدوّاً لموسىٰ عليه السَّلام من أجل كُفره، ولو اجتزأنا بهذا الدّليل لاكتفَينا به عمّا سواه.

الثالث: أنّ الله تَعالىٰ قال: ﴿هٰذا مِن شِيْعَتِهِ وهٰذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فلو كانَ المقصودُ بالشّيعة القَبيل لَقُوبل في النَّقيض بقبيلٍ آخرَ لا بالعَدُوّ، فإنّه ليس من وصفِ مَن لم يكن من القَبيل أنْ يكونَ عَدُوّاً، ثم قد يكون

(٨) الحجر: ٤٧/١٥.
(٩) الفرقان: ٢٧/٢٥ ـ ٢٨.
(١٠) غافر: ٢٨/٤٠
(١١) طه: ٣٩/٢٠

العدوُّ من القبيل، بل من الأَخ والوَلد؛ قال الله تعالى[١٢]: ﴿يَا أَيُّها الّذِيْنَ آمَنُوا إنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فاحْذَرُوْهُمْ﴾. فصحّت عَداوةُ الدّينِ مع ثُبوتِ النَّسب.

فيخرج العدوُّ هنا مخرج قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ حرفاً بحرف وكذلك قوله تعالى[١٣] ﴿فاسْتَغاثَهُ الّذي من شِيْعَتِهِ عَلىٰ الَّذِيْ مِن عَدُوِّهِ﴾ فخرج من مضمون هذا أَنّ موسى عليه السّلام وكَزَ الكافرَ العدوَّ لأَجل كُفره لا لغير ذلك؛ إِذْ ليسَ للهِ تَعالىٰ شيعةٌ ولا قَرابة؛ سُبحانه وتعالى، وقد أثبت لنفسه عدواً.

فإن قيل: فإذا كان هٰذا هٰذا، فلِمَ ندم على قَتَله وتحسَّر واستغفرَ ربّه وغفر له، ومع هذا يمتنع يومَ القيامة من الشَّفاعة لأجل هذا المقتول، ويقولُ مُعتذراً ومعترفاً: «قتلتُ نفساً لم يأمرني الله بقتلها»؟ وأيضاً فإنّ الله تعالىٰ عاتبَه في الدنيا عند المُناجاة فقال له[١٤]: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾.

فكيف يُعاتب كليمه علىٰ قتلِ كافر؟!

وأَيضاً فقد قال هو لفرعون حين عَرَّض له بقتل القِبطي فقال[١٥]: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الّتي فَعَلْتَ وأنت من الكافرين، قالَ فَعَلْتُهَا إذاً وأنا مِنَ الضَّالِّيْنَ﴾.

فنقول: أمّا قولكم: لِمَ ندم وتحسَّر واعْتَذر واستغفر وغفر له فهذا من النّمط الذي قدَّمناه في حقّ غيره من الأَنبياء عليهمُ السَّلام أَنهم يتحسّرون ويَندمون ويَستغفرون على ترك الأَوْلَىٰ من المُباحات. فلا فائدة في إعادة تفصِيل ما فَرغنا من جُملته وتَفصيله.

---

(١٢) التغابُن: ١٤/٦٤

(١٣) القصص ١٥/٢٨

(١٤) طه: ٤٠/٢٠

(١٥) الشعراء: ١٩/٢٦ ـ ٢٠.

عـلى أنّ نـدم موسى عليه السّلام لم يـكن على مُـباح، وإنـما كـان نـدمه على فعـلٍ لم يُؤمر به. والأفعـال قـبل الشّرع إنّمـا هـي مطلقةٌ لا غـير. فـإن المبـاح يقتضي مُبيحـاً، فـإذا لـم يَثـبت شرعٌ فلا مُبَاح ولا مُبِيح.

وهـذا أوسعُ في عـذر موسىٰ عليه السـلام، إذ لم يـكن مشروعاً له عنـدما قَتَـله. وإن كـان قد الْتَزَمَ شريعةَ يُـوسف عـليه السَّلام علىٰ وجـهٍ من الوُجـوه، فَتُخَـرَّجُ له على الوَجْهِ المُتقَدِّم.

وأمـا قولكم: إنَّ الله تعـالى عاتَبه عند المُناجـاة على قتلِ القِـبطيّ فبـاطل، وإنمـا عَدَّد ربُّه تعـالى عليه في ذلك المقـام الكـريم نِعَمـه السّالفة عـليه وآلاءه العميمـة في قـوله تعـالى(١٦): ﴿إِذْ أَوْحَيْنَـا إِلىٰ أُمِّـكَ مَا يُوْحَـى.أَنِ آقْذِفِيْـهِ فِي التَّـابُوتِ﴾ إلىٰ قـوله تعـالى(١٧): ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيْ﴾ ثـم ذكـر له من جُملتهـا كـيف نجّـاه من كـيد فِرعـون، وغمٍّ كـان في قـلبه من أجـل طـلبه إيـاه حـين فرَّ بنفسه منه.

ولو عـاتبه ربُّه علىٰ ذلك لخـرج له مخـرج ما قـدّمناه من عتـاب الله تعـالى لأنبيائهِ عـلىٰ بعض المُبَاحـات، من غير أن يـلحق بهـم ذنبٌ ولا عَتب.

وأمّـا قـوله عـليه السلام لفرعـون: ﴿فَعَلْتُهَـا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّيْنَ﴾ فيعني به: أنه كـان عندما قتَله من الغافِلِين الغير مكـلفين(١٨). فكأنـه يـقول له: فعلتُهـا قـبل إلزام التكـليف، وإذ كنتُ غيرَ مكلّـف فلا تثريبَ عليّ؛ فـإنـه لا يقعُ الذّنـب والطّاعـة إلا بعد ثُـبوت الأمـرِ والنَّهـي. والدليلُ علىٰ أنّ ضلال الأنـبياء غَفـلةٌ لا جهـلٌ قـوله تعـالى لنـبينـا عليه السلام(١٩): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ

---

(١٦) طه: ٢٠/٣٨ ـ ٣٩.
(١٧) طـه: ٢٠/٤١
(١٨) الفـصيح أن يُقـال غير المكـلفين؛ ورووا: الغـير المكلّفين.
(١٩) الضحـى: ٩٣/٧
ووجـدك ضـالاً: أي غافـلاً عمّا يُراد بـك من أمـر النبوة، فهـداك أي فأرشـدك. والضـلال هنـا =

فَهَدَىٰ﴾ يعني غافلاً عن الشّريعة لا تدري كيفيّة العبادة فهداك لها بالأمر والنَّهي. ثم قال له [٢٠]: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذا القُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾.

والجاهل لا يُسَمَّىٰ غافِلاً حقيقةً لقيامِ الجهل به؛ فصحّ أَنّ ضلال الأنبياء عليهم السَّلام غفلةٌ لا جَهْل.

وقال بعض مشايخ الصُّوفيّة: (وَجَدَكَ ضَالّاً) أي مُحِبّاً له[٢١]، (فَهَدَىٰ) أي اختصّك لنفسِهِ خصوصَ الهدايةِ والصُّحبة.

يعضد ذلك ما أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام[٢٢] ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ﴾ أي في حُبّ مبين ليوسف. وكذلك قولُهم له بعد ذلك[٢٣]: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القَدِيْمِ﴾. أي في حُبّك القديم له. ومن أسماء المحبّة عند العَرب. الضَّلال.

ومع ما ذكرناه في هٰذه القِصّة من تبرئةُ مُوسىٰ عليه السّلام من الذّنب في قتلِ الكافِرْ أنّ قتله كان خطأً. فإنّه ما طعنه بحديدةٍ ولا رماهُ بسهمٍ،

= بمعنى الغفلة، كقوله تعالى: ﴿لا يضِلّ ربّي ولا ينسى﴾. أي لا يغفل. وقال في حقّ نبيّه ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾.
- وقال قوم: ضالاً: أي لم تكن تدري القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن. وشرائع الإسلام. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾.
- وقال قوم: أي في قوم ضلال، فهداك إلى إرشادهم.
- ورويت وجوه أخرى كثيرة (القرطبي ٢٠/٩٦ - ٩٩).

(٢٠) يوسف: ١٢/٣

(٢١) في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وقيل: ووجدك محبّاً للهداية، فهداك إليها. ويكون الضلال بمعنى المحبّة. ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تا الله إنّك لفي ضلالك القديم﴾ أي في محبّتك. قال الشاعر:

هذا الضَّلال أشاب منّي المفرقا ... والعارضين ولم أكن متحقّقا
عجباً لعزّة في اختيار قطيعتي ... بعد الضلال فحبلها قد أَخْلَقَا

(٢٢) يوسف: ١٢/٨

(٢٣) يوسف ١٢/٩٥

ولا ضَربه بفِهْرٍ[٢٤] ولا بغيره، وإنما وكَزه، وما جرت العادة بالموت من الوَكْزَة، وإن مات منها أحدٌ فنادِرٌ، والنّادر لا يُحكم به. فقد تبرّأ موسىٰ عليه السلام من الذّنب في قتلِ الكافر براءة الذئب من دم ابنِ يعقوب عليهما السَّلام!

(٢٤) الفِهر: الحَجرُ يملأ الكفّ.

شرح قصة يونس[*] عليه السلام

في قوله تعالى[1]: ﴿وَذَا النُّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْه﴾ الآية.

فممّا اختلقُوه عليه[2] - عليه السّلام - في شرح هٰذه الآية أنْ قالوا: أنّه جاءه المَلَكُ بالوحي وهو يتعبّد في الجَبل فقال له: إنّ الله تعالى أمرني أن أُعلِمك بأنه أرسلك إلى أُهل نِيْنَوىٰ، لتحذّرهم وتنذرهم. فقال له يونس عليه السّلام: الله أَرْفَقُ بِي، وأَعْلَمُ بِضَعفي ومَسكنتي، من أن يُرسلني إلى قومٍ جَبّارين مُتكبّرين، يُؤذونني ويقتلونني. فراجعْ رَبّك أيُّها المَلك في أمري، فلعلّه يُعفيني من ذُلك ويلطف بي! فقال له الملك: الله تعالىٰ أعظم من أن أراجعه فيما أمرني به، وقد أمرتك، فسَلْ أنت ربك ذلك إن شئت، فقد بَلّغتك والسّلام. ثم صار المَلك إلى مقامه ففرّ إذْ ذاكَ يُونس - عليه السلام - على وجهه إلى جهةِ البَحر مُغاضباً لربه، وركب السفينة فالتقمه الحوت.

ومنهم من قال: إنه بلّغ قومه الرّسالة، فسبُّوه وضربوه وأَغْلَوا في أذيّته، فدَعَا عليهم، فأخبره ربُّه أنه ينزل البلاء عليهم في يوم كذا، فأخبرهم بذلك، فلمّا كان في ذلك اليوم، خرَج إلى أعلى الجبَل وقعد ينتظر الوعد، فإذا سحابةٌ عظيمة سوداء قد جاءت من ناحية البحر حتى

(*) شرح قصة يونس عليه السلام: في تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٩٩، وعرائس المجالس: ٤٠٦، وابن كثير: ٣٩٠، وتفسير الطبري ١٧: ٤٨؛ وتاريخ الطبري ٢: ١١، وتفسير القرطبيّ ١١: ٣٢٩.

(١) الأنبياء: ٢١/٨٧

(٢) ذو النون لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون (الحوت) إيّاه.

قربت من البلد، ثم جاءت ريحٌ فهبت في وجهها فردّتها عنهم، فخرج فارّاً مغاضباً لربّه حيث ردَّ عنهمُ البَلاء.

فهذا من بعض أقوالهم الخبيثة في قصة يونس عليه السَّلام.

ومُقتضىٰ هاتين الكذبتين عليه أنّه سخط أحكامَ رَبِّه، ولم يَرْضَ بقضائه، ولا أَذْعَن لحكمه!

وحاشى وكلّا أن يفعل ذلك أنبياءُ الله تعالى مع العِصمةَ والنَّزاهة فيما دون ذلك كما قدمناه.

فإنَّ غضب العبد على ربه إنّما هو ألَّا يَرْضَى بحكمه ولا بإرادته. وهذه هي المُنَاقضة والكفر الصُّراح.

قال تعالى لنبيّنا عليه السلام[٣]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُوْنَ حَتَّى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

فنفىٰ الله الإيمان عَمَّنْ لم يَرْضَ بحكم الله تعالىٰ وحكم نبيّه عليه السّلام. وقال عليه السّلام في دُعائه[٤]: «لَكَ العُتْبىٰ حتىٰ تَرْضىٰ». والأَمْرُ أظهَرُ من الاستدلالِ عليه.

فصل

فإن قيل: إذا لم تصح هٰذه المُغَاضَبَة لربّه على هذا الوجه، فما الصَّحيح الذي يُعَوَّلُ عليه فيها؟! وكذلك المطالبة في لَوْم الله

---

(٣) النساء: ٤/٦٥

(٤) لك العُتْبىٰ: الرُّجوع مما يكره إلى ما يحبّ.

ـ والدّعاء بتمامه في السيرة النبوية (١: ٤٢٠) وذلك في خبر وفوده عليه الصلاة والسلام على ثقيف في الطّائف.

تعالى له حيث قال[٥]: ﴿فَالْتَقَمَهُ الحُوْتُ وَهُوَ مُلِيْمٌ﴾. وكذلك في قوله تعالى لنبيّه عليه السّلام[٦]: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوْتِ﴾.

وكذلكَ في قولة نبينا عليه السّلام[٧]: حُمِّلَ أَخِي يُونس أعباءَ الرِّسالة فانفسخ تحتها كما ينفسخُ الرُّبَعُ.

قلنا: أما مُغاضبته عليه السّلام، فكانت لقومه لا لِرَبِّه ولا يجوزُ ذلك عليه، وأنّى وقد جاء في الخبر أنّه عليه السّلام قال[٨]: «والَّذِي نفسِي بيده لو لم يبلِّغ نبيٌّ الرسالة إلى قومِه لَعُذِّب بعذابِ قومِه أجمعين»؛ ـ نقل على المعنى ـ وإنّما كانت لقومِه لِمَا نالَ مِنهم من الأذيّة، فاحتمل أذاهُم حتّى ضاق صدره، ويئس من فلاحهم، ففَرَّ بنفسِه بعدما بَلَّغ غاية التّبليغ كما أمره الله تعالى.

ثم غلب ظنّه لسعة حلم الله تعالى ألّا يطلبه بذلك الفِرار لكونه قد أدّى ما عليه، وهو معنىٰ قوله تعالى[٩]: ﴿فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي أن لن نضيّق عليه. قال تعالى[١٠]: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّقَ. وقال تعالى[١١]: ﴿أَولَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يُضَيِّق.

---

(٥) الصافّات: ١٤٢/٣٧

(٦) القلم: ٤٨/٦٨

(٧) نقل القرطبي: في الخبر في وصف يونس عليه السلام أنه كان ضيّق الصّدر، فلما حمل أعباء النبوّة تفسّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحِمل الثقيل، فمضى على وجهه مضيّ الآبق النادّ.
ـ وفي اللّغة، تفسّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل وذلك إذا لم يُطقه.
والرُّبَع: ما ولد من الإبل في الرَّبيع.

(٨) حديث.

(٩) الأنبياء: ٨٧/٢١

(١٠) الطّلاق: ٧/٦٥

(١١) الزُّمر: ٥٢/٣٩

ويُحتمل أنه ظنّ أن قدرة الله تعالى لم تتعلّق بإيلامِه وسجنه تفضّلاً منه، وأنّه تعالى يعفو عنه في ذلك الفِرار، فوقَع خلافُ ظنّه.

وهذا هو الّذي يجوزُ أن يَعتقده الأنبياء، وأن يُعتقد فيهم.

وقال الفَجَرة: إنّه ظنّ أن لا يقدر الله عليه، أي لا يُمكنه أن يفعل فيه. وهذا كفرٌ صُرَاح لا يمكن أن يعتقده مقلّد في الإيمان، فكيف نبيّ؟

وقد تذاكرت مع طالبٍ من طلبةِ الأَنْدَلُس ملحوظ بالطَّلب، فقال لي ذلك وبالاجماع أَنه من ظَنّ أَن لّا يقدر الله - عزّ وجل - عليه على وَجه العجز عنه أو الفَوْتِ من قَضائه وقَدَرِه فهو كافر.

وأمَّا قوله تعالى(١٢): ﴿فالْتَقَمَهُ الحُوْتُ وَهُوَ مُلِيْمٌ﴾ أي أتى ما يُلام عليه. وليسَ كلّ من أتىٰ ما يُلام عليه يَقعُ لَوْمُه. فإن كان تعالى لم يَلُمْه، فقد انْدَفع الاعتراض لعدم اللَّوم. والأظهر أنه لم يَلُمه، إذْ لو وقع اللّومُ لقال: وهو مَلُومٌ، وإنْ كان لامَهُ فاللَّومُ قد يكون عِتاباً، وقد يكونُ ذَمّاً، فإن صحَّ وقُوع لومه فكان من الله عتاباً له على فِراره لا ذَمّاً، إذ المُعاتَبُ مَحْبُور(١٣) والمَذمومُ مدحور.

فاعلْم - رحمك الله - صحّة التَّفرقة بين اللّوم والذّم. قال الشَّاعر(١٤):

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بالعِلَلِ!

وقال آخر(١٥):

إذا ذَهَب العِتَاب فليس وُدٌّ ويبقىٰ الودُّ ما بَقِيَ العِتَابُ

---

(١٢) الصافات: ١٤٢/٣٧

(١٣) مَحْبُور: مسرور، ومُنْعَمٌ عليه.

(١٤) البيت للمتنبّي في ديوانه (بشرح العكبري) ٣: ٨٦، وقدسبق.

(١٥) البيت في التمثيل والمحاضرة: ٤٦٥، وفي الأمثال والحكم للرّازي: ١٠٣، ولم ينسباه.

وقـال آخـر(١٦):

لو كنتِ عاتِبَتِي لسَكَّن لَـوعتي أمـلي رضـاك وزُرتُ غيرَ مُرَاقَبِ
لكنْ صددتِ فما لصدِّك حيلةٌ صَدّ المَلُولِ خـلافُ صَدّ العاتِب

ألا تـرى كـيف قـال الله تعـالى(١٧): ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَـه نِعـمةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بالعَـراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معنـاه: لولا ما عصمناه ورحـمناه لأتىٰ ما يُذَمُّ عليه على أَصلِ الجـواز لا عـلى فَرع الوُقوع.

وهـذا من النّمـط الذي قدّمنـاه في قـصة إبـراهيم ـ عـليه السلام ـ حـيث قـال(١٨): ﴿وَاجْنُبْنِيْ﴾ وهـي أن يعبُدَ الأصنـام وهو قد أمِنَ من ذلك بالخَبر. وقـوله تعـالى في قـصة شعيب ـ عـليه السَّلام(١٩) ـ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَـا أَن نَعُود فِيْهَا إلّا أَن يَشَـاء الله رَبُّنَا﴾ الآيـة. وقـوله تعـالى لنبينـا ـ عليه السَّلام(٢٠) ـ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك﴾ وهـو تعـالى لم يـشأ ذلك، بالخـبر.

وأمّـا قولُه تعـالى لنبينا عـليه السَّلام(٢١): ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّـكَ وَلَا تَكُـنْ كَصَاحِبِ الحُـوْتِ﴾ يعني كيونـس عليه السّلام في فِراره حـين ضاقَ صَدْرُه كما قَدَّمنـاه. وقـال تعـالى(٢٢): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنّـك يَضِيْقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُـولُوْنَ﴾ كما ضـاق صدر يونس فلا تفرَّ كفـراره.

ولـذا جـاء عنـه عـليه السَّلام(٢٣): «لا تُفَضّلُوني على يُونـس بن مَتّـى»

(١٦) لم أعثر عليه.
(١٧) القـلم ٦٨/٤٩
(١٨) إبـراهيم: ١٤/٣٥
(١٩) الأعـراف: ٧/٨٩
(٢٠) الإسـراء: ١٧/٨٦
(٢١) القـلم: ٦٨/٤٨
(٢٢) الحـجر: ١٥/٩٧
(٢٣) في صحيح مسـلم (٤: ١٨٤٤) من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنه عن النبـي صلى الله عـليه وسلّم أنّـه قـال: «لا تفضّلوا بين أنبياء الله... ولا أقـول إنَّ أحـداً أفـضل من يونـس بن:=

لما قيل له: ﴿ولا تكنْ كصاحِبِ الحُوت﴾ فنهاه أن يفعلَ فعله في قصّة مخصوصة خاف على قُلوبِ عَوامِّ أُمّته من اعتقادِ هذه القولة على خلاف ما هي به، فيعتقدون أنّها نهيٌ له على العُموم، وحاشى وكلا، وكيف يصحُّ فيها العُموم وقد أَمره تعالى أن يتخلّق ويقتدي ويهتدي بأخلاقِه وأخلاقِ نُظَرائه عليهم السَّلام، حيث قال له(٢٤): ﴿أُولئك الَّذِيْنَ هَدَىٰ الله فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ﴾ فقال ذلك والله أعلم.

وأما قوله عليه السّلام(٢٥): «حُمِّل أخي يونس أعباء الرسالة فانفسخ تحتها كما ينفسخ الرّبع» الحديث فهو في هذا المعنى أنّه كُلِّف مقاساة الجَهلة، والصّبر على الأَذِيّة(٢٦)، فضاق صدرُه بذلك ولم يَحتمله ففرّ!

وعلى هذا يَنبغي أن تُحمل هٰذه الأَقوال، وعلى ما هو أَغمض وأعلى في التَّبرئة من هذا، لا وقُوّة إلا بالله.

= متّى عليه السلام». وفي صحيح مسلم أيضاً (٤: ١٨٤٦) من حديث ابن عبّاس رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى».

(٢٤) الأنعام: ٦/٩٠

(٢٥) سبق الحديث (وانظر فهارس الكتاب).

(٢٦) رسمت الكلمة هنا، وفي مواضع أُخر (أذاية) وصوابها أذيّة؛ ويقال أذاة أيضاً. وعددتها من سهو الناسخ.

شرح قصة أيوب(*) عليه السلام

في قوله تعالى[١]: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

فممّا قالوه في سبب محنته عليه السلام، وهو أسلمُ ما نَسَبُوه إليه من الأقاويل، أنّه شوى حَمَلاً في منزلِهِ، وكان بإزائه جارٌ فقيرٌ، فتأذّى برائحة طعامِهِ ولم يُنِلْه منه شيئاً، فامتحنه الله تعالى بأن سلّط عليه الشّيطان!

ومنهم من قال: إنه دخل يوماً على مَلِكٍ جَبّار، فرأى في منزله مُنكراً فلم يغيّره، فلذا امْتُحِن!

وهاتان القولتان من أشبه[٢] ما قالوه في مِحنته عليه السلام. فأوّل ما يُطلبون بِهِ إثباتُ دعواهُم، وهم لا يُثبتونها في كتابٍ ولا سُنّة، سوى ملفقات من قَصَصِيّات هي أوهىٰ في الثُّبوت من خَيط العنكبوت!

فاخترنا الكلام في هاتين القصّتين لكونهما مما يصحّ معناهُما لو صَحّ أَثَرُهما. فلو صحّ ما قالوه من القَولتين أو إحداهُما لتصوّر الخُروج عنهما بأحسن مخرج.

فأمّا قصّة الحَمَل، فقد يكون يغلبُ الظنّ أن جاره ليس يحتاج إليه في ذلك الوقت، وقد نعلم[٣] أنّه يمكنه أن يصنع مثل ذلك، فإنّ ثمن الحَمَل

(*) شرح قصة أيوب (ع) في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضىٰ: ٥٩، وعرائس المجالس: ١٥٣، وابن كثير: ٣٦٧، وتفسير الطبريّ ٢٣ : ١٠٦، وتاريخ الطبري ١ :٣٢٢، وتفسير القرطبيّ ١٥ : ٢٠٧

(١) ص ٣٨/ ٤١ ـ ٤٢

(٢) يعني من أخفّ ما اختلقوه، وهناك ما هو أدهى وأمرّ!

(٣) في الأصل المخطوط «نعلم» غير معجمة.
ولعل المعنى: «وقد نسلّم» أي نسلّم جَدلاً؛ واستجراراً للكلام.

يسير، وليس كلُّ فقير مُملقاً، وقد يُحتمل أنّه نَسِي أن يُواسيه منه، وليس يلحقه في ذلك عَتب ولا ذنب، على أنّه لو تَرك إعطاءه قاصداً لم يكن مُذنباً، فإنّ مؤاساة الجار مندوبٌ إليها، ومَن ترك المَنْدُوب فلا ذنب عليه.

وأما قولهم: إنه لم يغيّر المنكر علىٰ الملك الجبّار، فعينُ هذا القول عذرٌ عنه. فإنَّ لزوم تغيير المُنكر إنّما هو مع الإمكان؛ قال تعالى(٤): ﴿الَّذِيْنَ إن مَكَّنَّاهُم فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ﴾. فلما علم جبروت(٥) الملك خاف على نفسه، ولم يُمكنه تغييره بظاهِره لئلاّ يقع من الجَبّار منكرٌ أكبر مِمّا رآه في منزله، فغيّر بقلبه.

ويُحتمل أن يكون ذلك الملك لم يكن من أُمّته، ولا أُرسل إليه، فلم يغيّر عليه، إذ لا يَلزمه ذُلك.

كما مَرّ موسى عليه السّلام على قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم فغيّر على قومه ولم يُغيّر عليهم، لكونه لم يُرسل إليهم؛ فإنّ النبيَّ لا يلزمه التّغيير إلاّ على من أُرسل إليه.

فقد خرجت القَولتان بحمدِ الله على أحسن مخرج إذا صَحّتا.

وأمّا قوله(٦): ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ أي ببلاء وشر. جاء في خبر يطول ذكره، فلنذكر منه ما لا بدّ من ذكره.

وجاء في الأثر أنّ الشيطان تحدّاه بأنه لو سُلّط عليه لَضَجِرَ وسَخِطَ حُكْمَ الله تعالى، فسُلّط على مالِه وولده وجَسده إلا قَلبه ولسانه فصبر صبراً أثنى الله به عليه إلى يوم القِيامة في قُرآنٍ يُتلىٰ، فقال تعالى(٧): ﴿إنّا

---

(٤) الحج ٢٢/٤١

(٥) في الأصل المخطوط: جبريّة. ورجحت ما رجّحه السّياق.

(٦) ص ٣٨/٤١

(٧) ص ٣٨/٤٤

وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وبقي الشّيطان خائب الصّفقة خَزيان. فلمّا نادى ربه شاكياً بالشّيطان وبما ناله منه، أجابه بالإقالة من شَكِيّته وأمره أن يركض الأرض برجله حتى يُرِيَهُ بركةَ صبره فقال(٨): ﴿اركُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغتسَلٌ باردٌ وَشَرابٌ﴾ فعجّل له في الدُّنيا مِثلاً لعين الحَياة التي بين الجنّة والنّار يغتسل فيها المعذَّبون ويشربون منها فيخرجون مُطَهَّرين من كل بؤسٍ ظاهراً وباطناً. كما جاء في الخبر(٩).

فمسّ أيُّوب عليه السّلام الأَرضَ برجله فنبَع منها الماء فشرب منه فبرىء ما كان في باطنه من دقيق السّقم وجليله، واغتسل فبرىء من ظاهره أتمَّ براءة، فما كان يُرسل الماء على عضو إلاّ ويعودُ في الحين أحسن ما كان قبلُ، بإذن الله تعالى.

وردّ الله عليه ما له وولده، ووُلِدَ له مثلُ عددهمْ.

قال الله تعالى(١٠): ﴿وآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾.

وهذه القصة على رونق فيها لكونها متعلقة بالكتاب جائزة في العقل، لكنها غير لائقة بمنصب النبوة. وحاشى لله أن يسلط عدوه على حبيبه بمثل هذه السّلطة حتى يتحكم في ماله وولده وجسده بالبلاء والتّنكيل.

وأما تعلُّقهم فيها من الكتاب العزيز فبقوله تعالى أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

---

(٨) ص ٣٨/٤٢

(٩) في صحيح مسلم (١ : ١٧٢) من حديث أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «يُدْخِل الله أهلَ الجنّة الجنّة، يُدْخِلُ مَنْ يشاء برحمته؛ ويُدْخِلُ أهلَ النّار النارَ؛ ثمّ يقول: انظروا مَنْ وَجَدْتم في قلبه مثقال حبّه من خَرْدَل مِن إيمان فأخرجوه؛ فَيُخْرَجونَ منها حُمَماً قد امْتَحَشُوا فَيُلْقَوْنَ في نَهْرِ الحياة ـ أو الحَيَا ـ فَيَنْبُتونَ فيهِ كما تَنْبُتُ الحبَّةُ إلى جانب السَّيْلِ، ألم تَرَوْها كيف تخرج صفراء ملتوية؟!» قوله: قد امْتَحَشُوا؛ أي: قد احترقوا.

(١٠) الأنبياء: ٢١/٨٤

وليس لهم حُجّةٌ في هذا القَول، فإن الأنبياء عليهم السلام، إذا مسَّهم ضُرٌّ نسبَوه إلى الشَّيطان، على جهة الأدب مع الحق، سبحانه لئلاّ[١١] ينسبوا له فِعلاً يُكْرَهُ، مع علمهم أنّ كُلاًّ من عند الله.

قال الخليل عليه السّلام[١٢]: ﴿وَإذا مَرِضْتُ فَهُو يَشْفِيْنِ﴾.
وقال الخضر عليه السّلام[١٣]: ﴿فأَرَدْتُ أن أعِيْبَهَا﴾.
وقال الكليمُ عليه السّلام[١٤]: ﴿هٰذا مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.
وقال فتاه عليه السلام[١٥]: ﴿وَمَا أنْسَانِيْهُ إلاّ الشَّيْطَانُ﴾.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم[١٦]: «والخير كلُّه في يديك، والشر ليس إليك».

يعني ليس إليك يُضاف وصفاً لا فِعلاً، وإنْ كان الفعل كلّه من عند الله.

وقال تعالىٰ[١٧]: ﴿بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

فخرج من مجموع ما ذكرناه أن تعلّقهم بالآية في كل ما زَوّرُوه من الأقاصيص غيرُ صحيح.

فصل

[استطراد إلى قصّة مريم وتبيين أنَّ مقامَهَا عند هَزِّ الجِذْعِ ليسَ أقلّ من مقامها في الغُرْفة]

(١١) في الأصل المخطوط: ألا. وقد سبق للناسخ أن صحّف مثل هذه الكلمة.
(١٢) الشعراء ٢٦/٨٠
(١٣) الكهف ١٨/٧٩
(١٤) القصص: ٢٨/١٥
(١٥) الكهف: ١٨/٦٣
(١٦) في صحيح مسلم (١: ٥٣٥) من حديث طويل برواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(١٧) آل عمران: ٣/٢٦

وهنا نكتةٌ شريفة يجب الاعتبارُ بها في قصّة مريم عليها السّلام عند هَزّ الجذع، وهي معضودةٌ بقصّة أيُّوب عليه السَّلام في بَركة ركضه، وبركات بعضِ الأنبياء فيما لمسوه وركضوه وضربوه. وذلك أنّ مُعظم أهل الإشارة رحمهم الله أَصْفَقُوا(١٨) على أن مريم عليها السلام كان مقامها في الغُرفة أعلى ممّا كان عند النّخلة.

واستدلُّوا على ذلك بما جاء في الخَبر عن الرّزق الذي كان يجدُ عندها زكريا عليه السلام، إذ كان يجدُ عندها فاكهةَ الشّتاء في الصّيف، وفاكهةَ الصّيف في الشتاء. فكان يأتيها بلا سبب، فلمّا نظرت إلىٰ عيسىٰ عليه السّلام حين ولدته أَحَبّته(١٩)، فأُمِرت بالكَسب في هَزّ النخلة لكونها رَجعت من جمعٍ إلى تَفريق.

وقالوا في هذا وأطنبوا(٢٠)، وأنشدوا الأَبيات المشهورة على قافية الباء، إلى غير ذلك. وهذه رحمهم الله وهلةٌ منهم وغفلةٌ عن الأَوْلىٰ والأَحْرَى في حَقّ تلك الصِّدِّيقة.

وأوّلُ ما يُعترض به عليهم أنْ يقال لهم: مِن أين يَحكمون عليها أنّها لما رأت الولد تَفرّقت بميلِ قلبها إليه؟

وهذا لا يصح إلّا بتوقيف، والتّوقيفُ في ذلك معدومٌ، وبِمَ تَرُدُّون على من يدعي نقيضَ دعواكم؟ ويُبَرهن عن ذلك أنّ مريم عَليها السّلام ما كانت قطُّ في مقامٍ هو أعلى من مقامها في تلك الأزمة على تلك الحالة،

(١٨) أصفقوا: أجمعوا.

(١٩) روى القرطبي (٩٦/١١) قال: قال علماؤنا: لمّا كان قلبها فارغاً فرّغ الله جارحتها عن النّصب (التّعب) فلمّا ولدت عيسى وتعلّق قلبها بحبّه، واشتغل سرّها بحديثه وأمره وَكَلَها إلى كسبها، وردّها إلى العادة بالتعلّق بالأسباب في عباده.

(٢٠) سيذكر المؤلّف ـ رحمه الله ـ أنّ أوّل الشّعر الذي أنشدوه في مريم عليها السّلام:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أوْحىٰ لِمَرْيَمٍ ... إليكِ فَهُزّي الجِذْعَ تَسّاقَطِ الرُّطَبْ

ولم أعثر علىٰ الشّعر بتمامه.

وعلى قدر الأزمات يأتي الفرج، وذلك أنَّها قُبضت(٢١) في ذلك المقام من سبعة أوجه:

أحدها: أنْ خاطبها المَلَكُ على ضعفها وصغر سِنّها ووحدتها في الفَلاة، وهذا أمرٌ لا يتخيّل ما يكون فيه إلّا مَنْ دَهَمه.

الثّاني: أنّه كان أوّل خطاب خُوطبت به. وقد جاء في الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا خاطبه الملك في أوّل مرة كاد أن يتردّى من حالِق الجبل خيفةً من فَجْأةِ المَلَكِ وفجأة الخِطاب(٢٢)، وكان عليه السّلام في ثاني حالٍ يأتيه الوحي في اليوم الشّديد البرد فيتفصّدُ عَرقاً هيبةً من فجأة الوحي وإعظاماً للمَلَك(٢٣).

الثالث: أنْ أخبرَها بأنّها تلدُ من غير فَحل، وهذا ممّا يَعْظُم سماعُه لكونه غيرَ مُعتاد لا سيّما لِمثلها.

الرّابع: طريان(٢٤) المخاض عليها وآلامه التّي تُوازي آلام الموت لا سيّما أوّل مخاض.

الخامس: وهو أشدّ عليها من كل ما وقع، وهو ما يَصِمُهَا النّاس به من المَلامة والأذيّة وإقامة الحدّ عليها وهي بريئة.

السّادس: وهو أشدُّ عليها من أذيّتها، وهو ما يلحق قومها من

---

(٢١) في الأصل المخطوط: قبضت؛ وفي آخر الفقرة سيقول المؤلف: «فهذه سبع قوابض لو سلّط أحدها على جبل لتصدّع».

(٢٢) الّذي ورد في مسند الإمام أحمد(١: ٢٣٣)أنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلّم فَتَرَ الوحيُ عنه فترةً بعدَ أن فاجأه لأوّل مرّة، حتىٰ حزن حزناً شديداً غَدَا منه مِرَاراً كي يتردّىٰ من رؤوس شواهق الجبال، فكلمّا أوفىٰ بذروة جبلٍ تبدّىٰ له جبريل فقال: يا محمّد إنّك رسول الله حقّاً، فيسكّن ذلك جأشَهُ وتَقَرُّ عَيْنُهُ فَيَرْجِع.

(٢٣) وجاء في مسند أحمد أيضاً (٥: ٢٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «... ولقد رأيتُهُ ينزل عليه (تعني الوحي) في اليوم الشّديد البرد فينفصم عنه، وإنَّ جبينَهُ ليتفصّ؟د عَرَقاً».

(٢٤) في المعاجم: طرأ: طَرْاء وطروءاً. ولم أجد (طريان) التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

[النّاس](٢٥) إذا قذفوها، فإنها صديقة بشاهِد القُرآن، والصِّدّيق أشفق على خلق الله مما هو على نفسه.

السابع: فيما يكونُ عذرها إذا اعتُرِضت، وأُنكر عليها ما جاءت به.

فهذه سبع قوابض لو سلط أحدها على جبل لتصدّع! ويكفيك قولُها عند ذلك(٢٦): ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذا وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ فأي مقام فوق مقام من ابْتُلِي بمثل هٰذه المُعضلات دُفعةً واحدة فصبرَ وشَكر؟

ويعضد ما قلناه في علوّ مقامها في ذلك الحال قوله تعالى(٢٧): ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا المِحْرَابَ﴾ الآية، إلى قوله(٢٧): ﴿بِغَيْرِ حِسَاب﴾.

وذلك أنّ زكريا عليه السلام كان يجدُ عندها تلك الفواكه المذكورة في غير أَوانها فيقول(٢٧): ﴿أَنّىٰ لَكِ هٰذا﴾ يعني بأيِّ عمل بلغت هذا المقام؟ كان عليه السلام يستعظمُ ذلك المقام في حَقِّها لِغَرارتها وضَعفها، فتقول هي(٢٧): ﴿هُوَ مِن عِنْدِ الله﴾.

أي ليس ذٰلك مقاماً بلغتُه بكبيرِ عَمَل، وإنّما هو من فضل الله تعالى، فكَأَنّ ما تُشير إليه: أنتمُ عُظماء! لكمُ المقَامات والأحوال، وأنا ضئيلةٌ ضعيفة! فأنتم تُرزقون بسببٍ وأَنا بغير سبب!

ففي قول زكريا عليه السّلام: «أَنىٰ لك هذا» دليلٌ على ضعف مقامها في الغُرفة(٢٨). فإنَّ المَقامات عند القوم مرتبطةٌ بعلومٍ مَخصوصة وأعمال

(٢٥) كلمة لم تتضح، ورجّحت ما أثبت بمقتضى السِّياق.
(٢٦) مريم: ١٩/٢٣
(٢٧) آل عمران: ٣/٣٧
(٢٨) أي مقامها الّذي كانت تتعبّد فيه، وكانَ غُرْفَةً، وهي المُشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿كلّما دَخَلَ عليها زكريّا المحرابَ وجَدَ عندَها رزقاً﴾ والمِحْرَاب: الغُرْفَة.

مخصوصة، وكذلك الأحوال والكرامات أيضاً هِبَةٌ من الله تعالى لهم على قدَر مقاماتِهِم.

فلما كان ذلك غاية قبضها وعلاء مقامها في القبض، بُسِطت من سبعة[٢٩] أوجه:

أحدها: أنْ كلَّمها الوليد. قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾، قُرِئَ بفتح الميم[٣٠].

فقال قومٌ: ناداها المَلَكُ من مكانٍ مُنخفض عنهما.

وقال آخرون: ناداها الوليد؛ وهو الأظهَرُ لِوجهين:

أحدهما: أنّ (تحت) في حقّ الوليد أمَتّ[٣١]. والثّاني: أنَّ تكليم الوليد آنس في الخِطاب مِن كلام المَلَك، على ما تقدّم.

والثّاني: من تقاسيم البَسط: أنْ كَلّمها وليدُها ولم يكلّمها وليدُ غيرها؛ لأنّ تكليم ولدها من بَركاتِ أحوالها.

الثالث: أنْ كلّمها في الحِين، فإن فيه تنفيسَ خِناق قبضِها بسرعة البشارة.

الرابع: أن كلمها بالبشارة:﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾.

الخامس: أن أخبرها أنّه سَرِيٌّ؛ أي رفيعُ القدر عند الله تعالى. وما يُحِبُّ أحدٌ أن يكونَ غيرُه أحسنَ منه إلا ولدَه.

---

(٢٩) في سورة البقرة ٢/٢٤٥ ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسُط وإليه تُرجعون﴾ قال القرطبي «والله يقبض ويبسط» هذا عامّ في كل شيءٍ فهو القابض الباسط.

(٣٠) قرىء بكسر الميم: «مِنْ تحتها» وقُرىء بفتح الميم «مَنْ تحتها». (وانظر معجم القراءات القرآنية ٤: ٣٩).

(٣١) أقرب إلى المقصد، ومجرى القصّة.

السّادس: أنّـه لمّـا كلّمهـا الوليدُ استبشـرت بـأنه سيُقيم حُجّتهـا عند قومهـا كالّذي فَعـل.

السّابع: وهـي البِشـارة العُـظمى التي تثبـت أنَّ مقامهـا عند الجـذع كـان أعـلى من مقامهـا في الغُرفـة. وهـو قـوله تعـالى لهـا: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾.

وتُتَصـور الكَرامـةُ في هَـزّهـا من أحـدَ عَشَر وجهـاً:

أحـدها: أنّـه نبهها على بـركة يـدها بأن تمـسّ الشيءَ فيظهـر عليه بـركة ذلك المـسّ. كما جـاء في الصّحيح[٣٢] عن عائشـة أنّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كـان إذا اشْتكىٰ يقـرأُ على نفسِه بالمُعَوِّذاتِ وينفُث، فلمّا اشتـد وجعهُ كنـت أقرأُ عليه وأمسحُ عنـه بيـده رجـاءَ بَركتها.

وكمـا قيل[٣٣]:

لـو مـسّ عـوداً سَلُوبـاً لاكتسى ورقـاً
ولـو دعـا ميّـتـاً في القـبـرِ لَبَّـاهُ

الثـاني: أنَّ الملـموس كان جِذْعـاً، والجِذْع في اللّسـان هـو: سـاق النّخـلة إذا جُذَّ رأسُهـا. يقـول العـرب: علىٰ كَمْ جـذع بيتـك مبنيّ؟ وجـاء في الخَـبر[٣٤]: «فَحَـنّ الجِذْعُ إليه» وكـانت أُسطوانـةً في المسجـد. وقـال تعـالى[٣٥]: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ولا يـكُونُ الصَّلْبُ إلاّ في

---

(٣٢) في مسنـد الإمام أحمد (٦: ١١٤).

(٣٣) في اللسان: شجرة سَلِيب: سُلبت ورقها وأغصانها
ووردت سلوب صفة للناقة التي ترمي ولـدها؛ وقـال: ناقة سالب وسلوب، مات ولدها أو ألقتـه لغير تمام؛ وكـذلك المرأة. وظبية سلوبٌ وسالب: سلبت ولدها.

(٣٤) في مسنـد الإمام أحمد (١ : ٢٤٩) من حـديث ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ رسـول الله صلى الله عليه وسلّم كـان يخطـب إلىٰ جِذْع قبلَ أن يتّخِذَ المنبر، فلمّـا اتّخذ المنبر وتحـوّل إليه حنَّ عليه، فأتاه فاحتضنه فسكن؛ قـالَ: ولو لم أحتضنه لَحَنَّ إلىٰ يوم القيامة».

(٣٥) طه: ٧١/٢٠

الخَشب. فصحّ أنّ ساقَ النَّخلة إنّما يُسمّىٰ جذعاً إذا جُزّ رأسه، وإذا جُزّ رأس النّخلة يبست فلا تلقح ولا تُورق بعد، فلمّا لَمسته اخْضَرّ في الحين!.

الثالث: أنْ نبتت فيها أغصانٌ وورَقٌ، ورؤوسُ النخل إذا قُطعت لا تخلف.

الرابع: أنْ أثمرت في الحين والنّخل لا تثمر إلا بعد ريحٍ في أيّامٍ كثيرة.

الخامس: أنْ صارت رُطَباً في الحين.

السادس: قوله: ﴿جَنِيّاً﴾ أي حان قطافها فصلحت للجَني، فإنها قد تسمىٰ رُطَباً في أوّل نُضجها قبل أن تصلح للجَني، على جهة المجاز.

وهنا لطيفةٌ، وهي أنّ الله تعالى آنسها بأن أراها مثلاً بالجِذع اليابس حين اخْضَرّ من غير سَقْيٍ، وبعد يُبسِه اخْضَرَّ وأثمر في الحين كما [ولد] عيسىٰ عليه السّلام من غير فحل، وتكلّم في الحِين، وتمّ خَلْقُه دفعةً، ووُلِدَ في الحِين، فَتِلْكَ بِتلك.

السابع: أنْ هَزَّتْها فتساقطت. ومعلومٌ أن هَزّ مِثلها على ما هي عليه من ضَعفها ونِفَاسها لِسُوق النّخل لا يُسقط الرُّطَب، فإن كان أُعطيت في الحين قوّةً تَهُزُّ بها النخلَ فتسقط رطبها فَخَرْقٌ كبير[٣٦]، وإن تساقطت الرُّطب لِلَمْسِهَا إيّاها فخَرْقٌ آخَرُ أكبرُ منه!

الثامن: قولُه لها[٣٧]: ﴿فَكُلِي واشْرَبِيْ﴾ فإنّ فيه بشارةً بسرعة الخَلاص من أَلَمِهَا، فإنّ النُّفَساء لا تأكل ولا تشرب إلا بعدَ مُدّة لشغلها بألمها.

(٣٦) أي خرقٌ للمعتاد، وإعجازٌ.
(٣٧) مريم: ٢٦/١٩

التاسع: أنّه بَشّرها بحصول الطَّعام والشّراب عندها، لأنْ كانت بأرضٍ فلاة، فإنّ الناس يخافون عَدَمَهُمَا في الفَلوات.

العاشر: قوله لها[٣٨]: ﴿وَقَرِّيْ عَيْناً﴾ فعلمت بكلامه الخارق أنه لا يكذبها فأَنِسَت.

الحادي عشر: أنه علّمها كيف تجيبُ إذا سَأَلها قومُها في قوله لها[٣٩]: ﴿فَقُولِي إِنِّيْ نَذَرْتُ لِلرَّحْمـٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾.

ألا ترىٰ إلىٰ طُمأنينتها إلى (مبارأة)[٤٠] ولدها، كيف أتت به قومها تحمله ظاهراً لهم. وقد كادت[٤١] تفرُّ به إلىٰ بلدٍ آخر أو تُخفيه ما اسْتَطاعت فَلاَ يَشْعر به قومها؟ فلمّا طابت نفسُها به في إقامةِ حُجَّتِها عند قومها أتتهمْ بهِ تحمِلُه ظاهراً لهم.

فهذه رحمك الله سبعة أحوال ثَوّبَها ربُّها عَلَيها بثمانية عشر حالاً، سبعة منها قبلَ الهزّ، وأحد عشر بعده، كلّها تتضمن من البَسط والأُنس والكَرامات ما يدلُّ على رفعة شأنها وعزّة مكانها عند ربّها. فكيف تُبخس هذه الصِّدّيقة في حقّها وتُحطّ عَنْ مقامها في الهزّ؟!

ويعضد ما رُمناه من علوّ المقام لَها في ذلك الوقت صحّة الشبه في قوله تعالى لأيُّوب عليه السّلام: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أراد تعالى أن يُرِيَه عاقبة صبرِه وبركة تصرّفِه وفائدة ركضِه وثمرة لمسِه الأرض بأخمصيه. ومعلوم أنّ المياه لا تنبع بسبب الرّكض على مجرىٰ العادة.

وإنَّ الرّكض يخرج مخرج الهَزّ حرفاً بحرف.

---

(٣٨) مريم: ١٩/٢٦

(٣٩) مريم: ١٩/٢٦

(٤٠) في الأصل المخطوط: «مبارات» غير واضحة ومهملة من النقط؛ وكأنها كما رُسِمت: مباراة.
ـ وفي اللسان: بارأت فلاناً برئتُ إليه وبرىء إليّ.

(٤١) في الأصل المخطوط: «كانت». ورجحت قراءة «كادت» لاستقامة المعنى.

وكذلك قوله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام[٤٢]: ﴿اضْرِبْ بِعَصاكَ الحَجَر﴾ أراد تعالىٰ أن ينبع له الماء بواسطة الضرب حتىٰ تظهر كرامته عند بني إسرائيل.

وكذلك في البَحر حين ضَربه فانْفَلق[٤٣].

وكذلك عيسىٰ عليه السَّلام كان يركُض القبورَ فيُحيي الله به المَوْتىٰ، ويلمس الطّين فيصيرُ طائراً بإذن الله.

وكذٰلك نبيُّنا عليه السّلام لمس الماء فنبَع من بينِ أُصابِعه، ولمسَ الطعام فنَما وزيد فيه، وتَفل في بئر فعَذُبَت وكَثُر ماؤها، وتَفل في عين عليّ كرّم الله وجهه فبرأت من داء الرَّمد، وشربت أمٌّ أيمن بوله فبرأت من داء البَطن، وتفل علىٰ رِجْلِ أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه في الغار حين لَسعته العقرب فبرىء في الحين[٤٤].

فليت شعري ما الّذي أغفل أولئك الجِلّة[٤٥] عن هٰذه الأدلة حتّى يغضّوا من مقام مريم عليها السّلام بالهزّ وهو الأعلىٰ، كما ترىٰ أيها اللّبيب الفطن المتناصف؟!

---

(٤٢) البقرة: ٦٠/٢ والأعراف: ١٦٠/٧ والشعراء: ٦٣/٢٦

(٤٣) تراجع الآيـة الكريمة من سورة الشعراء: ٦٣/٢٦

(٤٤) يراجع كتاب الشّفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (طبعة البجاوي بدار إحياء الكتب العربية):
- نبع الماء ٤٠٢ ـ ٤٠٥
- وتكثير الطعام ببركته ودعائه ٤١٠، ٤١٢، ٤١٦
- وتفجير الماء.
- وإبـراء ذوي العاهـات (العين) ٤٥٣ ـ ٤٥٤
- وشرب المرأة بوله ٩٠

(٤٥) في الأصـل: الخلّة، وهـو تصحيف صوابه: الجلّة، أي العظماء السّادة، يعني أهلَ الإشارة (الصوفيـة) الذين ذكرهم في أوّل حديثـه عن مريم فقال: «.... وذلك أن معظـم أهل الإشارة رحمهم الله أصفقـوا على أنّ مريم عليهـا السّلام كان مقامها في الغرفة أعلىٰ ممّا كان عند النخلة».

فإن قيل: إنّما كانت تلكَ الأَفعال منهم علىٰ سبيلِ إظهار المُعجزة لكونهم أَنبياء، ومريم عليها السلام لم تكن نبيّة؟

قلنا: ليس الأمرُ كذلك بدليل أنهم لو تحدّوا بتلك الخروق من غير تناولٍ منهم لها فوقعت علىٰ وفق تحدّيهم بها لصحّت المُعجزة، وإذا صحّت المعجزة دون التّناول باللّمس والضَّرب، عُلِمَ أنّ تلك الأفعال وقعت إكراماً لهم زائداً علىٰ ثُبوت المعجزة. وأَيضاً فإن اللَّمس والضرب والتَّفل ليس من قبيل المُعجزات؛ فإنَّه مُعتاد؛ والمُعتاد لا يكون معجزة.

فهذا هذا، ومن اعْتَرض من المقلّدة بالجُزَاف فعليه الدّليل، ولا دليل؛ فإن القوم الّذين قالُوا ذٰلك لم يأتوا بدليلٍ سوىٰ ما نُقرّره من أَنّ التوكّل فوقَ الكَسب.

وهٰذه مسألةٌ قد حَفِيت فيها الأَقدام، واضطربت الأَفهام؛ والأَظهرُ فيها أنّ الكسب مع التوكّل إعلاء، فإنّه يقع بالظّاهر ويبقىٰ الباطن متوكّلاً، فإذا تُصوّر الجمعُ بين الظاهر والباطن فالكسبُ الحَلال ممّن جَمع بينهما، فهو إعلاء مقام، لكونهما مقامين وعَملين، فلا مُنَافرةَ بين التوكّل والكسب لاختِلاف المَجال. ومريم عليها السّلام صدّيقةٌ. ومن بعضِ مقامات الصدّيق الجمعُ بين الكَسب والتوكّل.

وفي الكسب فائدة كثيرة(٤٦) فإنّه مما ينفعُ النّاس، ويُصلح شؤونهم، ويقوم بمنافعهم في لباسهم وأَقواتهم.

فلو ترك النّاس الكسب بالجُملة لهلكت الأَرض ومَنْ عليها، فقد تصورت فيه المنفعة العُظمىٰ.

وقد جاء عنه عليه السّلام أنه قال(٤٧): «سيّد القوم خادِمُهم».

---

(٤٦) في الأصـل: فائدة كثيرة. وتقرأ أيضاً ـ من جهة المعنى ـ «فائدة كبيرة».
(٤٧) ورد الحـديث في كشف الخفاء (١: ٥٦١)، وضعّفه.

وجاء عنه عليه السّلام أنّه قال(٤٨): «النّاسُ عيالُ الله وأحَبُّهم إلىٰ الله أنْفَعُهم لعيالِه».

والمنفعة على ضَربين: دُنْيويّة وأُخْرَوِيّة

فالأُخروية: إرشادُ المكلّف وتعليمه ما يلزمه من وظائف التكليف.

والدُّنيوية: معالجة المَعِيشة بالأسباب العادية التي يقومُ بها أَوَدُ الحاجات وإبقاءُ رَمق الحياة. فقد انحصرت المنفعة الدُّنيوية في الكسب، وفيه أيضاً سببٌ للمنفعة الأُخروية، فإنّه لولا سدّ الجَوْعَة وسَتر العَورة علىٰ مُقتضىٰ الشّرع ومجرىٰ العادة لم تكن حياةٌ ولا تُصُوّرت عبادة. فأهلاً بالكسب وأهله فإنهم أحبُّ الناس إلىٰ الله تعالىٰ. وكيف يُعاب الكسب أو يُغَضُّ من قَدره وقد أثبته سيّد الرسل صلىٰ الله عليه وسلم لنفسه حيث قال(٤٩): «جُعِل رزقي تحت ظِلّ رُمحي» يعني ما يأكل من الغَنائم بسبب الكسب بالرُّمح. وما فوق مقام رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مقام.

وأمر الله تعالىٰ داوود عليه السّلام بالكسب حيث قال له(٥٠): ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ﴾ يعني سابغات الدُّروع. ولذلك أخبر عليه السَّلام أنّ داوود عليه السّلام كان يأكل من كسبه في عَمل الدُّروع.

وكذلك جاءَ في الأَثر أَنَّ سُلَيمان عليه السَّلام كان يأكُل من عمل الخُوص(٥١).

---

(٤٨) في كشف الخفاء (١: ٤٥٧) برواية: «الخلق كلّهم عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله مَنْ أحسن إلىٰ عياله» وأشار إلىٰ روايات أُخَر، ونقل عن النووي وابن حجر أنّ الحديث ضعيف، ورَدَ من طرق كلّها ضعيفة.

(٤٩) في مسند أحمد (٢: ٥٠)

(٥٠) سبأ: ١١/٣٤

- وفي سورة الأنبياء: ٨٠/٢١ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾

(٥١) في صحيح البخاري (٣: ٩) من حديث المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

وجاء عنه عليه السَّلام أنه قال[٥٢]: «اطلبوا الرّزق في خبَايا الأَرض». يعني فيما يُزرع. وقال عليه السّلام لصاحب النّاقة[٥٣]: «اعْقِلْها وتوكَّلْ».

وهذه الأخبار تدلُّ علىٰ إثبات الكسب شرعاً، وأنّه لا يَقْدَحُ في التوكُّل.

فخرج من هذه الأَحاديث إثبات الكسب شرعاً، وأنّ مريم عليها السَّلام كان مقامها في تلك الحالة إعلاء، لكونها جمعت بين الكسب والتوكّل.

وقد نظمتُ في ذلك على نقيض ما نظموه في قولهم إذْ قالُوا[٥٤]:

ألم تر أن الله أُوحىٰ لمريمٍ ... إليك، فَهُزّي الجذعَ تَسَّاقط الرُّطَب

فقلت:

أما عَلِمُوا أنّ المقام سمَا بها ... لأن جَمعت بين التوكُّلِ والسَّببْ
بأن لمست جذعاً فأيْنَع رأسُه ... على الحِين أفناناً وأثْمَر بالرُّطَبْ
كما مسّ أَيّوبُ اليبيسَ برجلهِ ... ففارتْ عيونٌ طهّرته من الصَّخَبْ
ومسّ كليمُ الله بالعُود صخرةً ... ففجَّر من أَرجائِها الماءَ فانسكبْ
ومس المسيحُ الطِّينَ بالخلق فانتشا ... طُيوراً بإذنِ الله أَحياء تضطربْ
ومسَّ يمينُ المصطفى الماءَ نطفةً ... ففاضَتْ عيونُ الماءِ من خَلَلِ العصبْ

فعضّ على هذه القَولة يا أيها المُتَناصف الفطِن بالنّواجذ، وشُدّ عَليها كفّ الضّنين فإنّها قولةٌ مقصودةٌ بالبُرهان، ونادرة ما أراني سُبقت إليها. وآعرفِ

= «ما أكل أحد طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

(٥٢) الحديث في كشف الخفاء (١ : ١٥٤) قال: «رواه أبو يعلىٰ والطبراني والبيهقيّ بسند ضعيف عن عائشة».

(٥٣) الحديث في كشف الخفاء (١ : ١٦١)

(٥٤) في تسجيل القصة القرآنية ورواية مضمونها.
ـ والنُّطفة: القليل من الماء، يبقىٰ في دلوٍ أو قِرْبَةٍ. ومِنْ خَلَلِ العَصَب: أي من خِلال عَصَبِ أصابعه عليه السَّلام.

الرِّجالَ بالعلم، ولا يُعرف العِلمُ بالرِّجال. فمن كُلّ كلامٍ مأخوذٌ ومتروكٌ إلاّ مِن كلام صاحِب القَبر صلّى الله عليه وسَلّم.

فهذا ما مَنّ الله تعالىٰ به في تَنزيه الأنبياء عليهم السَّلام علىٰ ما تَقتضيه الآي، وما صَحّ من الأخبار، من غير أن يلحق بواحد منهم ذنبٌ ولا ذَمّ. إذْ لو جازَ ذلك علىٰ البَعضِ لجازَ علىٰ الكُلّ، ومن قَدح في عرض واحد منهمْ ألزم القدح في الكُلّ.

وقد أَجمعوا علىٰ أنّ من قال في زِرّ نَبّيٍ إنّه وَسِخٌ، يريد بذلك تنقيصه أنّه يُقتل ولا يُستتاب، احتياطاً علىٰ أعراضهم السَّنِيّة أَن لاّ يلحقها نقص، فإنّهم في النَّزاهة والعِصمة كأسنانِ المِشط ،لا يُفَرَّقُ بين أَحَدٍ من رُسله.

وكيف وقد قال تعالىٰ لسيّدهم ورئيسهم(٥٥):

﴿أولٰئِكَ الَّذِيْنَ هَدٰى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ يعني بمكارم أخلاقهم وجميلِ أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم.

وقال تعالىٰ(٥٦): ﴿والَّذِيْنَ آمَنُوا بالله ورُسُلِه ولم يُفَرِّقُوا بينَ أحدٍ مِنْهُمْ أولٰئِكَ سَوْفَ يُؤتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

وهذا هو الحقُّ الذي يُرْغَب فيه ولا يُرغَبُ عنه.

فإيَّاك أَيُّها المُقلّدُ الغِرّ أن تسمع من كلّ ناعقٍ غَبِيٍّ يدخل الميدان حاسراً حتى تأتيه كل طعنةٍ سُلْكَى نجلاء(٥٧)، فهو لا يعرفُ ما ألزمه تعالى من دينه ولا ما تخلّصه في مُعتقده ومُعاملته عند الله تعالى فيتكلّم في تَفاصيل أحوال المُرسلين ورؤساء المقرّبين وهو لا يعرف النُّبوّة ولا شُروطها ولا ما يجبُ لها

---

(٥٥) الأنعام: ٦/٩٠
(٥٦) النّساء: ٤/١٥٢.
(٥٧) الطعنة السُّلكىٰ: المستقيمة. والنجلاء: الطّعنة الواسعة.

ويَستحيل عَليها. وقد جاء في الصَّحيح عنه صلّى الله عَليه وسَلّم أنه قال[٥٨]: «الرؤيا الصّالحة من الرَّجُل الصّالح جزءٌ من ستّة وأربعين جُزءاً من النّبُوّة». وجاء في خبر آخر: «من سَبعين جُزءاً فليت شعري إذا لم يكن للعُلماء القيام بعلم سبعة من هذه السَّبعين فما ظنُّك بالجاهل الغبيّ الذي غايَتُه تقليدِ أُمّه في الشهادتين فهو من الضّفادِع والدّيدان في ضَحْضاح الغِيطان[٥٩]، ويُريد أن ينهضَ إلى مظانّ العُقبان في شَماريخ ثَهلان[٦٠]!!

(٥٨) الحديث في صحيح مسلم (٤ : ١٧٧٤) برواية: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة» وذكر رواياتٍ أُخَر تؤدّي المعنىٰ ذاته؛ وفي رواية: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوّة».

(٥٩) الشماريخ، جمع الشُّمروخ، وهو رأس الجَبَل. وثَهْلَان: اسم جَبَلٍ طويلٍ بالعالية ـ عالية نجد ـ في بلاد بني نمير (معجم البلدان: ثهلان).

(٦٠) الضَّحْضَاح: الماء اليسير، يصل إلى الكعبين. والغيطان: جمع الغَوْط والغائط، وهو المطمئنّ الواسع من الأرض.

فصل

[الكلام في إخوة يوسف عليه السّلام هل كانوا أنبياء؟].

فإن قال قائل: فإذا نزّهْتُم الأنبياء عليهمُ السّلام مثل هٰذا التّنزيه فما قولكُم في إخوة يُوسف عليهم السّلام وقد قال بعضُ مَنْ يُؤبه[١] له من المفسّرين والمؤرّخين القائلين بغير دليل بأنهم كانُوا أنبياء؟

فالجوابُ: أنّ إخوة يوسف عليه السّلام عندما واقَعُوا ما واقَعُوه مع أخيهم وأبيهم لم يكونُوا أنبياء وأُمَناء الله ورُسله. والدّليل على ذلك أنّ الكتاب العَزيز جاء بأنّهم واقَعُوا كبائرَ وصَغائرَ والإجماعُ منعقدٌ على أنَّ الأنبياء عليهم السّلام معصُومُون من الكبائر؛ واختَلَفُوا في الصغائر[٢]. وقد أقمنا الدّليل على عِصمتهم من الصَّغائر بما فيه مَقْنَعٌ فيما تَقَدّم.

فأمّا جُملة ما ارتكبوهُ منها ففي عشرين آيةً، من قوله تعالى مُخبراً عن أبيهم أنه قال ليوسف عليه السّلام[٣]: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤيَاكَ عَلَى إخوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ إلى قوله تعالى مُخبراً عن نفسه[٤]: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. فتتبّع الآيَ تجد العَدد المذكور فما أُحِيلكَ على مُبهمٍ ولا على خَبرٍ ضعيفِ الإسناد. ومعلومٌ أنّ الله عَزّ وجَلّ ما أطلق هٰذه الأقوال وأمثالها على أنبيائهِ وأصفيائه في كتابٍ ولا سُنّة، ولا أَمَر بإطلاقها عليهم، ولا باعتقادِها فيهم.

---

(١) يؤبَهُ له: يُفْطَنُ له (أي هو ذو شأنٍ).
(٢) أشهر من قال إن الأنبياء قد تقع منهم الصغائر: المعتزلة. وفي تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبّار عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضى عَلَيْهِ﴾: «إنّ وكزه كان على وجه الدفع لمّا أراد مخاصمته ولم يظن أنه يؤدي إلى قتله وذلك كالمرء يؤدب ولده استصلاحاً له فيؤديه إلى الموت. وهذا من الصغائر التي نجوّزها على الأنبياء» ص ٣٠٩
(٣) يوسف: ١٢/٥
(٤) يوسف: ١٢/١٠٢

فأمّا الكبائر الّتي فعَلُوها وهي لا تجوز على الأنبياء عليهم السَّلام فخمسة:

١ ـ ظُلم الأخ المُسلم لا سيما أخ مثل يُوسف.
٢ ـ وعُقوق الأب لا سيّما أب مثل يعقوب عليه السَّلام.
٣ ـ والكذب في قصة الذّئب المؤدّي إلى فراق أخيهم من أبيهم على حَداثة سِنّه وضعف مُنّتِه[٥]، وتفجّع أبيهم على فَقده حتى ابيضَّت عَيْنَاهُ من الحُزن.
٤ ـ وبيعه من الكَفَرةِ بثمنٍ بَخْسٍ على قول[٦] وهو مؤمن حُرّ وأخوهم وابنُ نَبيّ.
٥ ـ ووصمة أخيهم يوسف عليه السلام بعد ثُبوت نبوّته حين قالوا له[٧]: ﴿إن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فنبزوه بالسَّرقة حتى ألجَؤوه أن يقول لهم[٨]: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾.

أوَهذه ـ رحمك الله ـ أخلاقُ الأنبياء عليهم السلام؟ أوَيسوغ أيضاً أن يكذبَ النبيَّ عشرةُ أنبياء حتّى يقول لهم أبُوهم النّبيُّ بعدَما جاؤوه عشاءً يبكون وقالوا إنّ يوسف أكَلَه الذّئب[٩]: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيْلٌ وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى ما تَصِفُونَ﴾ وهذا هو فحوى التّكذيب.

فهذه خمسُ كبائر، أربعة منها فعلوها على القطع والخامسة الّتي هي بيع الحُرّ مختلفٌ فيها فإنّ الله تعالى يقول[١٠]: ﴿شَرَوْهُ﴾ فيحتمل أن تعود

---

(٥) المُنّة: القوّة.
(٦) أي على قول من قال إن المشترين (السيّارة) كانوا من الكفّار.
(٧) يوسف: ١٢/٧٧
(٨) يوسف: ١٢/٧٧
(٩) يوسف: ١٢/١٨
(١٠) يوسف: ١٢/٢٠

الهـاء عليهـم أو على السّيارة، وهـو الأَظْهَـر.

وأمـا الصَّغائر فخـمس عَشْرَة على أنّ كُلّ ذنب عُصِي الله تعـالى به فهـو كـبيرة. لكنْ يتأكّـدُ الوعيدُ علىٰ بعضها بما وَرَد من الظّواهـر فيتصوّر فيها الصِّغر والكـبر، كما تقدَّم.

فمن قـال إنّهـم كـانُوا أَنـبياء عندما واقَعُوا هذه الكبـائر فيلـزم أن يجـوّزَ وقوعهـا على مَـنْ سِواهـم من الأَنـبياء عليهم السّلام لِتَسَاويهـم فيما يجـبُ لهـم من العِصمـة كما سبق، والجـائزُ كالواقِع، مع خَرق الإجـماع الواجـب الاتّـباع في عصمتهـم من الكبَـائر والعياذُ بالله من شُؤم الجَهـل وأَهـله!

فـإن قـيل: ولعلّ هـذه الأفعـال كـانت في شَرِيعتهم غَيْرَ كـبائر، قـلنا: إنّمـا وقع الإجـماع على أَنّ كـبائر شريعتنـا لا تَجُـوز علَيهـم.

والخـمسة التي أَخـبر تعـالى عنهـم بهـا كبائرُ في شريعتنـا وأَمّا شرائعهـم فما نعـلم كبائرهـا من صَغائرِهـا، ولا كُلِّفنـا ذلك.

فصـل

ثمّ يُطْلَبُ هـذا الغمر البـليد[١١] بثبـوت نُبُوّتهـم من أينَ عَلِمَهـا؟ إنّ النّبـوة لا تثـبت بالعُقـول ولا بِخَبَرِ الواحـد الـذي لا يحـصل به العـلم، ولا يـثبت أيـضاً بقرينـة الحـال ولا تحـميل الأَعـمال كما زعـمت المُعتـزلة وغُـلاة الباطنـية القائـلين باكتـساب النُّبوة. فـإنَّ غير النَّـبي من الأَوليـاء قد يصحّ منه ذلك، وقـد يـصدر من أَهـل الرِّيـاء من الأَعـمال والقَرَائِن مثلُ ذلك[١٢].

---

(١١) الغَمْر: الـذي لم يجـرّب الأمـور.

(١٢) ذكر القشيـريّ في ترجـمة أبي يـزيد البسطاميّ قـولَهُ: «لو نـظرتم إلى رجـل أُعطيَ من الكـرامات حـتى يرتـقي في الهـواء فلا تغترّوا به حـتى تنظروا كـيف تجـدونه عند الأمـر والنهـي وحِفْظِ الحـدود وأداء الشّريعة» الرسـالة القشريـة: ٣٩٧ بتحـقيق معروف زريق وعلي بلطه جي. =

فإنْ قيل: فإذا لم تصحّ النُّبُوّة من هذه الوُجوه فمن أينَ تصحّ؟

قلنا: تصحّ من وجهين: أحدهما أن يأتي النبي في زمانٍ تصحُّ فيه النبوّة فيَدّعي النُّبوة ويتحدّى الناس بالمُعجزة فيَفْعلها الله له على وَفْق دعواه.

أو يَنُصّ على نُبوّته نبيٌّ آخَرُ نَصّاً مُتواتراً لا يحتمل التّأويل، كما نص الله تعالى في مُحكم كتابه على السّتّة والعشرين الذين أوّلُهم آدم وآخرهم محمّد عليهم الصّلاة والسّلام، فهؤلاء هُم الأنبياء الّذين من أنكر نُبوّة واحدٍ منهم أو قَدح فيها قدحاً يُخل بشرطٍ من شُروط نُبوّتهم فهو كافرٌ، حَلالُ الدّم والمال مُخَلّدٌ في نار جَهنم بالإجماع المُتواتر، فهؤلاء هُم الأنبياء حَقّاً ومن أثبتَ نبوّةَ غيرهم على التّعيين فعَليه الدّليل، مع أنّا نعلمُ أنَّ ثَمَّ أنبياء للهِ أُخَر جَاءَ بهمُ القُرآن في قوله تعالى[١٣]: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ لكنْ لم يقع التّنصيص في الكتابِ إلّا على نُبوّة عددِ مَنْ ذكرناه. فأمّا من ذُكِرَ مِنْهُم في أخبارِ الآحاد فَمَظنُون.

فصل

فإن قيل: ولعلّ نُبوتهم تثبتُ من الكتاب في قوله تعالى حين عدّد الأنبياء عليهم السّلام قال[١٤]: ﴿وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾.

والأسباط إخوةُ يوسف وَاحِدُهم سِبْط.

قلنا: ليس كما قلت؛ فإنّ الأسباط في بني يعقوب كالقَبائل في بني

= (١٢) وانظر كتاب الفصل في الملل والأهواء والنّحل (٣: ١١٩) في تسفيهه القول باكتساب النبوّة وزَعْمِ مَنْ زَعمَمَ أنّ مَنْ بَلَغَ الغاية من الصّلاح وطهارة النفس أدركَهَا.

(١٣) غافر: ٧٨/٤٠

(١٤) البقرة: ١٣٦/٢، وآل عمران: ٨٤/٣، والنساء: ١٦٣/٤

إسماعيل. وَاحِدُهم: سِبط. وهُم اثْنَا عَشَرَ سِبطاً لاثني عَشَر وَلداً ليعقوب عليهم السَّلام، وإنَّما سمّوا هؤلاء أسباطاً، وهؤلاء قبائل ليفصل بين ولد إسماعيل وولد يعقوب تسميةً. هكذا نصّ عليه أهل اللغة(١٥).

فإن قال قائل: فما معنى دُخولهم في العَدد مع الأنبياء وليسوا بأنبياء؟.

والجواب: أنّ القُرآن مقصودٌ بالإيجاز الذي هو مخُّ البلاغة، وكانت النبوّة تترى في بني إسرائيل وكان أثلهم من أولاد يعقوب وهو إسرائيل. فلمّا عدّد الله تعالى مَن كان قبل من الأنبياء على التّفصيل أوجز فقال: «والأسباط» يعني أنبياء الأسباط على حذف المُضاف وإقامة المُضاف إليه مقامه. ثم خصص بعد ذلك عُظَماءهم بالذِّكر فقال(١٦): ﴿وَعِيْسَى وأَيُّوب ويُونُس وهارُونَ وسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ فبدأ بالتّفصيل وختم بالتّفصيل فتضمّن الطّرفان الواسطة. وصَحّ التّشريف لمن خصّص بالذكر في الآحاد.

وهٰذا التَّخصيص ينظر لقوله تعالى(١٧): ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ ومِيْكال﴾ وهما من الملائكة، وقال تعالى(١٨): ﴿فِيْهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وهما من الفاكهة.

وكذلك ذكر معظم الأصناف التي كانت النبوّة تترىٰ فيهم ثمّ خصص عُظَماءهم بالذِّكر تشريفاً لهم صلوات الله عليهم أجمعين. ومصداق هذا التفسير أنّ ذِكر الأسباط إنّما وُضع تسميةً عِوَضاً من القَبائل كما تقدّم؛ فلو كانوا كلّهم أنبياء كما زعم الجَهَلةُ لكان كلّ من انتْسَل من

---

(١٥) انظر اللسان (سبط).
(١٦) النساء: ٤/١٦٣
(١٧) البقرة: ٢/٩٨
(١٨) الرّحمنٰ: ٥٥/٦٨

بني يعقوب عليه السَّلام نبيّاً، وقد قال تعالى[١٩]: ﴿وَقَطَّعْنَاهُم فِي الأَرْض أُمَماً مِنْهُم الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُوْنَ ذلِكَ﴾ وقال تعالى[٢٠]: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِيْنٌ﴾ وقال[٢١]: ﴿وَقَطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمَماً﴾ فَسَمّاهم أسباطاً وأمماً، ولم يسمّهم أولاداً ولا أبناء.

فإن قيل: فقد جاء عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال[٢٢]: «الحسين سبطٌ من الأسباط»، فمَعناه أنه يقوم في العبادة، والقيام بحقّ الله تعالى مقام سبطٍ كما قال تعالى[٢٣]: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ كَانَ أُمَّةً قانِتاً للهِ﴾ وقال عليه السَّلام في قس[٢٤]: «إنّي لأَرْجُو أن يُحْشر أُمّةً وحده» هكذا حكاه الهروي في كتاب الغَرِيبين.

فإن قيل: ولعلّهم سُمُّوا أسباطاً ـ وهم أولادٌ ـ تجوّزاً واتّساعاً كما سمّى النبي صلى الله عليه وسلم: الحسينَ سِبطاً حيث قال: «الحُسَين سِبط من الأسباط» وهو وَلَد.

قلنا: هٰذا التجوّز إنما صَحّ في الحُسَين رضي الله عنه لسبقِ المعرفة بِبُنوّته من وجه آخر، فلو أخبر تعالى أن يَهُوذا سبطٌ من الأسباط ثم عدّده في جملة الأنبياء بلفظ السِّبط لصحّت نبوّته، وهذا لم يقع فلا حُجّة للخصم في هذه القَولة، ولو صح لما صحّت نُبُوّته إلّا بعد التّوبة والإنابة واشتراط العصمة في حال الوهلات كما زعم الخصم.

---

(١٩) الأعراف: ١٦٨/٧

(٢٠) الصَّافَات: ١١٣/٣٧

(٢١) الأعراف: ١٦٠/٧

(٢٢) الحديث في النهاية في غريب الحديث (٢: ٣٣٤).

(٢٣) النحل: ١٢٠/١٦

(٢٤) جاء في الأغاني (١٥: ١٩٢) في ترجمة قسّ بن ساعدة أنّه: «أوّل مَنْ قال في كلامه: أمّا بعد، وأوّل مَن اتّكأ عند خطبته على سيف أو عصا، وأدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوّة، ورآه بعكاظ فكان يَأثِرُ عنه كلاماً سَمِعَهُ منه، وسئل عنه فقال: يُحْشَرُ أمّةً وَحْدَهُ».

وأمّا غير هؤلاء من أهل النّظر فتوهّموا نُبوّتهم من قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السّلام حيث قال[٢٥]: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كما أَتَمَّها عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحٰق﴾.

وهو لم يمتّ إلى قريب في اللّسان لأنَّ الآل أقرب في اللّسان للبُنُوّة من الأسباط لكن «الآل» تحتملُ البَنِين وتحتمل التَّبَع[٢٦]؛ قال تعالى[٢٧]: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ أي تَبَعه. وفي السُّنَّة[٢٨]: «اللَّهُمّ صلّ على مُحمّدٍ وعلى آله وأزواجه وذُرِّيته» فذكر الآلَ ثم ذكر الذُّريةِ. فلو كان الآل من الذريّة لم يصحّ العطف.

فإن قيل: ولعلّ ذِكر الذرية بعد ذكر الآل تخصيص التشريف كما قال تعالى[٢٩]: ﴿وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِه وجَبْرِيلَ﴾.

قلنا: إذا بقيت «لعل» فقد تطرّق الاحتمال واطّرد الإشكال. والنُّبوّة لا تَثْبُت بالاحتمال. ويُحتمل أن يكون التّمام على الآل بما دون النُّبوة من الولاية والصِّدقيّة، وإذا دخلت هٰذه الاحتمالات لم يصحّ القطع على نُبوّتهم في هذه الآية. ومع تسليم هذه التقديرات جدَلاً فلا تصحّ نبوتهم عند مُوَاقعة الأفعال التي ذكر تعالى عنهم أصلاً؛ فإنه كان يؤدّي إلى أن يجوزَ على أنبياء الله عَزّ وجلّ كلّ ما فَعلوه لصحّة التّساوي الّذي قَدَّمْناه. فهذا ـ رحمكم الله ـ هو الحقّ الذي يُرغب فيه ولا يُرغب عنه.

وبعد هذا التتبّع فلا يبقى لقائلٍ مُسْتَرْوَحٌ إلى ثُبوت بُنوتهم إلا من

---

(٢٥) يوسف: ٦/١٢

(٢٦) اللسان (أول).

(٢٦) غافر: ٤٦/٤٠

(٢٨) في صحيح مسلم (١: ٣٠٦)

(٢٩) البقرة: ٩٨/٢

هٰـذه الوُجـوه المتقدّمـة، وهـي مظنونـةٌ ولا سـبيل إلى القـطع في واحـد منها. فالله الله أيُّهـا المُسترشـد المُحتـاط على دِينـه إن لم تـكن من أهـل النّـظر القويم على الصّـراط المُستـقيم، فما كلُّ سوداء تَمْرَة ولا كلُّ بيـضاء شحـمة(٣٠)!

واجتهـد فيمـن تأخـذ عنه دينـك، وجـنّب الجُهّـال مَرّة، وجـنّب وُعّاظنـا ومُـريدينا في هٰـذا الزمـان المنكـوب المنكُوس ألف ألف مـرة! فـإنهـم أضرُّ على دينـك من الأفـاعي الصُّفر (٣١)، لا سيما في هـذا العُوَيـلم(٣٢) المُتهـافت الدَّعِيّ في الإرادة بالنوافج(٣٣) ومُغالطة البُلْه الأغمـار(٣٤) من النِّسـاء وفحـول النّسَـاء فإنّهـم انتهـكوا حُرمـة الأنـبياء عليهـم السَّلام، حـتى تشبّهـوا بهـم وربّمـا أرْبَوا(٣٥) عليهـم بادّعـاء الالهـيّة بالفَيْض والإشـراق(٣٦) الّذي ادّعتْهُ القَرامـطة حـتى يلقى أحـدُهـم امرأةً أو غلامـاً فيقـول له: «رأيت الله فيـك»! إلى غير ذلك من أمورٍ هـي أشنعُ وأبشع من أن تُذْكـر أو تسخـم(٣٧) بهـا الأوراق.

والّذي ورّط هؤلاء الأرجـاس(٣٨) في هٰـذه الرَّذائل عـدمُ الزَّاجـر وقلّة الغيـرة في الدّين. فانظُر عَمّن تأخـذُ دينك وكـيف تأخذُه.وقد نصحـتك والسَّلام.

---

(٣٠) المثـل في مجمـع الأمثـال (٢: ٢٨١)

(٣١) ضـرب الأفاعي الصُّفر مثـلاً لشـدّة السميّة.

(٣٢) العويلم تصـغير العَالِم.

(٣٣) النّوافج: مُؤخّـرات الضُّلوع.

(٣٤) الأغمـار: جـمع الغُمْر، وهـو الـذي لم يجـرّب الأمـور.

(٣٥) أربَوْا عليهـم: زادوا.

(٣٦) انظر المِلَل والنحل للشهرستاني، على هامش الفصل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم (٢: ٣٠)

(٣٧) تسخّـم: تسوّد، من السخام، وهـو الهباب الأسود المتشكـل من الدّخـان (غاز الفحـم..). وفي الأصـل: تسخـم به، وأصلحـت العبارة بما يناسب السياق. والأوراق مؤنـثة.

(٣٨) الأرجـاس: القَذِرُون؛ والرِّجْسُ: القَذَرُ.

وقد نَجَـز التّنبيه عـلى التَّنزيه بمعونـة الله تعالى.

ونسـأل الله الـذي فلق الحـبَّة وبرأ النَّسمة أن يعفو عنّا فيما وقع فيه من الخَـطأ والخَطلِ ؛ بِمَنّه ولُطفه والخـتم بالصَّلاة والتسـليم على الأنـبياء عُمومـاً وعـلى نبيّنـا خُـصوصاً وعلى آله وآلهـم وسلّم تسليماً.

مجموع نكت من بعض ما خُصّ
به نبيّنا عليه السلام

مجموع نكت من بعض ما خص به نبينا عليه السلام

من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم عليه السّلام وما كان بينهما من المراجعة والمُحاورة في أمر الصّلاة(١). ثم نُبِّهُ بعد ذلك على فضل هٰذه الطّاعة العظيمة وتعدّد أعمالها على التفصيل فروضاً وسُنناً وأُجوراً لتتأكّد على المصلّين الرّغبة في أدائها ويزدجر التّاركون لها لما فاتهم من خيْرها، ولما يتوقّعون من الوعيد على تركها؛ إن شاء الله تعالى.

فإن [قال] قائل: لِمَ اختصّ نبيُّنا عليه السَّلام موسٰى عليه السّلام بخبر

(١) جاء في حديث الإسراء: «... فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحىٰ؛ ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كلّ يوم وليلة. فنَزَلْتُ إلى مُوسىٰ صلى الله عليه وسلم فقال: ما فَرَضَ ربُّكَ على أُمّتِك؟ قلت: خمسين صلاةً. قال: ارجع إلى ربِّكَ، فاسأله التّخفيف، فإن أُمّتَكَ لا يُطيقون ذلك، فإنّي قَدْ بَلَوْتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهُمْ، قال، فَرَجِعْتُ إلى رَبّي فقلتُ: يا رَبِّ! خَفِّفْ على أُمّتِي. فحطَّ عنّي خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمساً. قال: إنّ أُمّتَكَ لا يُطيقونَ ذلك فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف. قال: فلم أزَل أرجع بين ربّي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السَّلام حتى قال: يا محمّد: إنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَومٍ وليلةٍ، لكلّ صلاةٍ عَشْرٌ، فذلكَ خمسون صلاةً. ومَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حَسَنَةً، فإن عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً. ومن هَمّ بسيّئة فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئاً، فإن عَمِلَهَا كُتِبَتْ سيِّئَةً واحدةً. قال: فنَزَلْتُ حتّى انتهَيْتُ إلى موسى صلى الله عليه وسلم فأخبرتُهُ فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلتُ: قد رَجَعْتُ إلى ربّي حتّى استحيَيْتُ منه» صحيح مسلم (١/١٤٦) وانظر الحديث بتمامه ثمّة.

الصّلاة وتفاوَضَ معه فيها وهو في السّادسة وقد مرّ بإبراهيم عليه السّلام في السّابعة ولم يُخبره بذلك مع أنه أبٌ، ومع قوله تعالى[٢] ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فقد شاركه في المِلّة والأبوة، فَلِمَ أَخَذَ في القصّة مع موسى عليه السّلام ولم يأخذ فيها مع إبراهيم عليه السّلام مع هذه المَرّات. وتصوُّر المسألة مبنيٌّ على ما جاء من أنّ موسى عليه السلام في السّادسة وإبراهيم عليه السّلام في السّابعة. ومَنْ صح عنده أنّ موسى في السّابعة وإبراهيم عليه السّلام في السّادسة فلا غَرْوَ أن يتفاوض مع أوّل من لقي من الأنبياء؛ وإن صحّ أنّ موسى عليه السّلام في السّادسة وإبراهيم عليه السّلام في السّابعة كما تقدم فلا بدّ من ذِكر اختصاصه معه في المفاوضة وذلك يحتمل خمسة أوجه:

الأوّل: منها أن يكون موسى عليه السّلام سأله إذ مرّ به، وإبراهيم عليه السّلام لم يسأله فلمّا لم يسأله لم يُخبره.

الثاني: أنه اختصّ موسى بالمُفاوضة لأنه قد حنّكته معالجة بني إسرائيل قبله، وجرّبهم فلم يَفُوا بما كُلِّفوا، وإبراهيم عليه السّلام بُعِث بالموعظة الحَسنة، فلم يُقْبَل في الإيمان، فلم تقع طاعة، فلم تُتَصَوَّر تجربة؛ وإن كان قِبَلَهُ أفذاذٌ من الناس فالنّادر لا يحكم به. ويَعْضُدُ هذا التفسيرَ قولُ موسى عليه السّلام له: «ارْجِعْ إلى ربِّك فاسأله أن يخفّف عن أُمتك فإنّي قد عالجت بني إسرائيل قبلك» الحديث فقصد عليه السّلام موسى لأنّه كان مُجَرِّباً.

الثالث: أن إبراهيم عليه السّلام أبٌ وموسى أخٌ، وكان في معلوم الله تعالى أنْ يُسْعِفَ موسى عليه السّلام من وَجْهٍ ولا يُسعفه من وَجْهٍ، حيث قالَ له موسى عليه السلام بعد فرض الخمسة: «ارجعْ إلى ربّك فقال: إني أستحيي» فيسوغ هذا في مراجعة الأخ ولا يسوُغ في مراجعة الأب.

الرّابع: أن موسى عليه السلام كان له حظٌّ في أُجور هذه الأمّة في

---

(٢) سُورة الحجّ: ٢٢/٧٨

قوله عليه السلام لمّا أُخْبِرَ بتضعيف أجورِ أمّة أحمد وفضلهم على جميع الأمم: «قال ربي اجعلني من أمة أحمد»(٣).

قاله يفاوضه في ذلك ليحلب حلباً له شطره، قال تعالى لنبينا عليه السلام(٤): ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال المفسّرون(٥): يعني إذْ قضينا في فضلك وفضل أمّتك حتى قال موسى: «رَبِّ اجعلني من أُمة أحمد».

الخامس: أن يكون قصده لموسى للشّبهة التي كانت بينه وبين نبيّنا عليه السّلام في البعث بالسّيف والتّنجيم في العُقوبة، وكانت خصوصاً في بني إسرائيل بامتداد الأيام وكثرة السّامعين المطيعين له، وكثرة التّبَع، فإنّه ما بَعْدَ تَبَعِ نَبِيِّنَا عليه السّلام في الآخرة مَنْ هو أكثرُ من تبع موسى عليه السّلام كما جاء في الخَبَر(٦). ومصحح الشبهية في هذه الوجوه قوله تعالى(٧): ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ فاختصّه بالشّبهيّة في الإرسال دون غيره.

فهذه أوجه يتصور فيها التّخصيص بالانحياش والمفاوضة إلى موسى عليه السّلام.

---

(٣) حديث.

(٤) سورة القصص: ٢٨/٤٤

(٥) انظر القرطبيّ (١٣/٢٩١)

(٦) في مسند الإمام أحمد (١/٤٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِضَت عليَّ الأنبياء بأُمَمِهَا وأتباعها من أممها، فجعل النبيّ يمرّ ومعه الثلاثة من أمّته، والنبيّ معه العصابة من أمّته، والنبيّ معه النّفر من أمّته، والنبي معه الرجل من أمته، والنبيّ ما معه أحد، حتى مرّ عليّ موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم في كبكبة من بني إسرائيل فلمّا رأيتهم أعجبوني، قلت: يا رب مَنْ هؤلاء، فقال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل، قلت: يا ربّ فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك، فإذا الظِّرَاب ظِرَاب مكّة قد سُدَّ بِوُجوه الرجال. قلت: مَنْ هؤلاء يا رب، فقال: أمّتك، قلتُ: رَضيتُ يا رَبّ...» إلى آخر الحديث.

(٧) سورة المزّمّل: ٧٣/١٥

وأما فوائد فرض الصلاة في ذلك المقام فلنذكر منها ما منَّ الله تعالى به على جهة الاختصار، وهي تنقسم أربعةَ أقسام:

قسم في فضلها على سائر العبادات.

وقسم في فضل نبيّنا عليه السّلام على سائر الأنبياء وإظهار إكرامه في ذلك المقام عند الملأ الأعلى.

وقسم في اهتمامه بأمّته واحتياطه عليهم في طَلب التخفيف عنهم.

وقسم في لُطْفِ الله تعالى بهم حيث حَطَّ عنهم كُلْفَةَ خمسٍ وأربعين وأبقى لهم أَجْرَ الخمسين.

فأمّا فضلُها على سائر العبادات

أولاً: لكونها فُرِضَتْ في المقام الأسنى على بساط العزّة بحضرة الملأ الأعلى، وفي هذا تنويهٌ بهذه الطاعة وتشريف لها على سائر العبادات، حتى إنّ الله تعالى يسأل الحَفَظَةَ في كلِّ يومٍ وليلة(٨): كيف تركتم عبادي؟ فلا يذكرون له من أعمال البِرِّ في التَّرك والإتيان سوى الصّلاة وذلك لما سبق لها من العلم بفضلها وتعظيمها حين فرضت في ذلك المقام.

وأمّا من جهة التّعليل فإنّها عبادة تشمل الجَسد ظاهراً وباطناً، وتجمع عبادات الملائكة كما شَهِدَ الخبر(٩) أنّ منهم قُوَّاماً، ومنهم رُكَّعٌ ومنهم سُجَّدٌ، ومنهم ذاكرون مُسَبِّحونَ حَامِدون؛ فهذه الأحوال كلُّها قد جمعتها الصلاة

---

(٨) في المُوَطّأ (١/١٧٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتعاقَبُون فيكم: ملائكةٌ باللّيل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثمّ يَعْرُجُ الّذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون».

(٩) ينظر تفسير سورة (الجنّ) في كتب التفسير، مثل الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩/١٢ وما بعدها).

حتى [لا] يفوت ابنَ آدم عملٌ من أعمـال الملائكة، مع مـا جـاء في الأخبار من الحض عليها وتعظيم الوعـد والوعيـد على فعلها وتركهـا في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله.

وأيضاً فإنّ فُروض الصّلاة أكثر من سـائر الأَعمال كما سيأتي إن شـاء الله تعالى عنـد تعـداد فُروضها، وقد قـال عليه السّلام(٩): «إن الله يقول: ما تقرب إليّ عَبدي بمثل أَداء ما افترضت عليه». فَمَا كانت الطّاعـة أكثر فروضاً كـانت أفضل.

وأما ظهور نبينا عليه السّلام وتقدّمه في ذلك المحلّ فلا تحويه الرُّقوم، ولا تحيط به ثاقبات الفهوم. لكنّا نقتصر منه على بعض ما تضمّنه إكرام الله تعالى له في أمر الصّلاة؛ والله المستعان. وَهُوَ يَنقسم أَربعة(١٠) عشر قسماً:

أَحدها: أنّه كان وافداً على الله تعـالى، وضيفُ الكريم كريـم، فأَتحفه بهذه التُّحفة التي هي أُمّ الطاعات ورأس المعاملات كمـا تقدم.

الثاني: أَنْ فَرضَها خمسين وفي مَعْلُومِهِ تعالى نَسْخُ تِسْعَةِ أعشارِها ليظهر جاهه عند الملأ الأَعلى في السُّؤال والإِجابة؛ فلو فَرَضَ الخمسَةَ في أَوَّلَ وَهْلة لَمْ يظهر ذلك الجاهُ، كما لو قَدَّرْتَ كريماً وَفَدَ على مَلِكٍ عظيم فأَحْسَن له كما ينبغي لسعة مَمْلَكَتِه، ثمّ أمره أن يُلزِمَ قومَهُ خمسين وظيفةً، ثمّ قبل شفاعَتَهُ في أكثرها، أَترى كان يخفى [على] وُزَرَاءِ ذلك الملك وحاشيته مكانُ هذا الوافدِ عليه؟

الثالث: أنّه لم يَحُطَّها عنه جُملة بل نَجَّمَهَا عليه تِسْعَ مَرَّاتٍ، وذلك ليؤكّد

---

(٩) في مسند الإمام أحمد (٦/٢٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عزّ وجلّ: مَنْ أذلّ لي وليّاً فقد استحلّ محاربتي، وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء الفرائض...».

(١٠) في الأصل: «أَحَدَ عَشر...».

إكرامَهُ عند الملائكة، حتى يعلموا بَسْطَهُ له، وبايَنَهُ في تكرار الإسعاف مع تكرار السّؤال.

الرابع: أنه لم يُخْطِهِ في هذا التّكرار إلا بعد أن فارق البساطَ، وانصرف ثم رجع، وذلك زيادةً في الإكرام، وذلك أنّ الوفود إذا فارقت بساطَ الملوك بعد قضاء الحوائج لا ينبغي لها أن ترجع في طلب حوائج أُخَرَ، فَلَئِنْ رجع وافدٌ منهم في طلب حاجة أُخرى، فهو أَدَلُّ دليلٍ على تأكيد كرامةِ هذا الراجح في طلب الحاجة الأُخرى. فَأَعْجِبْ بها كرامةً إذ رجع تسعَ مَرَّاتٍ فأسعفه المَلِكُ في كلِّها. وأَعْجَبُ من ذلك أنّه تعالى لم يسعفه تسع مَرَّات [إلاَّ] في جِنْسٍ واحد، وأنّه قد تَصْلُحُ المراجعة في المختلفات، فَأَكْرِمْ بها إذ كانت في الجنس الواحد.

الخامس: أنه تعالى لمّا علم أنّه لا يُسْعِفُهُ في حَطِّ شَيْءٍ من الخمسة أَلقى عليه الحياءَ، فقال له موسى: ارجِعْ إلى ربّك. فقال: إني أستحيي، فلو رجع ولم يُسْعِفْهُ لانْخَرَمَ نظامُ الجاه. فبما قدّمناه من الكرامة وفي ذكره الحياءَ أيضاً لموسى عليه السلام أَدَبٌ معه، ليعلّمه أنَّ الرّأي ما رآه موسى عليه السّلام لولا أنّه منعه الحياء.

نوَّرَ الله صدورنا وعقولنا وأعاننا على تعظيم الأكابر وإبراز بعض مناقبهم السَّنِية.

السادس: وهو أَنْ حَطَّ عنه وعن أمته معظم الكُلْفَةِ، وأبقى لهم أَجْرَ العدد كما سبق حين قال: «هي خمس وهي خمسون. ما يبدل القول لدي» يعني خمساً في العدد وخمسين في الأجور.

السابع: أنّه بشّره أنّ سائر أعمال البرّ المفروض والمنذُور تجري على حكم الصلاة وتضعيف الأجور من قوله: «ومَنْ همَّ بحسنة فعملها كُتبت عشراً».

الثامن: بَشَّرَهُ أنه يضاعفها إلى سبع مئةٍ ويزيد.

التاسع: أنّه بشّره أَنَّ مَنْ همَّ بحسنة ولم يعملها كُتِبَتْ حسنةً واحدة.

العاشر: أنّه بشّره أنّ مَنْ همّ بسيئة وعملها كتبت سيّئة واحدة.

الحادي عشر: أنّه بشره أنَّ من همَّ بسيِّئة ولم يعملها لم تكتب شيئاً.

الثاني عشر: وهو ما اختص به من السُّرعة في قطع المسافة في تلك اللّيلة، وذلك أنّه أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمّ صُعِدَ به إلى سِدْرَةِ المنتهى، ثم رجع إلى السّماء السادسة، وعاد إلى سدرة المُنتهى في مناجاة الكليم عليه السلام تِسْعَ مرَّاتٍ، ثم إلى منزله الذي خَرج منه أَوَّلَ اللّيل قبل الفجر، وهذه المسافات كيف ما قُدِّرَتْ أبعادُها فهو أمر لا يُحَدُّ وسُرْعَةُ حَرَكَاتٍ لَا تُتَخَيَّلُ، لا سيّما مع شهادة الأدلّة العقليّة أن الجزءَ إنما يَقْطَعُ بالحركات جُزءاً بعد جزء بحركةٍ بعد حركة وأن الطَّفْرَة مُحَال.

وأمّا ما ظهر من فضل أُمّته، فمن أَجله وبسببه وحُسْنِ وَسَاطته، فلا نحتاج أن [نُرْخِيَ] عنان القول فيه، فثبت بهذا أنّ سُرعة الحركات وبُطأها إنّما ترجع لكثرة اللَّبْثِ في الأحيان لا لنفس الحركات فإنّ الحركة إنما يُقْطَعُ بها جزء بعد جزء بشهادة العقل.

الثالث عشر: وذلك أنه احتاط على أُمّته وسأل عند المناجاة الرِّفْقَ بهم والتّخفيفَ عنهم واختار قضاءَ حوائجهم ولم يختر لنفسه ولا سأل لها، وهذه غاية الفضل الذي لا يُبارَى فيه، فإنَّ الوافد على المُلوك إنما يقدّم سؤالَ حاجته، وهو عليه السّلام قدّم سؤال حاجة رَعِيَّته ولم يسأل لنفسه، وينظر لذلك ما جاء عنه عليه السّلام أنه قال[11]: «لكل نبيّ دعوة واختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة».

(١١) في صحيح مسلم (١/١٨٨) من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لكلّ نبيّ دعوةٌ يدعوها. فأريد أن أَخْتَبِيء دعوتي شفاعةً لأمّتي يومَ القيامة».

ويروى: «ادّخرت دعـوتي شفاعتي لأُمتي يوم القيامة».

فصحّ فضلُ أُمّتـه بسببه، فإنّـه ذَكَرَهُمْ ونَوَّهَ بهم واختار لهم وألحّ في السؤال علىٰ الله تعالى حتى قُضيت حوائجهـم، فأيُّ مِنَّةٍ لِنَبيٍّ كمِنَّتِهِ علينا؟ فصار فضلُهـم تَبَعاً لفضله، وكرامَتُهُمْ تَبعاً لكرامته، فجـزاه الله عنّا خير مـا جزى نبيّاً عن أُمته.

ومع ما قدّمنا من الفَوائد ـ وهي الرّابعة عشرة ثلاثُ فوائد عظيمةِ المَوْقِعِ في مسائـل الاعتقاد عقلاً وشـرعاً، وقد كثر فيها مكابرة أهل البـدع ومثابرتهم:

الأولى: إثبات جواز الأمر من الله تعالى بما لا يريد وقوعَـه، فإنّه تعالى أمـر بالخمسين ولم يرد وقوعها من المكلّفين.

الثانية: وهي بُطْلاَنُ ادّعائهـم استحالَةَ الأمـر من الآمـر بما لا يريد وقوعـه، وفي هٰذه القصة إثبات ما أحالوه.

الثالثة: وهي جـواز نسخ الحكـم قبل وقـوع العمل به، فإنَّهم يأبَوْن ذٰلك، فصح أنّه أمـر بالخمسين ونسخ منها خمسة وأربعين، فإن قـالوا إنّه وقـع بعضه وهو اكتساب النبيّ عليه السّلام العِلْمَ بها والإرادة لفعلها، وكلاهما عبـادة؛ فالجـواب عنه: أن المـأمور بها إنَّما هي الصّلـوات المنسوخة التي هـي حركات وأصوات ونيّات وعـزم يتجدّد عند افتتاحها، وهذه هي الصّلاة المعلومة في الشّرع، ولا تسمّى النية والعلم صـلاة على الانفراد.

فهذا رحمـك الله بعض ما تيسـر من التفقّـه في بعض حديث الإسراء. فإن مَنَّ الله تعـالى وسـاعدت الحياة فعسٰى نَتَدَبَّرُ سـائر الحديث بما يفتح الله وهو حسبنا ونعم الوكيـل.

فصل

وها أنا أنبه بعد هذا علىٰ ما شرطناه في تقديم هذه الطاعة العُظمى علىٰ سائر المعاملات، وتعداد أعمالها على التفصيل، ظاهراً وباطناً، فروضاً وسنناً وأجوراً.

فأما التّنبيه علىٰ فضلها والترغيب فيها، لما جَمَعَتْ من إعداد الطاعات وتضعيف الأجور عليها، وتحريض المكلَّف على آدابها فاعلم - رحمك الله - أنّ جميع أعمال الطّاعات سوىٰ الإيمان المُصَحِّح لها علىٰ ضربين: ظاهر وباطن.

فالظاهر على ضربين: أصوات وأكوان.

والباطن على ضربين: علوم ونيّات.

والقدرة الحادثة تتعلق بجميع هذه الكائنات، ثم جميعها تنقسم في الشرع قسمين: فُروض ومندوبات. وكلها عبادات ومعاملات، لكنّ المفروض منهما أرفع درجات وَأَمَتُّ للقُرُبَاتِ، كما جاء عن سيد السّادات صلّى الله عليه وسلم أفضل الصلوات حيث قال[١٢]: «إن الله تعالى يقول: ما تَقَرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء المُفْتَرَضَات».

فصل

لكن إذا نظرت إلىٰ هذه الصلاة المكتوبة وجدت أعداد فروضها وسننها يشفُّ على سائر أعداد الأعمال المشروعة. فإذا عددت صلاة شهر وجدتها زادت على طاعات العُمر فروضاً وسنناً. فأوّل الفُروض ظاهراً

(١٢) في مسند الإمام أحمد (٦/٢٥٦) من حديث عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «وقال الله عزّ وجلّ: ... وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء الفرائض...» الحديث.

من سواها كَلِمَةُ الإخلاص(١٣)، وفرضها مرة في العمر، وما سوى ذلك فمندوب إليه؛ وكذلك الحج من استطاع إليه سبيلاً.

وأما فرضُ الزكاة فمرّةٌ في السّنة، لِمَنْ وجبت عليه.

وأما فرض الصَّوْم فشهر في كل سنة.

وأمّا فرض الجِهاد فإذا دَهَمك العَدُوّ، أو أَمرك إمامُ الوَقت. وهاتان الحالتان قد تقع ولا تقع.

وأما التّوبة فَتَجِبُ علىٰ من أَذنب، وهي غير معيّنة العدد.

فصار علىٰ هذا معظم العدد في المفروضات دون عدد فروض الصلوات المكتوبة.

[وأمّا] الصوم فإذا عددت عمر سبعين سنة الذي هو رأس المعترك تجد صومك فيها خمسة وخمسين شهراً، بعد إخراج سني الطفولية التي هي خمس عشرة سنة.

وإن قابلت عدد الصّلوات بأعداد أيّام الصّوم في العمر قوبلت بعده فرض صلاة يوم وليلة، وكذلك أعداد الزكاة، على ما تقدم.

فصارت كلمة الإخلاص والزّكاة والصّوم والحجّ مئة فرض واثني عشر فرضاً، فقد فَضَلَتْ أعدادُ فروضِ الصّلوات الخمس في الشّهر سائرَ أعداد المُفترضات في العمر بثمانية وثلاثين فرضاً، وهي رُبْعُ العدد المتقدّم جملةً بجملة(١٤).

(١٣*) يعني شهادة أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله.

(١٤) هذه حاشية لأحد مالكي النسخة إبراهيم بن أحمد بن محمد الملاّ، وقد ترجمنا له في ذيل مقدّمة التحقيق؛ قال رحمه الله: «أقول إيضاح هذا المقام يحتاج إلى بسط كلام، وذلك أنّه قد مرّ من قبل أن رأس معترك العمر هو سبعون سنة، وأنّ الباقي من ذلك بعد إسقاط سنّ عدم التكليف خمسٌ وخمسون، وأنّ فرض الصّوم فيها كل سنة شهر يبلغ =

فصل

وأما التّفصيل فأضعافٌ لا يَكاد يَحصرها العددُ ظاهراً وباطناً على حسب ما تقدّمت القسمة، فأمّا ظاهر اللّفظ المفروض فهو ثلاث: أم القرآن وتكبيرة الإحرام والسّلام، على ما صح في المذهب من غير خلافِ مَنْ خالف في بعضها، على أنَّ من خالف في بعضها لم يختلف في كونها طاعة، وغَرَضُنَا إنما هو تكثير الطاعات وتضعيف الأجور عليها.

فأما عدد حروف أم القرآن بالمُضاعَفَةِ المُشَدَّدة منها وحروفِ المدّ واللِّين فمئةُ حَرْفٍ وأحد وعشرون حرفاً، اضْرِبْهَا في سبعةَ عَشَرَ الّتي هي عَدَدُ ركعات اليوم واللّيلة صار منها ألفا حرفٍ وسبعةٌ وخمسون حرفاً؛ فأضِفْ لها عَددَ حروفِ تكبيرةِ الإحرام والسّلام اللّذَيْنِ هما أَحَدٌ وعشرون، بحرفين مشدَّدَيْنِ وَحَرْفَيْنِ مَمْدُودَيْنِ، صارَ الكُلُّ أَلْفَيْنِ ومِئَةً واثنين وستّين حرفاً؛ فأَضِفْ لها الأفعال المفروضة التي هي مئة فعلٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ فعلاً صار العددُ أَلفَيْ فَرْضٍ ومئتي فرضٍ وأحداً وثمانين فرضاً؛ ضِفْ لها

= مجموعُه خمساً وخمسين فرضاً، فاجتمع من هذين الفرضين المتكررين كل سنة مئة وعشر فروض. وإذا أضفت إلى هذا المبلغ من العدد فرضَ الإخلاص الذي هو في العمر مرّة، وفرضَ الحجّ الواجب في العُمر مرّة، بلغ المجموع كما قال المصنف قدس الله روحه مئة واثني عشر فرضاً، وأمّا فَرْضُ الجهاد فإنّه قد يقع في العمر وقد لا يقع، وفرضُ التوبة فليس له عددٌ معيّن، كما صرح بكل مما ذكرناه المصنف فيما قبل، فلهذا لم يضمّها في العدد إلى المبلغ المذكور، فهذه جملةُ العبادات المفروضة في العُمر، فإذا قوبلت بهذه الصلوات المفروضة في شهر كانت صلاة الشّهر مئة وخمسين فرضاً؛ فتفضل أعداد فروض الصلوات في الشهر حينئذ سائر أعداد المفترضات في الشهر ثمانية وثلاثين فرضاً، وهي رُبع العدد المتقدم جملة بجملة؛ فهذا توضيح إشكال هذا المقام، وكشف ما عليه من الغطاء واللّثام.

حرر ذلك، وقرّره حين المطالعة إبراهيم بن الملاّ أحمد بن الملا محمد الشّهير بابن الملاّ المحدّث الأثري الحلبي العبّاسي، لطف الله تعالى به وبأُصوله وفُروعه وعفا عنهم وغفر لهم.

تحريراً في أواسط جُمادى الأُولَى سنة ١٠٢٨».

فرضَ التَّوَجُّـهِ إلى القـبلة قيامـاً وقعوداً سبعـين مرّةً، صـارت ألفـين وثـلاث مـئة وأحـداً وخـمسين فرضاً؛ فإذا صَحَّ هـذا العددُ ضِفْ لَهُ ضِعْفَيْهِ من النِّيَّـات عند فعلها والعـلوم بها إذ لا يصحُّ عملٌ منها إلا بنيّةٍ وعِلْمٍ، صـار منها سبعـة آلاف فـرض وثـلاث مئـة وخـمسون فرضاً؛ ضِـف لها ضِعْفَهَـا في السِّنين أقـوالاً وأفعـالاً ونيـاتٍ وعـلوماً صـارت أربعةَ عَشَرَ ألفَ طاعـةٍ وسَبْعَ مـئة طاعَةٍ، تتضمّنهـا الصّلوات الخـمس في كـل يوم وليـلة.

عـلى أنَّ السُّنَنَ أَكْثَـرُ عدداً، لكن قـصدنا الاختـصار بالحـذف وليتقابـل التّضعيف فيسهـل العـدد ضاعفهـا بِعَشْرِة أمثـالها من الأجـور عليها؛ إذ قـد صحَّ وثبـت أَنَّ الحـسنة بِعَشْرَةِ أَمثـالها(١٥)، صـارت مئـةَ ألـف حـسنة وسبعـاً وأربعـين ألـف حـسنة. ثـم إنّ هـذا العـدد الـذي نَبَّهَكَ الله عـليه في التَّضعـيف إنـما هو أُسٌّ شرعيٌ في عـدد الأُجـور بمثابـة الواحـد في العـدد، فأخـبرك الله تعـالى أنـه جعـل أقـل الأجـور في التضعيف عشـرة ثـم زاد إلى سـبع مئـة، ثم زاد إلى أن يُوَفَّىٰ الصابـرون أجـورهم بغير حـساب؛ يعني عندهم لكونهـم لا يُطيقون حَصْرَه، فـإنَّ كـلَّ ما خَلَقَ الله تعـالى يجـب أَن يـكون عنده معدداً مُحَـاطاً به على التَّفـصيل كما قـال تعـالى(١٦): ﴿وَأَحْصَـى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.

فصل

ولمـا استغرق العـدد في أمـر الصـلاة سـائرَ الطاعات لم نتعرّض لعـدد طاعات الطَّهـارة لحـصول المقصـود في الكثـرة، على أنّ هـذا العدد ـ على كثرتـه ـ إنّـما هـو فيما هـو في وسع البشر وأمّـا ما هـو في معـلوم الله تعـالى من

(١٥) انظر الحاشية ذات الرّقم: ١ .
(١٦) سورة الجنّ: ٢٨/٧٢

عدد الحركات والأصوات والعلوم والنّيّات وانتقال أجزاء جسم المصلّي في الأحياز والجهات بجملة هذه الأعراض التي لا يصحّ بقاؤها، فهو عدد ينفرد الباري تعالى به دون الخلق، وكلٌّ واحدٍ منها عملٌ في معلوم الله تعالى مُعَدَّد، خَلَقَهُ في المُكَلَّفِ وأضافَهُ إليه عَمَلاً وكَسْباً فقال تعالى(١٧): ﴿فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ وقال تعالى(١٨): ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، ﴿وَلَا يُظْلَمون نَقِيراً﴾(١٩) أيْ لا يُنْقَصُون وَلَا يُبْخَسُون وقال تعالى(٢٠): ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وقال(٢١): ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيْرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. وقال تعالى(٢٢): ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ في الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ ومجموعُ هذه الآي تدلّ على أن كلَّ عَرْضٍ عمل برأسه يقع الجزاء عليه تفصيلاً، فلا يُظَنَّ أنّ السّجدة مثلاً عمل واحد له عَشْرٌ من الأجور، بل كل عَرْضٍ فردٍ في كل جزءٍ فردٍ من الإنسان عَمَلٌ برأسه، له عشر حسنات تفضّل بها علينا أكرم الأكرمين، ثم إذا كان هذا التضعيف يصح للفذّ، فما ظَنُّك به في حقّ المُصلّي في الجماعة، وأمّا من صلى في الحَرَم فقد غمض الجليّ وأتى الوادي فطَمّ على القَرِيّ(٢٣)! فهذا هذا ولا يهلك على الله إلاّ هالك.

فصل

فإن كان هذا التّضعيف العظيم من أعداد الأجور يصحّ للمصلّي في اليوم واللّيلة، فما ظنُّك بصلاة شهر؟ وأيْنَكَ من صلاة سنة؟ وما أدراكَ من

(١٧) سورة الزَّلْزَلة: ٩٩/٧ـ ٨
(١٨) سورة النّساء: ٤/٤٩، وسورة الإسراء: ١٧/٧١
(١٩) سورة النّساء: ٤/١٢٤
(٢٠) سورة الطُّور: ٥٢/٢١
(٢١) سورة الكهف: ١٨/٤٩
(٢٢) سورة القمر: ٥٤/٥٢ـ ٥٣
(٢٣) طمّ على القريّ: غَطّاه، وملأه؛ والقريّ: مجرى الماء إلى الرَّوْضَة.

صلاة العمر؟! فنسأل الّذي فلق الحبّة، وبَرَأَ النَّسْمَة ومَنَّ على عباده المُغْرَقين في الذُّنوب بفرضها لتكفير سيئاتهم، وعلى المُوَفَّقين لرفع درجاتهم، أَنْ يُتِمَّ نعمته علينا بصحّة أدائها والاصطبار عليها بِمَنِّه وَطَوْلِهِ.

فصل

فتأمّل، رحمك الله، إلى هذه العبادة وما حَوَتْ من أسباب السّلامة، وتحصيل الدّرجات، والفوز بالمَثُوبات، حتى يتفطّن لمؤكّدات الكتاب والسّنّة في الحَضّ عليها والاعتبار بها في غير ما آية وخبر.

أما الآيات فكقوله تعالى(٢٤): ﴿إِنَّ الصَّلاة كانَتْ عَلَى المُؤمنين كتاباً مَوْقوتاً﴾.

وقوله تعالى(٢٥): ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ والصَّلاةِ الوُسْطى وقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾.

وقوله تعالى(٢٦): ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاَةِ واصطَبِرْ عَلَيْها﴾.

وقوله تعالى(٢٧): ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ﴾.

وقوله تعالى(٢٨): ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةِ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾. فذكر ذهاب السّيئات بإزاء ذكر الصلاة لأنه من أجلها وسببها.

وانظر كيف أكّد تعالى في أدائها حين خَفَّف من غيرها فقال(٢٩):

(٢٤) سورة النّساء: ١٠٣/٤
(٢٥) سورة البقرة: ٢٣٨/٢
(٢٦) سورة طه: ١٣٢/٢٠
(٢٧) سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩
(٢٨) سورة هود: ١١٤/١١
(٢٩) سورة المزّمل: ٢٠/٧٣

﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقال تعالى(٣٠): ﴿فإذْ لَمْ تَفْعَلوا وتَابَ الله عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

ولو تتبعت القرآن كلّه لوجدت هذه التشبيهات في آي لا تحصى عدةً، ويكفيك أن جعلها الله تِلْوَ الايمان: قال تعالى(٣١): ﴿إنَّنِي أَنَا الله لا إِلَه إلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

فلم يعطف على توحيده إلا بالصلاة، وقال(٣٢): ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وقال(٣٣): ﴿مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وأَقَامَ الصَّلاةَ﴾.

فحيث ما ذكر الإيمان أردفه بها حتى قالوا: وإنما سميت صلاة لكونها تِلْوُ الإيمان مأخوذة من المُصَلِّي وهو الفرس الذّي يلي السّابق من الحلبة، لكون أنفه عند صَلَوي السّابق وهما عِرقان في الفَخذِ.

فصل

وأمّا الأخبار فكقوله صلى الله عليه وسلم(٣٤): «أوّل ما يُنظرُ فيه مِن عمل العبدِ الصَّلاةُ، فإن قُبِلت مِنه نظر فيما بقيَ مِن عَمَلِه، وإنْ لم تُقبلْ منه، لم يُنظر في شيءٍ من عملِه». وقوله(٣٥): «إنَّما مثلُ الصَّلاةِ كمثلِ

(٣٠) سورة المجادلة: ١٣/٥٨
(٣١) سورة طه: ١٤/٢٠
(٣٢) سورة البقرة: ٣/٢
(٣٣) سورة التوبة: ١٨/٩
(٣٤) في المُوَطّأ (١٧٣/١): «عن مالك، عن يحيى بن سعيد، أنّه قال: بلغني أنّ أوّل ما يُنْظَرُ فيه من عَمَلِ العَبد الصَّلاة. فإن قُبِلَت منه، نُظِر فيما بَقِيَ من عَمَلِهِ، وإن لم تُقْبَلْ منه، لم يُنْظَر في شيء من عمله».
(٣٥) في الموطّأ (١٧٤/١): عن مالك، أنّه بلغه عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه؛ أنّه قال: كان رجلان أخَوَان، فهَلَكَ أحَدُهما قَبْلَ صاحبه بأربَعينَ ليلةً، فَذُكِرَتْ فضيلة الأوّل عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقال: «ألم يكن الآخر مُسلماً؟» قالوا: بلىٰ يا =

نَهـرِ غمرٍ عَذبٍ ببـابِ أحـدكُم. . .» إلى قـوله: «فإنَّكُمْ لا تَدرُون ما بـلغتْ بـه صَلاتُه». وقـوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «خَمسُ صَلواتٍ كتبهنَّ الله تَعـالى علـىٰ العِبـادِ. . .» إلى قـوله: «كَان لَهُ عِند الله عَهـد أن يُدخـلُه الجنـةَ. ومن لَم يَأْتِ بهنَّ فَليـس له عِنـد الله عَهـدٌ» الحـديث. وقـوله عليـه السّلام، في سؤال الله الملائكـة، علىٰ جهـة المُبَاهاةِ بالمُصَلِّين[٣٧]: «كيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي» الحـديث. وقـول عمـر رضي الله عنه لعمّاله[٣٨]: «إنَّ أهـمَّ أموركـم عنـدي الصَّلاةُ، فَمــن حَفظهـا وحـافظ عليهـا حفِظـه الله، ومن ضَيَّعهـا فَهـو لما سواها أضيعُ».

فجعلهـا أهـم الطاعات، وآكَدَ القربـات.

ألا تـرى حيث فُرِضَـت بالملأ الأعـلى بحـضرة الملائكـة المُكَـرَّمـين ومَشْهَـدِ الرُّسُـلِ الكـرام، والسّادات الأعـلام، كما تقدّم ذِكْـرُهُ.

وكـيـف أَيْأَسَنَا من نسخهـا ونسخ بعضهـا، فقـال[٣٩]: «هـي خَمْسٌ، وَهِـيَ خَمْسُـون. لا يُبدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ». فعرفت أنهـا من الله صِدْقٌ؛ أيْ حَتْمٌ. ومـا عسىٰ أن أُطيلَ في أمر هـو أظهـر من أن يُحْتَاجَ فيه إلى تطويـل، ولنكتـفِ

= رسول الله، وكـانَ لا بـأسَ به، فقـال رسـول الله صـلى الله عـليه وسلّم: «ومـا يُدْرِيـكم ما بَلَغَتْ به صَلاَتُه؟ إنّـما مَثَلُ الصَّـلاة كَمَثَلِ نهـر غَمْرٍ عَذْبٍ، ببـاب أحـدكم، يقتحـم فيه كـلّ يومٍ خَمْسَ مـرّاتٍ، فما تَرَوْنَ ذلكَ يُبْقي من دَرَنـه؟ فإنّـكم لا تـدرون ما بلغـت به صَلاَتُه».

(٣٦) في الموطّأ (١/١٢٣) من حـديث عبادة بن الصامـت رضي الله عنه قـال: سمعتُ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يـقول: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كتبهـنّ الله عزّ وجـلّ على العباد؛ فمن جـاء بهـنّ، لم يُضَيِّعْ مِنْهُـنَّ شيئاً، استخـفافاً بحـقّهـنّ؛ كـان لهُ عنـد الله عهـدٌ أن يُدْخِلَهُ الجَنْـة؛ ومَنْ لم يأتِ بهـنّ، فـليس له عند الله عَهْـدٌ؛ إن شـاء عذّبـه، وإن شـاء أدخـله الجـنّة».

(٣٧) انظر الحـديث بتمامـه في الحـاشية (٨).

(٣٨) في الموطّأ (١/٦) عن مـالك، عن نـافع، مولى عبد الله بـن عُمَرَ، أنّ عمر بن الخَـطاب كَتَبَ إلى عمّـاله: إنَّ أهـمّ أمْركم عندي الصَّلاةُ. فَمَنْ حَفِظَهَـا وحـافَظَ عليهـا، حَفِظَ دِينَهُ؛ وَمَنْ ضَيَّعهـا فهـو لما سِواها أضيع. . .» الحـديث.

(٣٩) انظر الحـاشية (١).

بقوله صلى الله عليه وسلم[٤٠]: «أَرِحْنَا بِهَا يا بِلَالُ». يعني بالصلاة، وبقوله صلى الله عليه وسلم[٤١]: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلَاةِ».

فصل

فتأمّل أيُّها العاقل الموفَّق لهذه العِلْقَة الثمينة، والأمانة المَصُونة، والحُظْوَة الضّمينة لك بالسَّلامة والعناية المكينة، وشُدَّ عليها كف الضَّنين[٤٢]، واحفظها حفظ المُؤْتَمَنِ الأمين، ذخيرةً ليوم الافتقار، وجُنّة[٤٣] بينك وبين النَّار.

فصل

لكن إياك أيّها المصلّي مع ما تقدّم لك أن يبسطك الرجاء بكثرة الأجور فتهوي بك في دَرَكَاتِ[٤٤] الغرور، وعالج هواك بأن تعلم أنّ حصول الفضل لا يصح إلا بأربعة شروط وهي:

العلمُ بتفاصيل أحكامها؛

والإخلاص في كل ظاهر منها وباطن لله تعالى؛

وحضور القلب عند أدائها في كل لحظة، لأنَّهُ مالَكَ منها إلا ما عَقلت، كما جاءَ في الخبر[٤٥]؛

---

(٤٠) في مسند الإمام أحمد (٣٧١/٥) من حديث عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قُمْ يا بلال فأرحنا بالصَّلَاة».

(٤١) في مسند الإمام أحمد (١٢٨/٣) من حديث أنس رضي الله عنه، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «حُبِّبَ إليَّ مِنَ الدُّنيا: النِّساء والطِّيب، وجعل قُرَّةعيني في الصلاة».

(٤٢) الضَّنين: البخيل.

(٤٣) الجُنَّة: كلّ ما يقي الإنسان، ويستُره.

(٤٤) الدَّرَكات: جمع الدَّرَكة، وهي المنزل من منازل جهنّم، بعكس الدَّرجة التي هي المنزلة من منازل الجنّة.

(٤٥) في مسند الإمام أحمد (٢٠٤/٣) عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دَخَلَ المسجد فرأى حبلاً ممدوداً بين ساريتين... فقال: «لتصلّ ما عَقَلْتَ فَإِذَا غُلِبت فَلْتَنَمْ».

ورؤية التّقصير فيها بعد الفراغ منها.

كان الحسين بن علي؛ رضي الله عنهما؛ إذا توضّأ للصّلاة تغير لونه واضطربت فرائصه(٤٦)؛ فسئل عن ذلك فقال: أتدرون بين يَدَيْ مَنْ أَقف! أتدرون مَنْ أُخاطبُ؟!

فهذا هذا، وأنَّى لنا بذلك، ومن أين؟ وحسبُنا ما نعلم من تفريطنا وغَفلتنا. وإذا صحّت هذه، وقلَّ ما تصحّ، فالأمر بَعْدُ موقوفٌ على السَّابقة. ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبرحمته فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٤٧).

فصل

وأما أنت أيها التاركُ البطّال المنهمك في غُلَوَاءِ التّعطيل، المرتبك(٤٨) في طَماعية الأمل المُخَيل(٤٩)، الذي يسمع الأذان في كلّ يوم وليلةٍ خمس مَرّات، وأنت وادعُ القَلب مُطمئنُّ الجوارح لا تصحوُ من سكرتك، ولا تتيقَّظُ من غامض غَفلتك، كأنَّك لم تُفْرَضْ عليك، وكأَنَّ المطلوب بها غيرُك. ولتعلمْ أنّ كل ما سبق من أفراد العدد في الأعمال الصالحة المفروضة عليك مثلُ عَددها من الآثام في التَّرك، لكون جزاء السيئة بمثلها.

وأنت مع ذلك في دُنياك: أَبْطَشُ من عقاب(٥٠)! وأَحْذَرُ من

(٤٦) الفرائص: جمع الفريصة، وهي اللّحمة بين الجَنْبِ والكتف.
(٤٧) سورة يونس: ١٠/٥٨
(٤٨) رَبَكَ فلاناً: ألقاهُ في وحلٍ فارتَبَكَ فيه واضطرب.
(٤٩) المُخِيل: المخادع؛ وأصله في السّحاب الذي تحسَبُه ماطراً فَيُخْلِف.
(٥٠) من أمثال العَرَب: «أبصر من عقاب» و«أبطش من دَوْسَر»، ودَوْسَر إحدى كتائب النعمان بن المنذر. (انظر جمهرة الأمثال ١/٢٣٩ و١/٢٥٣).

غُرَاب(٥١)! ذِئْبُ عَتمٍ، وضَبْعُ قَرمٍ(٥٢)، جَمَّاعٌ مَنَّاعٌ، عِفْرِيةٌ نِفْرِيَةٌ(٥٣)، تنتهزُ الفُرْصةَ، وتغتنم من قمامة أخيك القَبْصَة(٥٤)، وتَخْدَع مَنْ سِواكَ ولو في نُفْثَةِ(٥٥) سِواك، لتحصل بها شَهواتك، وتُجاهر من يَطَّلع عليك في خلواتك.

كما قيل(٥٦):

مَا أَمْيَلَ النَّفْسَ إِلَىٰ البَاطِلِ ... وأَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى العَاقِلِ
تُرْضِي الفَتَىٰ في عَاجِلٍ شَهْوَةٌ ... لَوْ خَسِرَ الجَنَّةَ في الآجِلِ

فإن ادَّعَيْتَ الجهلَ بما يَلْزَمُكَ، فما أُعْلَمُكَ بما لا يَلْزَمُك. وإلا فانظر كيف تُجْهِدُ أَيَّامَكَ، وتصرف غوائلك، وتنصب شَرَكَكَ وحبائِلَكَ لِتَصَيُّدِ نَزْرٍ(٥٧) خسيس، بخبث مكائد لا يتفطن لها إبليس.

يا بائس يا فقير، يا دودةَ الحرير، تَبْنِي على نفسك سرادق(٥٨) نحسك وبخسك(٥٩)!

كما قيل(٦٠):

---

(٥١) جمهرة الأمثال (١/٣٩٦).
(٥٢) القَرَم: شدّة الشهوة إلى اللّحم.
(٥٣) يقولون: عِفْرِيةٌ نِفْرِيةٌ، وعِفْرِيت نِفْرِيت، وعُفَارِيةٌ نُفَارِيةٌ، وغير ذلك، وكل ذلك على الإتباع.
(٥٤) القبصة: ما تتناوَلُهُ بأطراف أصابعكُ.
(٥٥) النُّفثة: أراد النُّفَاثة، وهي الشظيّة من السِّواك تبقىٰ في الفم فتُنْفَث.
(٥٦) البيتان من أوّل قصيدة لأبي إسحاق الإلبيري: (ديوانه: ٥٩)
(٥٧) النَّزْرُ: القليل.
(٥٨) السُّرَادق: ما يُمَدُّ فوْقَ صحن البيت، والبيتُ مِنَ القُطْن؛ وأراد به ما تنسجه الدّودة على نفسها من خيوط الحرير، شبّه به ما يجنيه الإنسان ويجمّعه من مال ولا يُنْفِقُهُ، فهو للوَرَثَةِ؛ كما أنّ الدُّودة تجمع الحرير فيأتي مَنْ يأخذه.
(٥٩) البخس: النَّقْصُ، والظُّلْمُ.
(٦٠) لم أعثر عليه في مصادري.

تَجْمَعُ ما تَتْرُكُهُ حَسْرَةً لِوَارِثٍ أَوْ آمِلٍ أَمَّلَكْ
أَقْرَبُهُمْ مِنْكَ وَأَدْنَاهُمُ إِلَيْكَ مَنْ فِي حُفْرَةٍ أَنْزَلَكْ
وراحَ مِنْ قَبْرِكَ مُسْتَعْجِلاً فَتَّشَ مِنْ فَرْحَتِهِ مَنْزِلَكْ
وَحَلَّ ما أَخْفَيْتَ مِنْ عُقْدَةٍ كُنْتَ بَخِيلاً أَنْ يَرَاهَا مَلَكْ!

قال بِشر بن الحارث رحمةُ الله عليه(٦١): «لابن آدم في ماله ثلاث حَسَرات؛ يجمعُه كُلَّه، ويَتْرُكه كُلَّه، ويُسْأَل عَنْه كُلّه!».

وكما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خطبة خطبها(٦٢): «رفعتمُ الطِّين، ووضَعتُمُ الدِّين، وضَيَّعتم المساكين، وتشبَّهتم بالدَّهاقين، فألحقتم بالمَلاعين!».

أيُّها المُغَالِطُ لنفسه، المتغافل عن هَيْلِ التراب عليه في رِمْسِه، راجع بصيرتك، وسَدِّدْ نَحِيزَتَكَ(٦٣)، وقَدِّر أنك المطلوب وحدك.

قال الله تعالى(٦٤): ﴿وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ يا رَوَّاغُ(٦٥)، يا خَدَّاعُ ﴿لاَ وَزَرَ. إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾(٦٦). فافرغ إلىٰ عقلك من غَمَرَات(٦٧) حِسِّك، وصَيِّرْ يَوْمَكَ خيراً من أَمْسِك، حذارِ حذارِ فَجْأَكَ المَوْتُ، فَبادِرْ إلى التَّوْبَةِ قَبْلَ الفَوْت. جَعلنا الله وإيّاكم مِمَّن قالَ وفَعَلَ،

---

(٦١) بشر بن الحارث المشهور بالحافي، من الأئمّة الزّهّاد المتصوّفة المحدّثين، أخذ الحديث عن مالك وشريك وغيرهما، توفي سنة (٢٢٧). انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٠٠ - ٤٦٩) وانظر مصادر ترجمته ثمّة.

(٦٢) لم ترد في نهج البلاغة.

(٦٣) نحيزة الإنسان: طبيعته.

(٦٤) سورة مَرْيَم: ٩٥/١٩

(٦٥) الرَّوَّاغ: الثَّعْلَبُ.

(٦٦) سورة القيامة: ١١/٧٥ - ١٢

(٦٧) الغَمَرَات: جَمْعُ الغمرَة، وهي الشِّدَّة، والازدحام.

وأُمِرَ فامْتَثَل، بفضله بِمَنِّه، ولا جَعلنا ممّن يَرَىٰ القَذَىٰ في عَيْنِ أَخيه ولا يرىٰ الجِذْعَ في عينه(٦٨).

وبالله التوفيق وبه أستعين، وهو حسبُنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلَّى علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً.

*** *** ***

كَمُلَ بحمد الله ومَنِّهِ وحُسْنِ تَوْفيقه، ووقع الفراغُ من تحريره على يَدِ الفقير إلى الله، الخاطىء المذنب، الراجي عفوَ ربه الكريم، إسحاق بن محمود بن بلكويه بن أبي الفيّاض الشَّابُرْخواستي البُرُجرديّ غَفَرَ الله له ولوالدَيْهِ ولجميع أمَّةِ محمَّد برحمته الواسعة.

وذلك في الخامس عشر من صفر، سنة ست وأربعين وستمائة، بالقاهرة المحروسة المُعِزِّيَّة.

والأصل الذي انْتُسِخَ منه كان مقابلاً بأصلِ المؤلِّف رحمة الله عليه.

والحمد لله وحده، وصلواته علىٰ نبيّه محمّد وآله وصحبه وعِترَتِهِ الطَّيِّبين الطَّاهرين.

*** *** ***

قال عبد الله الرّاجي رحمته ومغفرته: محمد رضوان بن أحمد بن عبد الرزاق بن أحمد الدّاية المكيّ أرومةً الدمشقي الصالحي أصلاً، الدُّومي ولادةً وإقامة.

نجز ـ بحمد الله وتوفيقه ـ النظر في كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء لأبي الحسن علي بن أحمد الأموي السبتي غُرّة يوم الثلاثاء،

(٦٨) من حديث في كشف الخفاء (٢/٥٤٣)، ونصُّه: «يُبْصِرُ أَحَدُكم القَذَى في عين أخيه، وينسى الجِذْعَ في عينه».

تاسع محرّم الحـرام عام إحدى عشرة وأربع مئة وألف (١٤١١) من هجـرة سيدنا ونبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وزاده تشريفاً وتكريماً، الموافق الحادي والثلاثين من شهر تمّوز من عام تسعين وتسع مئة وألف ١٩٩٠ من مولد عيسى المسيح عليه السّلام .

كتب الله لي هـذا الجهد في الأعمال المقبولـة، وأجزل لي مثوبته ورضوانه بعفوه ومنّـه، إنّه ذو الطّول والفَضْل؛

وصلى الله على سيدنـا ومـولانا محمـد وعلى آله وصحبـه .

والحمد لله رب العالميـــن

فهارس الكتاب

١. فهرس الآيات.
٢. فهرس الحديث.
٣. فهرس الشعر.
٤. فهرس الأعلام.
٥. فهرس موضوعات الكتاب.

١. فهرس الآيات

رقم الآية — الصفحة

سُورة آل عمران (٣)

سورة النّساء(٤)

سورة المـائدة (٥)

سـورة الأنعـام (٦)

سورة الأعـراف (٧)

٢ ـ فهرس الحديث

الصفحة

الصفحة

٣ - فهرس الشعر

٤ ـ الأعلام

٥. فهرس موضوعات الكتاب

الصفحة

الصفحة

